

انتشار الاسلام

في الفتارة الإفريقية

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن
(مدير جامعة أسيوط (سابقاً))

الطبعة الثانية

١٩٦٤



مركز النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
وشارع عبدالعظيم بالقاهرة



0156756

Bibliotheca Alexandrina

انتشار الاسلام

في القارة الإفريقية

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن
(مدير جامعة أسيوط (سابقاً))

الطبعة الثانية

١٩٦٣



ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
و شوارع عدلي باشا بالقاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

١

مقدمة

الباب الأول

مسالك الإسلام إلى إفريقيا

٨

١ — أهمية القارة الإفريقية

١١

٢ — الطرق التي سلكها الإسلام إلى القارة الإفريقية

١٣

العرب ونشر الإسلام في إفريقيا

١٤

دور المغرب في نشر الإسلام بإفريقية

٢٢

في بلاد النوبة ودنقلة

٢٦

على الساحل الشرقي

الباب الثاني

وسائل انتشار الإسلام في القارة الإفريقية

٣٧

١ — الفتح

٤٢

٢ — الفرق الصوفية

٤٧

(١) القاهرية ٤٣ التجانية ٤٤ السنوسية

٥٠

٣ — الملائمة بين الإسلام والمذهب الحيوي في العقائد والشريعة

٥٠

(١) الوضع الحالي للإسلام في إفريقيا

٥٣

(ب) انتشار الإسلام في إفريقيا الاستوائية .

٥٧

(ج) تأثير الشريعة الإسلامية وكيف تطبق .

٥٩

(د) الشريعة والعرف .

٦٠

٤ — الدعاة والمعلمون — الدعوة الإسلامية دعوة روحية

٧١

. مراكز الدعوة الإسلامية : الرباط : في المشرق ٦٩ في المغرب

٧٣

٥ — التجار

٧٦

٦ — العنصرية ومبدأ المساواة

٧٩

٧ — أثر الإسلام في الزواج

الباب الثالث

تاريخ انتشار الإسلام والعروبة في غرب إفريقيا

٨٢

١ — مقارنة بين شرقي القارة الإفريقية وغربيها

٢ — انتشار الإسلام والعروبة في المغرب الأقصى وامتداده إلى حوض

٨٧

السنغال والنيجر

صفحة

٩٤	٣ — الدول الإسلامية التي قامت في غرب إفريقيا
١٠٢	مملكة غانة ٩٤ مملكة صوصو في كانياجا ١٠٠ مملكة مالي
١١٦	مملكة صنغاي في جوا ١٠٩ شعب الحوصا شمالي نيجيريا
١١٩	الشيخ عثمان دان فوديو — السلطان بللو
١٢٨	شعب اليوروبا جنوب غرب نيجيريا ١٢٤ مملكة برنو شرق نيجيريا
١٣١	مملكة الكانم شمال شرق بحيرة شاد ١٣٠ إمارات موسى — داجبا
١٣٦	مملكة الهبارا في سيجو وكارتا ١٣٣ الحاج عمر — عمرو كبا

الباب الرابع

الدول الإسلامية في شرق القارة الإفريقية

١٣٩	مملكة النوبة ودقة
١٥١	مملكة الفونج في سنار
١٥٩	مملكة دارفور
١٦٢	بلاد الحبشة
١٧٤	الساحل الشرقي للقارة الإفريقية
١٨٤	جزيرة سقطرة ١٨٣ جزيرة قر ١٨٣ - جزيرة مدغشقر
١٨٨	مستعمرة الكاب ١٨٦ فيما وراء الساحل الشرقي : أوغندا — نياسالاند
١٨٨	بلاد الصومال
١٩٤	سلطنة زنبار
٢٠١	السيد سعيد في سقط ١٩٤ السيد سعيد في زنبار
٢١٠	احصاء المسلمين ونسبتهم المثوية إلى سكان القارة الإفريقية

الباب الخامس

الثقافة العربية في إفريقيا

٢١٣	أولاً : الثقافة العربية في غرب إفريقيا
٢١٥	١ — أودغشت
٢١٧	٢ — جني
٢١٨	٣ — تمبكتو أو تمبكت
٢٢٢	٤ — مدينة كانو في نيجيريا
٢٢٧	ثانياً : الثقافة العربية في شرق إفريقيا
٢٢٧	١ — السودان
٢٣٣	٢ — الحبشة
٢٣٨	٣ — بلاد الصومال
٢٣٩	٤ — زنبار — انتشار اللغة السواحلية في شرق إفريقيا بوجه خاص

المصادر

الخرائط

٢١ خريطة رقم ١ غرب إفريقية : الأجناس الشهيرة

٢٣ خريطة رقم ٢ العلاقات بين شمال إفريقية وغربها

خريطة رقم ٣ ولايات السودان الغربى فى مستهل القرن الحادى عشر

٩٥

الميلادى

خريطة رقم ٤ ولايات السودان الغربى فى مستهل القرن الثالث عشر

١٠١

الميلادى

خريطة رقم ٥ ولايات السودان الغربى فى مستهل القرن السادس عشر

١١١

الميلادى

خريطة رقم ٦ ولايات السودان الغربى فى مستهل القرن السابع عشر

١١٥

الميلادى

١٢١

خريطة رقم ٧ ساحل الذهب ونيجيريا (١٨٢١ - ١٨٧٤)

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد ، فوضوح هذا الكتاب له أهمية بالنسبة إلى الإسلام والعروبة بوجه خاص وإلى الحضارة الإنسانية بوجه عام ، وهو : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية .

كانت إفريقيا في القرن التاسع عشر مركزاً لصراع الغرب ، وأخذت الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية تتطلع إليها وتعتمد على المصادر الطبيعية الضخمة التي تزخر بها أراضيها الغنية .

وقد أخذت شعوب القارة الإفريقية ، التي يبلغ عدد سكانها نحو مائتين وثلاثين مليون نسمة ، تفيق من سباتها وتعمل على نيل استقلالها ، الأمر الذي عده السياسيون أعظم أحداث القرن العشرين ، بل عده بعضهم أعظم أحداثه على الإطلاق ، وذلك نتيجة حتمية للوعى القومى الذى انبعث بين شعوب الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر . وكان من أثر انبثاق هذا الوعى أن أعلن استقلال ليبيا ، وأعلن السودان استقلاله في أول يناير سنة ١٩٥٦ ، وجلت الجيوش البريطانية عن منطقة قنال السويس نهائياً في ١٨ يونية من هذه السنة ، ونالت تونس والمغرب استقلالهما سنة ١٩٥٦ ، وانضمت توجولاند إلى ساحل الذهب وتكونت منهما جمهورية غانة التي احتفل باستقلالها في ٧ مارس سنة ١٩٥٧ . ونالت نيجيريا استقلالها ، واحتفل الصومال الإيطالى باستقلاله سنة ١٩٦٠ ، كما اشتدت المارك بين الوطنيين والجنود الفرنسيين

في الجزائر من أجل التحرر ، وبدأت جنوب إفريقية تتخذ سياسة مستقلة عن السياسة البريطانية . وأخذت الدول المستقلة في إفريقية ، وهي : مصر ، والحبشة ، وليبيريا ، وليبيا ، والسودان ، والمغرب ، والجزائر ، وتونس ، وغانة ، وغينيا ، وغيرها في إنشاء اتحاد إفريقي يعمل على دعم العلاقات الإنسانية والاقتصادية ، وتأسيس اتحاد يضم الشعوب الحرة ، كما هو الحال في آسيا وأمريكا ، وانهقد مؤتمر الشعوب الآسيوية - الإفريقية في القاهرة في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٧ لبحث شئون هذه الشعوب ، كما انهقد مؤتمر القمة في الدار البيضاء في شهر يناير سنة ١٩٦١ ، ومؤتمر القمة للشعوب الإفريقية في أديس أبابا في شهر يونية سنة ١٩٦٣ .

وقد قسمت هذا الموضوع إلى خمسة أبواب : بحثت في الباب الأول منها الطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقية الشمالية والغربية ، وإلى بلاد المغرب ودنقلة ، وعلى الساحل الشرقي للقارة الإفريقية . وعالجت في الباب الثاني وسائل انتشار الإسلام والعروبة في هذه القارة ، فتكلمت عن الفرق الصوفية الهامة ، كالقادرية والتجانية والسنوسية ، وبحثت ما هنالك من ملازمة بين الإسلام والمذهب الحيوى في العقائد والشريعة . كما تكلمت عن أثر المعلمين والتجار في نشر الإسلام ، وعن التفرقة العنصرية وأثرها في نشر هذا الدين بين الزنوج .

وتناولت في الباب الثالث تاريخ انتشار الإسلام والعروبة في غربى إفريقية ، فقارنت بين شرقى هذه القارة وغربها ، وعالجت انتشار الإسلام والعروبة في المغرب الأقصى ، وكيف امتد الإسلام إلى حوض السنغال . ثم ألمت بالممالك التي قامت في غربى إفريقية وما كان لها من أثر في نشر الإسلام والعروبة في جزء كبير من هذه القارة . وعرضت في الباب الرابع للدول الإسلامية التي قامت في شرقى إفريقية وما كان لها من أثر في نشر الإسلام والعروبة . ثم تناولت

في الباب الخامس الثقافة العربية في غربى القارة الإفريقية وشرقها ، فتكلمت على مراكزها وما كان لها من أثر فى نشر الإسلام والثقافة العربية .

وقد اعتمدت فى وضع هذا الكتاب على أنواع ثلاثة من المراجع :

الأول : ويشتمل على المراجع العربية الأصيلة والحديثة . ومن بين المراجع الأصيلة كتاب فتوح السودان تأليف عبد الرحمن السعدى التزكىنى (باريس ١٨٩٨) وكتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس لأبى الحسن الجزنائى (تلمسان ١٩٢٢) ، وكتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع (أبسال ١٨٤٤) ، وكتاب إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس (الرباط ١٩٤٤) لابن زيدان ، وكتاب فتوح الحبشة الذى ألفه عرب فقيه بين سنتى ١٥٤٠ ، ١٥٥٠ م (باريس ١٨٩٧ - ١٩٠٩) . كما اعتمدت على كتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسى ، وعلى رحلة ابن بطوطة الطنجى الذى زار بلاط سلطان مالى ، كما زار مدينة تمبوكتو فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وعلى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر للعلامة ابن خلدون ، وكتاب البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ، وكتاب وصف إفريقية لأحسن الوزان ، كما اعتمدت على كتاب صبح الأعشى للقلقشندي الذى تكلم فى إسهاب على ممالك غربى إفريقية ، وأمدنى بمعلومات ذات غناء عن مملكة مالى وبلاد الحبشة ، وأفاض فى وصف الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد ، وعلى كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقرئى الذى أفاض فى وصف بلاد النوبة ودنقلة وبلاد البجة ، وعلى كتاب تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير (القاهرة ١٩٠٤) .

الثانى : أما النوع الثانى من المصادر ، فقد اعتمدت فيه على المادة التاريخية التى ظهرت ببعض مؤلفاتى ، مثل كتاب تاريخ الإسلام السياسى والدينى

والثقافى والاجتماعى بأجزائه الثلاثة ، ولا سيما ما يخص المغرب وبلاد النوبة
والسودان ، والمحاضرات التى ألقيتها بمعهد الدراسات العالية بجامعة الدول العربية
فى السنة الدراسية ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ، ورجعت إلى نصوص المحاضرات التى
ألقيتها فى الإذاعة المصرية (ركن السودان) عن علاقة مصر بالسودان ،
كما رجعت إلى رسالة صغيرة كنت قد وضعتها وأنا طالب بالجامعة المصرية
القديمة فى علم وصف الشعوب وعنوانها : وصف إثغرافى لأشهر الشعوب
التي تسكن شرق القارة الإفريقية . والمذكرات التى كنت قد أعدتها لاقائها
على طلاب معهد الدراسات العليا بجامعة الدول العربية فى السنة الدراسية
١٩٥٨ — ١٩٥٩ . ولكن اضطرارى للسفر إلى العراق لالقاء محاضرات
على طلاب جامعة بغداد قد حال دون إلقاء هذه المحاضرات وعنوانها : مسقط
وزنبار فى عهد السيد سعيد (١٩٠٦ — ١٩٥٦) . أضف إلى ذلك المحاضرات
التي ألقيتها على طلاب كلية الآداب بجامعة الرباط منذ سنة ١٩٥٩ .

ومن أهم هذه المؤلفات فى موضوع انتشار الإسلام والعروبة فى إفريقية ،
كتاب الدعوة إلى الإسلام للأستاذ سيرتوماس أرنولد ، الذى عرفته معرفة
شخصية وتلمذت له فى جامعة لندن . وقد قمت بترجمة هذا الكتاب بالاشتراك
مع تلميذى الدكتور عبد المجيد هابدين والأستاذ إسماعيل محمود الفجراوى .

الثالث : وفى النوع الثالث من هذه المراجع ، اعتمدت على ما كتبه
الأوروبيون والأمريكيون عن القارة الإفريقية . ومن أهم هذه المراجع كتاب
الدعوة إلى الإسلام تأليف سيرتوماس أرنولد . وقد ترجم إلى كثير من اللغات ،
ووصفه الأستاذ رينولد نيكلسون المستشرق المعروف فى مقدمة الطبعة الثالثة
التي ظهرت فى سنة ١٩٣٥ ، بقوله إنه يفوق حد الوصف من كل ناحية .
وقد خصص سيرتوماس للقارة الإفريقية بابين ممتعين : فتكلم فى الباب الرابع

عن انتشار الإسلام بين مسيحيي إفريقية ، ولا سيما مصر والمغرب والنوبة والحبشة ، وبحث في الباب الحادى عشر تحول البربر إلى الإسلام ، ودخول هذا الدين إلى السودان ، وقيام الممالك الإسلامية في القارة الإفريقية ، كما بحث حركات الدعوة الإسلامية ، والطرق الصوفية ، وانتشار الإسلام في هذه القارة .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضاً : كتاب « إفريقية اليوم » الذى قام بنشره « جروف هينز » . وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة جامعة جونز هوبكنز بمدينة بولتي مور بالولايات المتحدة الأمريكية . ويشتمل على ستة أبواب أو مقالات ، تتناول الكلام على القارة الإفريقية من النواحي السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية . ومما يسترعى النظر هذا الفصل الذى كتبه جورج كاربنتر عن الدور الذى تقوم به المسيحية والإسلام في إفريقية المعاصرة ، والفصل الذى كتبه سيرفيليب ميتشيل الذى شغل منصب حاكم كينيا عن إفريقية والغرب ، والفصل الذى كتبه لورينزو تيرنر عن علاقة التربية العربية بأساليب الحياة في إفريقية ، والفصل الذى كتبه كوفي بوسيا عن ساحل الذهب ونيجيريا في طريق نيل الحكم الذاتى ، وما كتبه فيرنون ما ككيبي عن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بإفريقية ، ووليام مورجان الصغير عن معونة الولايات المتحدة الأمريكية الفنية والاقتصادية إلى إفريقية ، وبول نيتزه عن الولايات المتحدة وإفريقية من وجهتى النظر الأمريكية والإفريقية .

ومن المراجع الهامة أيضاً كتاب الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية . وقد نشره الأستاذ جوستاف فون جرونباوم الأستاذ بجامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجليس ، وطبع بمطبعة جامعة شيكاغو . ويشتمل هذا الكتاب على مقالات تعالج الإسلام باعتباره ديناً وحضارة ، وتبحث التراث الثقافى ، وحالة البلاد الإسلامية وعلاقة العرب بالحضارة الإسلامية . وقد رجعت إلى هذا الكتاب

ولاسيما إلى الفصلين اللذين كتبنا عن شمالي إفريقيا وعن إفريقيا الإيسوائية ، وأفدت مما كتب عن تأثير الشريعة الإسلامية وكيف تطبق في إفريقيا ، وعن المؤثرات الإسلامية في شرق إفريقيا وغربها .

وهناك كثير من المصادر الإفريقية التي كتبت عن أجزاء معينة من القارة الإفريقية . نخص بالذكر منها كتاب وصف بلاد المغرب (باريس ١٨٦٠) تأليف جوينبول ودي غويه ، وكتاب فتح العرب لإفريقية (باريس ١٨٧٥) تأليف هنري فورنيل ، وكتاب « المرابطون في السنغال » (باريس ١٩١٦) تأليف موريس دي لافوس ، وكتاب تاريخ غربي إفريقيا (كمبريدج ١٩٥٥) تأليف فيدج ، وكتاب تاريخ نيجيريا (لندن ١٩٥٥) تأليف سير آلان بيرنز الذي شغل منصب حاكم هذه البلاد سنين عديدة ، وكتاب قبائل نيجيريا الشمالية (لندن ١٩٢٥) تأليف ميك . وكتاب الجمعيات الإسلامية والحركة المرابطية في السنغال والنيجر ، وكتاب الإسلام والمسيحية في إفريقيا تأليف فورجيه . ومن المصادر الهامة كتاب الحركات الاستقلالية في المغرب العربي الأستاذ علال الفاسي ، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية .

كذلك اعتمدت على كتاب الإسلام في السودان (لندن ١٩٤٩) وكتاب الإسلام في الحبشة (لندن ١٩٥٢) تأليف سبنسر ترمنجهام ، وكتاب المهدي (لندن ١٩٥٥) تأليف ثيوبولد ، وكتاب المواطن الأول في شرق إفريقيا (لندن ١٨٥٦) تأليف ريتشارد بيرتون ، وكتاب دليل شرق إفريقيا (لندن ١٩٥٥) الذي وضعه جوردون - براون ، وتاريخ إثيوبيا (لندن ١٩٣٨) تأليف بدج ، وتقرير عن جنوبي إفريقيا (لندن ١٩٥٢) الذي وضعه ديفدسن . كما اعتمدت أيضاً على تقويم ويتاكار لسنة ١٩٦٣ ، وتقويم ستيتسمان لسنة ١٩٦٣ وغيرها .

كما اعتمدت على ما ورد في دوائر المعارف ولا سيما دائرة المعارف الإسلامية وفي كثير من المراجع الأخرى التي يجدها القارئ في ثبوت المراجع .

وقد بحثت هذا الموضوع من نواحيه المختلفة : سياسية ودينية واجتماعية وثقافية . كما يرى القارئ في ذيل الكتاب تنبيهها على المصادر لمن يريد التوسع في مسألة من المسائل التي لم يسمح المجال بالتوسع فيها . وذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، كما ذيلته بفهارس شاملة لأسماء الأعلام والأماكن والأسماء التي تدل على حوادث تاريخية هامة . كما زودت الكتاب أيضاً بسبع خرائط نقلتها من كتاب فيديج : تاريخ غربي إفريقية .

حسن إبراهيم حسن

الجيزة أكتوبر ١٩٦٣

الباب الأول

مسالك الإسلام إلى إفريقية

١ - أهمية القارة الإفريقية

ينتظم الإسلام نحو نصف القارة الإفريقية التي تبلغ مساحتها نحو ١١٢٦٢٠٠٠ من الأميال المربعة ، أي خمس مساحة الكرة الأرضية ، ويبلغ عدد سكانها نحو مائتين وثلاثين مليون نسمة ، منهم أكثر من مائة وعشرين مليوناً من المسلمين وفق الإحصائيات التي وردت في كتب التقويم السنوي ، وبخاصة ذلك الكتاب الذي وضعه ويتاكار لسنة ١٩٦٣ وكتاب السياسي السنوي. وسكان القارة الإفريقية يكونون ٨ ٪ من سكان الكرة الأرضية ، وبين هؤلاء السكان خمسة ملايين من البيض .

وموارد هذه القارة بالغة الأهمية لتنوع هذه الموارد بتنوع البيئات واختلاف للوقع والمناخ . وهي تنتج نحو ٩٨ ٪ من ماس العالم ، ٥٥ ٪ من ذهبه ، ٢٢ ٪ من نحاسه . كما تنتج نحو ثلثي محصول الكاكاو العالي وثلاثة أخماس إنتاج زيت النخيل . هذا عدا معادنها الأخرى كالمنجيز والسكر واليورانيوم ، بالإضافة إلى إمكانياتها العظيمة في القوى المائية .

وهذه القارة مورد اقتصادي عظيم في المعادن والزراعة والمواد الخام . وقد أدركت الدول الغربية هذه الحقائق ، فتسابقوا إلى استثمارها للانتفاع بثرواتها الطبيعية ، وأدركت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحقائق في السنين

الأخيرة ، فاهتمت باقتصاديات إفريقية اهتماماً عظيماً ، وعملت على الاحتفاظ بأسواقها وضاعفت رؤوس أموالها المستغلة فيها . أضف إلى ذلك أهمية موقع هذه القارة الإستراتيجي كما قرر ذلك أمير البحر (الأميرال) ريتشارد كونولي في الفصل الذي عقده لبيان أهمية إفريقية من الوجهة الاستراتيجية ، فقد ذكر الأهمية الكبرى للأماكن الآتية :

- ١ — طنجة .
 - ٢ — قاعدة مراکش الجوية وقاعدة الدار البيضاء البحرية .
 - ٤ — ليبيا .
 - ٥ — إريتريا — الحبشة — الصومال — موانئ مصوع وجيبوتي ومقدشيو .
 - ٦ — جزيرة مدغشقر وأهميتها في حماية مسالك المحيط الهندي .
 - ٧ — رأس الرجاء الصالح ولا سيما قاعدة سيمونز تاون البحرية .
 - ٨ — قاعدة دكار التي تحرس طرق المواصلات في غرب إفريقيا^(١) .
- ٢ — الطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقية

ويرجع انتشار الإسلام في القارة الإفريقية إلى عاملين أساسيين :

الأول : طبيعة الشعوب التي قامت بنشر الإسلام ، وكانت في الغالب شعوباً بدوية رعوية أو شبه رعوية ، ولم تكن لها خبرة بركوب البحر أول الأمر ، بل كانت تمتلئ ظهور الإبل والخيول ولا يستطيع أهلها التقدم إلا في السهول المكشوفة .

الثاني : طبيعة الأرض التي انتشر فيها الإسلام وتسربت إليها جموع البدو . وكانت هذه البلاد الإسلامية تحيط بالصحراء الكبرى شمالاً في المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي ، وجنوباً عبر وادي النيل حتى

(١) كونولي : إفريقية اليوم (بالإنجليزية) ص ٥٥

حدود النوبة ، وفي النطاق الرعوى الذى يحيط بهذه الصحراء من الجنوب من مصب نهر السنغال حتى السودان .

على أن الإسلام لم يستطع أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى وهى شلالات النيل ، وهضبة الحبشة ، ومنطقة البحيرات الكبرى وما يكتنفها من أدغال وغابات .

أما الصحراء فليس المقصود بها هنا النطاق الرملى الذى لا تستقيم فيه حياة ، إنما المقصود به المناطق شبه الصحراوية التى يسقط فيها قدر ضئيل من الأمطار ، لا يتيح للسكان حياة زراعية ممتازة ، إنما يتيح لهم حياة بدوية قائمة على التنقل والترحال من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب . كذلك نقصد بالصحراء بعض المناطق الزراعية الواقعة على حافة هذا الإقليم فى الشمال أو فى الجنوب . وعلى هذا يكون مبدأ الحد الشمالى لهذا الإقليم عند النهاية الجنوبية لتونس والجزائر والمغرب ، والحد الجنوبى هو المنطقة الواقعة شمالى نطاق الغابات الوسطى الممتدة من مصب السنغال إلى إقليم بُرنوفى غربى حوض النيل . أما الحد الغربى لهذا الإقليم فهو ساحل المحيط الأطلسى ، والحد الشرقى هو ساحل البحر الأحمر ، لأن هذا الإقليم يتخطى وادى النيل إلى الصحراء الشرقية ، وكذلك شمال السودان حتى مدينة الخرطوم ، أو بعبارة أخرى ، يشمل جميع المنطقة الواقعة بين خطى عرض ٣٠ شمالاً ، ٢٠ شمالاً ، مع استثناء وادى النيل فى مصر ، وبعض السهول الجنوبية فى برقة وطرابلس .

وقد انتشر الإسلام على مر الزمن بين مختلف القبائل وشتى الأجناس ، وسأحاول فى هذه الصفحات أن أتبع تقدم الإسلام بين الوثنيين فى إفريقية الشمالية وعلى طول الساحل الغربى وفى النوبة ودنقلة ، وعلى طول الساحل الشرقى .

٣ - الطرق التي سلكها الإسلام إلى القارة الإفريقية

(١) في إفريقية الشمالية والغربية :

وقد أخذت شعوب القارة الإفريقية تفريق عن سباتها وتعمل على نيل استقلالها الأمر الذي عده السياسيون أعظم أحداث القرن العشرين ، بل لقد عده بعضهم أعظم أحداثه على الإطلاق ، وذلك نتيجة حتمية لاوعى القومى الذى انبعث بين شعوب آسيا وإفريقية فى الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر . وكان من أثر إبتناق هذا الوعى أن نال كثير من الدول الإفريقية استقلالها . وفى ١٩ مارس سنة ١٩٦٢ الماضى أبرم اتفاق وقف إطلاق النار بين الجزائر وفرنسا ، الأمر الذى يعد بحق من أعظم أحداث هذا العام . كما عملت الدول الإفريقية على إنشاء اتحاد إفريقى يقوم على دعم العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها وتأسيس اتحاد يضم الشعوب الحرة فى هذه القارة .

ويلاحظ أن الإسلام قد نفذ إلى غربى القارة الإفريقية عن طريقين هما :
الأول : الطريق الساحلى عبر حوض السنغال ، وهو الطريق الذى سلكه المرابطون .

الثانى : طريق التجارة الذى يبدأ من إفريقية الشمالية متجهاً صوب الجنوب عبر واحات الصحراء إلى المدن الكبرى فى السودان .
وأهم المراكز التجارية فى غربى إفريقية بلاد غانة ، ومالى ، وجنى ، وتمبكتو (أوتيمكت) ، وكانو . ومن أهم مراكز التجارة فى شمالى إفريقية فى العصور الوسطى : القيروان ، وتونس وطرابلس .

وكانت هذه التجارة تسلك ثلاثة طرق رئيسية هى :

١ — الطريق من مراكش إلى منفحنى نهر النيجر والمناطق الواقعة جنوباً .

٢ — الطريق من تونس إلى المنطقة الواقعة بين نهر النيجر وبحيرة شاد .

٣ — الطريق من طرابلس إلى المنطقة المحيطة ببخيرة شاد .

وقد انتشر الإسلام في ربوع القارة الإفريقية فيما بعد ، فاخترق نطاق الغابات في غربي هذه القارة ، وانتشر على طول الساحل الشرقي ، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكونغو . ومن الشرق نفذ إلى جنوبي السودان وهضبة البحيرات ، وقاب الهضبة الحبشية ، وتخطى الساحل الشرقي في المناطق الداخلية إلى كينيا وتنجانيقا . كما نفذ إلى جنوبي إفريقية مع المهاجرين من سكان شبه القارة الهندية ، وما زال ينتشر إلى اليوم .

وهناك نهضة مباركة في نشر الدين الحنيف انبثت بين مسلمي القارة الإفريقية في جميع النواحي . فقد نفضوا عن أنفسهم غبار الماضي وشاركوا في الحركات التحررية ، وتسلموا أعلى المناصب ، وقاموا بدور ملحوظ في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي . ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية ، وحرصوا عليها كل الحرص وتجاوبوا مع إخوانهم في الدين في كافة أرجاء العالم الإسلامي . ولناخذ في الكلام عن تلك المسالك الهامة في شيء من التفصيل فنقول : إن الإسلام قد نفذ إلى القارة الإفريقية عن ثلاثة طرق رئيسية هي :

الطريق الأول : طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين والاحساء إلى الساحل الإفريقي الشرقي ومصوع وبربرة ، حيث أخذت هجرات المسلمين تتدفق على طول هذا الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم بر الزنج . على أن أول هجرة للعرب ترجع إلى زمن أبعد من هذا ، إذ يرجح بعض الباحثين أن استيطان العرب لإفريقية الشرقية امتد في العصور القديمة حتى سوغالا جنوبي نهر زمبيزي . وقد بنى المسلمون مدينة مقدشيو على ساحل المحيط الهندي ببلاد الصومال .

وذهب جماعة منهم إلى زنبار ، حيث نشروا الإسلام بين أهلها الذين يطلق عليهم اسم « السواحلية » ، كما أسسوا مدينة كلوا ببلاد تنجانيقا الآن ، وفي الساحل الشرقى حتى مدينة مدغشقر ، بل لقد نفذوا إلى كينيا فاوغندة وإلى أقصى جنوبى القارة الإفريقية ، أى إلى مستعمرة الرأس ، حيث نجد مسلمى هذه البلاد من سلالة أهل الملايو الذين جاء بهم الهولنديون فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، كما يذكر سير توماس أرنولد^(١) .

ولم تكن جهود العرب مقصورة على الساحل الشرقى أول الأمر ، بل لقد نفذوا إلى داخل القارة الإفريقية ، حيث شق الإسلام طريقه إلى بلاد الحبشة والصومال على أيدي الدعاة والتجار ، كما نفذ الإسلام إلى أوغندة فى القرن التاسع عشر ، وإلى نياسالاند فى القرن العشرين .

والطريق الثانى الذى سلكه الإسلام إلى القارة الإفريقية هو طريق النوبة ودنقلة ، وذلك بعد الفتح الإسلامى لمصر . ولم تكن السودان بلاداً بمجھولة للعرب ، فقد كان نهر النيل الطريق التجارى لهم ، على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية حائلاً دون هؤلاء الفاتحين والمهاجرين . ولم يكن كل العرب المهاجرين تجاراً ، بل كان فيهم المتنقل سعيًا وراء المراعى الخصبة والماء والكلأ ، فوجدوا فى فجاج السودان المترامية ما ينشدونه وتخلصوا من دفع الخراج ، كما وجدوا فى تجارة الرقيق والذهب والجواهر ضالتهم المنشودة ، وساعدهم على ذلك أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم .

العرب ونشر الإسلام فى إفريقيا

ولما ظهر الإسلام وامتدت فتوحه إلى فارس والشام ، وفتح العرب مصر فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انتشر الإسلام فى القارة الإفريقية حتى بلغ مدينة أسوان جنوباً .

(١) ترجمة (الطبعة الثانية ١٩٥٧) حسن إبراهيم حسن ٣٧٧ - ٣٨٧ .

ويرجع النجاح السريع الذى أحرزه غزاة المسلمين إلى ما لاقوه من ترحيب المسيحيين وعلى الأخص من القبط ، وهم أهل مصر الأصليون الذين كرهوا الحكم البيزنطى بسبب فداحة الضرائب واستبداد الكنيسة البيزنطية بهم .

وفى عهد عمر بن الخطاب حاول العرب فتح بلاد النوبة ، فقد حاول عقبة ابن نافع فتحها على غير جدوى ، فهادن أهلها وعقد معهم صلحاً أشبه بمهادنة اقتصادية ، على أن تدمم مصر بالحبوب والعدس ، وتمتد النوبة مصر لقاء هذا بالريق لفلاحة الأرض . ثم حاول المسلمون فتح بلاد السودان ونشر الإسلام فيه ، وإن كان هذا قد كلفهم ثمناً غالياً . ومع ذلك فقد عرف المسلمون أرض النوبة واختلفوا إليها لأغراض تجارية خالصة ، كما عرفوا أرض البجة (أو البجاة) الذين كانوا يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر وينتشرون بين النيل النوبى والبحر الأحمر فى الأراضى الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريباً .

وقد اتصل العرب بالبجاة فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) بطريق البحر الأحمر وبطريق وادى النيل ، وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . كما استقرت جماعة منهم هنالك وبنوا المساجد والدور . وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على دخول هؤلاء البجاة فى الإسلام وتعريبهم . وفى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كان الإسلام قد تسرب إلى أهالى مدن النوبة السفلى . وكان لزواج العرب بالنوبيات أثر كبير فى إسلام النوبيين .

دور المغرب فى نشر الإسلام بإفريقية

والطريق الثالث الذى سلكه الإسلام إلى القارة الإفريقية هو إفريقية الشمالية والغربية . ذلك أن العرب بعد أن تم لهم فتح مصر ، مدوا فتوحهم إلى

بلاد المغرب . وقد هياً تأسيس مدينة القيروان في إفريقية (وهي القطر التونسي الآن) على يد عقبة بن نافع سنة ٥٥٠ هـ ، للعرب مركزاً حصيناً اتخذوه قاعدة لنشر الإسلام في شمالي القارة الإفريقية وغربها .

ومن أهم طبقات المجتمع الإسلامي في شمالي إفريقية شعوب البربر . وهم أهل البلاد الأصليون . وكان وقوع المغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط تجاه أوروبا سبباً في تبادل سكانه حضارة الأمم المجاورة الى جانب حضارتهم وتقاليدهم العريقة التي يرجع تاريخها إلى أيام الفينيقيين الذين عرفوا المغرب قبل ميلاد المسيح بنحو ألف سنة .

وكان نجاح عقبة بن نافع في نشر الإسلام بين البربر بطيئاً ، لانشغاله بحرب الروم الذين أنزل بهم الهزائم المتتالية . وكان ذلك سبباً أصيلاً في أن دبوا له مكيدة مقتله في موقعة تهودا التي لعب فيها كسيلة دوراً قبيحاً لأنه كان بسبب استيائه لمعاملة عقبة بن نافع السيئة له ولصديقه ابن أبي المهاجر . وقيل - وهو الأرجح - إن الروم قد دفعوه إلى الإيقاع بالقائد العربي . ودليل ذلك أن تهودا كان بجانبها حصن رومي كبير .

ثم خلف عقبة : زهير بن قيس البلوي الذي استطاع أن يقتصر لمقتل سلفه فقتل كسيلة وحطم مقاومة الروم ، ولكن الروم دبوا له مكيدة شبيهة بتلك التي دبوها لعقبة حيث اشتبك مع الأسطول الرومي على ساحل طرابلس . وكانت نهايته أن استشهد في تلك المعركة . وكذلك لم يتمكن زهير بدوره من نشر الإسلام . ثم خلف زهيراً حسان بن النعمان ، وكان حريصاً على نشر الدين ، فكسر شوكة الروم الذين قويت عزيمتهم وانبعث فيهم الأمل في استرداد بلاد المغرب من أيدي المسلمين ، فقاتلهم حسان قتالاً مريئاً وأنزل بهم الهزيمة ، ثم اتجه لمحاربة الكاهنة داهيا وقومها جراوة^(١) . ولكن الكاهنة هزمت حساناً

(١) السلاوي : الاستقصاء ج ١ ص ٩٢ .

الذى أنهكت جنده الحروب مع الروم ، فانسحب إلى طرابلس وظل بها خمس سنوات ، عاد بعدها إلى المغرب وهزم الكاهنة ، وبدأت مواهبه تظهر في نشر الإسلام وفي تدوين الدواوين باللغة العربية . وقد ساوى بين العرب والبربر ، وكادت تفتح على يده صفحة جديدة في تاريخ المغرب الإسلامى . ولكن القدر عانده ، فخلع من منصبه وخلفه موسى بن نصير الذى أتم فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ مساهماً في ذلك مع مولاه طارق بن زياد الذى كان ينوب عنه في ولاية المغرب الأقصى ، منتخذاً ظنجة حاضرة لولايته .

وكان فتح بلاد الأندلس فتحاً للإسلام في المغرب والأندلس معاً . ذلك أن معظم الجيش الذى فتح هذه البلاد كان من البربر بقيادة طارق بن زياد ، وقد شعر المغاربة لأول مرة بمساواتهم بالعرب ، وبدأت شخصية المغرب الإسلامى تدخل في دورها الفعال ، إذ شعر البربر بعد فتحهم الأندلس ، أنهم أصبحوا حماة الإسلام في هذه البلاد ، وأن عليهم مهمة نشر هذا الدين ومناهضة المسيحيين .

وقد حرص الخلفاء على اختيار طائفة من الفقهاء ليعلموا البربر فرائض الإسلام ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم ، وأظهر بعض ولادة المسلمين ، ولا سيما الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، حماسة في إعلاء شأن الإسلام ، فقد أرسل مع واليه على شمالى إفريقية عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى المغرب .

على أن ثقة البربر بالدولة الأموية بالمشرق قد تزعزعت ، بسبب تسرب بعض فرق الخوارج ، كالإباضية والصفيرية بينهم ، وقيامهم بنشر الدعاية ضد الحكم الأموى . وفي العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣١ هـ) غدا شمالى إفريقية مسرحاً للفتن والقتل . ويعزى خروج البربر على ولايتهم من العرب إلى بعد

هذه البلاد وفرضهم ضرائب ظن البربر أن الدين لم ينص عليها . يضاف إلى ذلك استفحال حركات الخوارج والشيعة ، حتى عمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، وانضم بعض زعماء من العرب النازلين في هذه البلاد إلى البربر ، وخلصوا طاعة العباسيين ، وتأسست في المغرب ولايات مغربية مستقلة ، منها ولاية تاهرت التي أسسها عبد الرحمن بن رستم من الخوارج الإباضية ، وولاية سجلماسة (تافيلالت الحالية) التي أسسها بنو مدرار بمساعدة الصفرية الزناتيين ، وولاية تلمسان التي أسسها بنو قُرّة الصنهاجيين ، ودولة برغواطة في تامسنا (الشاوية الحالية) على ساحل المحيط الأطلسي .

من ذلك نرى أن أهل الشمال الإفريقي قد قاموا بدور ملحوظ في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية .

وفي سنة ١٧٢ هـ قامت دولة الأدارسة على يد المولى إدريس بن عبد الله العلوي الذي سار إلى بلاد المغرب الأقصى مع مولاه راشد بعد أن بطش العباسيون بأهل البيت العلوي في موقعة فح المشهورة سنة ١٦٩ هـ . وقد استقبلته قبيلة أوربة البرنسية ونشرت دعوته ، ولقى المولى إدريس من هذه القبيلة المغربية كل العون والتأييد في تأسيس دولة الأدارسة التي كانت أول دولة مستقلة عملت جهدها على نشر الإسلام في ربوع هذه البلاد .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدولة المرابطية تعتبر أول دولة وحدت المغرب الأقصى والأوسط وقامت بدور خطير في نشر الإسلام على الساحل الإفريقي الغربي وبلاد السودان ، ويجمع المرابطون في المغرب بين الجهاد والثقافة الدينية معا ، كما يتجلى ما فطروا عليه من نزعة دينية خالصة وحب للجهاد فيما ذكره عبد الواحد المراكشي^(١) عن حضور المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية إلى أمير

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٠ — ١٣٣ .

(م ٢ - انتشار الإسلام)

المسلمين يوسف بن تاشفين مستغيثًا به في حربه مع ألفونس السادس ملك قشتالة ، فأجاب ابن تاشفين المعتمد إلى مادعاه إليه قائلا : « أنا أول منتدب لفصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى » . وعبر ابن تاشفين البحر من سبتة في أسطول مغرى يتألف من مائة سفينة ميمما شطر الجزيرة الخضراء ، وأوقعت جيوش ابن تاشفين بجيوش ألفونس في موقعة الزلاقة المشهورة ، التى تعد بحق من المواقع الحاسمة في التاريخ ، فقد طال حكم المسلمين للأندلس أربعة قرون أخرى بفضل انتصار يوسف بن تاشفين في هذه الموقعة .

ويرجع انتشار الإسلام في الصحراء وفي حوض السنغال ، إلى عبد الله ابن ياسين . فقد ذكر ابن أبى زرع^(١) أن يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة إحدى بطون صنهاجة استعان بعبد الله بن ياسين الذى عرف بالتقوى والتفقه فى الدين^(٢) . ولما مات يحيى بن إبراهيم ، خلفه فى زعامة صنهاجة يحيى بن عمر الممتونى . وقد ذكر ابن خلدون أن جدالة (بضم الجيم وفتح اللام) ، ولتونة (بفتح اللام وسكون الميم) تفحدران من قبيلة صنهاجة (بفتح الصاد الكبرى^(٣)) .

وقد وجد عبد الله بن ياسين أن البربر فى ذلك الوقت كانوا يهملون شعائهم الدينية ، فأخذ ينحهم على إصلاح سلوكهم ، وسار مع تلاميذه المخلصين إلى جزيرة

(١) الأئیس المطرب (الرباط ١٩٣٦) ج ٢ ص ١١ — ١٦ .

(٢) راجع ابن خلدون (المعبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ ج ٦ ص ١٨٢) .

(٣) قال ابن خلدون : (المعبر ، ج ٦ ص ١٥٢) أن بطون صنهاجة كثيرة : فمنهم بلكالة وأنجفة ، وسرطة ، ولتونة ، ومسوفة ، وجدالة ، .. . وقال ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٢) « كان هؤلاء الملتئون فى صحاريهم .. وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لمهد للمائة الثالثة .. وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أى على الدين) فدأنوا لهم واستوثق لهم (أى للملتئين) الملك ، ثم افترقوا ، وكانت رئاسة كل بيت منهم فى بيت مخصوص » .

بنهر السنغال^(١) بنوا بها رباطاً اتخذوه مركزاً لعبادتهم ، وأخذوا يعلمون الناس التفقه في دينهم والمحافظة على شعائرهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين .

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة ومسوفة وملتونة أخذت في الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادئ الإسلام . وقد ذكر ابن أبي زرع^(٢) أن عبد الله بن ياسين قال لتلاميذه :

« اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته . فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه ، فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا (من ؟) ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا » .

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسهام المرابطين .

وهذا الاسم مأخوذ من الرباط ، أى الخلوة التى اتخذها عبد الله بن ياسين في جزيرته بنهر السنغال . هذا ما ذكره صاحب القرطاس . أما ابن عذارى (بكسر العين) فإنه يرى رأياً آخر في هذه التسمية ، حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة ملتونة الصنهاجية ، فأطلق عليهم عبد الله بن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم^(٣) .

(١) ويذكر ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة : « وأخذ أبو بكر ، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها خضاحاً في المصيف وغمرأ في الشتاء » . ولعل ابن خلدون قد وقع في هذا الخطأ الذى وقع فيه الشريف الإدريسي (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر .

(٢) الأنيس المطرب ص ١٤ — ١٦ .

(٣) أحمد مختار المبادئ : مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هذا . ومعنى المرابطين :
الأتقياء المجاهدون في سبيل الله . وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط ، وهو حراسة
الحدود ، حيث كان يذهب المخلصون للدين لمساعدة حامياتها . وقد ورد لفظ
رباط في القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد ، أى القتال
في سبيل الله ، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف
في سبيلها ، فقال جل شأنه في سورة الأنفال (٢٢ : ٣٩ — ٤٠)

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله
وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء
في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) .

وقد قام المرابطون بدور هام في نشر الإسلام في القارة الإفريقية ، ومن
المعروف أن الأمير أبا بكر بن عمر قلد ابن عمه يوسف بن تاشفين في سنة ٤٦٢ هـ
حكم بلاد المغرب الأقصى شمالاً ، فاستطاع يوسف بفضل مواهبه الفذة أن يؤسس
في سنة ٤٦٦ هـ^(١) الدولة المرابطية العظيمة التي خدمت الإسلام في الأندلس ولم
تأل جهداً في نشره في كثير من ربوع القارة الإفريقية .

ثم جاء الموحدون فنشر الإمام المهدي محمد بن عبد الله بن تومرت عقيدة
التوحيد بين الناس بعد أن مهد لها طويلاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
ابتداءً من مكة المكرمة وهو عائد من الشرق وانتهاءً ببلاد المغرب . وقد ألف
لأتباعه كتباً في عقيدته التوحيدية التي قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية .

وكما كان للمرابطين فضل عظيم في نشر الدعوة الإسلامية في أجزاء واسعة
من القارة الإفريقية والأندلس ، كذلك كان للموحدين أثر محمود في الجهاد

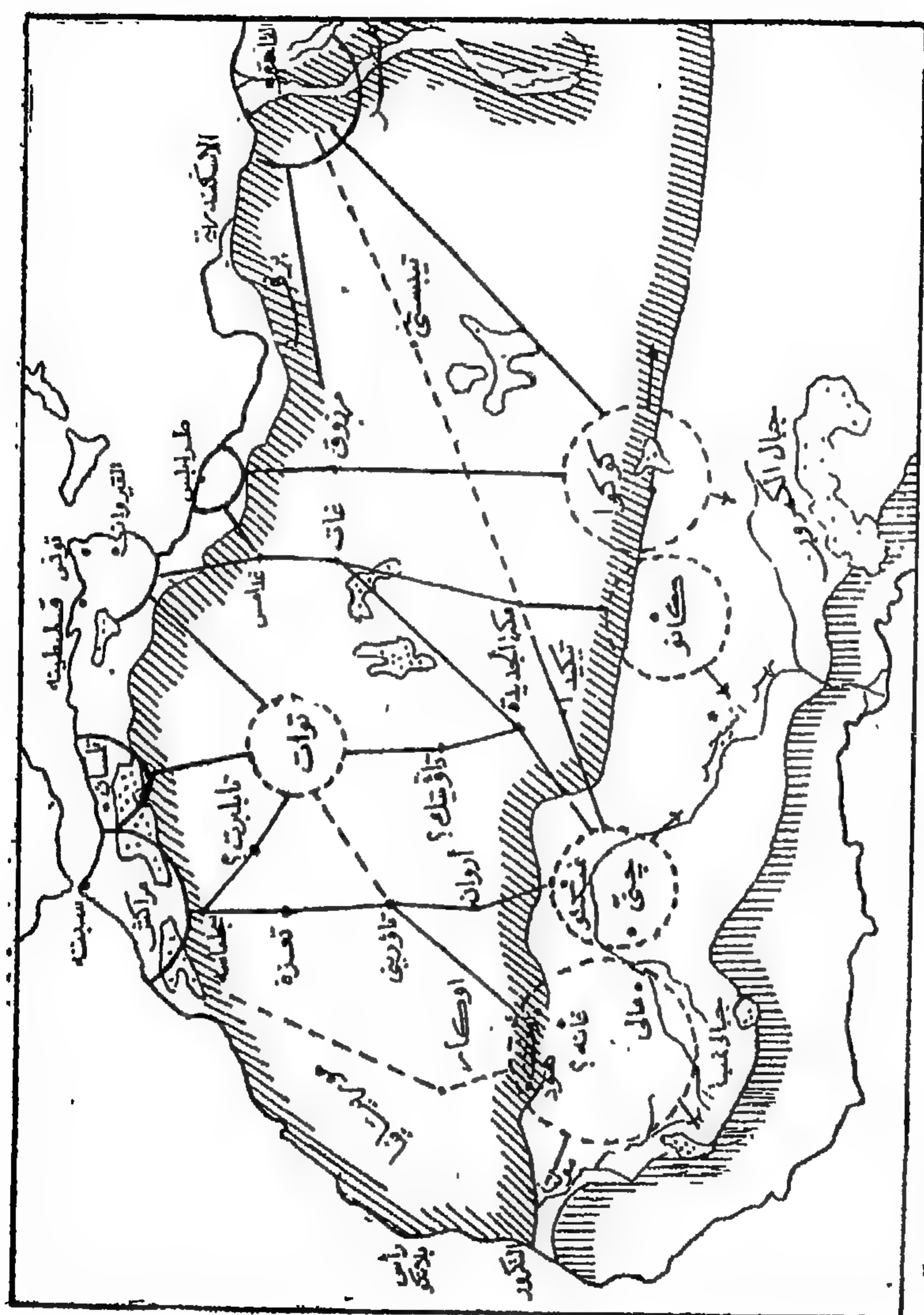
(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ — ١٤٦ .

ضد الصليبيين بالأندلس . كما كان من مآثرهم نشر دعوتهم التي كانت تقوم على التوحيد . وقد ذكر صاحب الاستبصار أن دعوة التوحيد امتدت من طرابلس شرقاً حتى غانة وإلى قلب القارة الإفريقية . وكان للموحدين الفضل العظيم في نشر الثقافة عامة والإسلامية منها خاصة .

وفي سنة ١٠٧٦ م نشر المرابطون هذا الدين بين أسرة الفلاني (Fulani) على ساحل غينا . كما ازدهر الإسلام على أيدي تجار الحوصا الذين ينتشرون في مساحات واسعة شمالى نيجيريا وخصوصاً في مقاطعات سوكوتو وكانووزاريا وباؤنشي (Bauchi) ، وفي جنوبى غانة حيث استقر المسلمون في بلاد تبعد عن سيراليون بنحو أربعين ميلاً من ناحية الشمال ، وسموها بلاد الماندينجو . كما نشر تجار الحوصا الإسلام بين قبائل أشنتي (Achanti) في ساحل الذهب (غانة الآن) . وفي داهومي . ويبلغ سكان مدينة لاغوس الواقعة على المحيط الأطلسى جنوب غربى نيجيريا وعلى أحد فروع النيجر الآن ، نحو أربعائة وخمسين ألف نسمة ، وأغلبهم من المهاجرين والتجار .

(ب) في بلاد النوبة ودنفرة :

لما ذهبت جموع العرب المسلمين إلى جنوبى مصر في القرون التالية للفتح الإسلامى ، لم يكن السودان بلاداً مجهولة لهم . وكان نهر النيل الطريق التجارى للعرب منذ عصور بعيدة على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية في طريقهم كفاتحين أو مهاجرين . ولم يكن العرب المهاجرون تجاراً كلهم ، بل كان فيهم المتنقل سعيّاً وراء المراعى الخصبية والماء والسكلاً ، فوجدوا في فجاج السودان المترامية ما ينشدونه ، وهم في ربوعه بعيدون عن دفع الخراج ، وفي مجال الرقيق والذهب والجواهر متسع أمامهم . كما أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم في



العلاقات بين شمال إفريقيا وغربها

۲۰۰

كل شيء ، وليس البحر الأحمر سوى كسر التوائى فى أرض واحدة ، شطرها شطرين ، هما السودان ، وبلاد العرب ، ولذلك تشابها جواً وهضاباً وفجاًجاً .

ذلك أنه لما ظهر الإسلام وامتدت فتوحه إلى فارس والشام ، وفتح العرب مصر فى عهد عمر بن الخطاب على يد قائده عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) ، لم يلبث أن انتشر فى هذه البلاد حتى بلغ أقصى إقليم أسوان جنوباً . ويرجع النجاح السريع الذى أحرزه غزاة المسلمين إلى مالقوه من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى لما أضربوه من حقد شديد على علماء الدين . فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عولوا معاملة مجحفة من أتباع للذهب الأرثوذكسى التابعين للحكم البيزنطى . أضف إلى ذلك زيادة الضرائب زيادة ناء بها الأهليون الذين رحبوا بحكم المسلمين ، ليتخلصوا من الحكم البيزنطى واستبداد الكنييسة البيزنطية .

ففى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) أرسل عمرو بن العاص ، عقبة بن نافع الفهري إلى بلاد النوبة على رأس جيش من المسلمين ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، وهادن أهلها ، وعقد معهم صلحاً أشبه بمعاهدة اقتصادية : على أن تدم مصر بالحبوب والعدس ، وتمتد النوبة مصر بالرقيق . ولكن ذلك لم يوهن همة الخليفة عمر ، فأمر عمرو بن العاص ، واليه على مصر ، أن يصل جهوده فى سبيل فتح السودان ونشر الإسلام فيه ، فأرسل عمرو ، عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وكان من القواد الذين شهدوا فتح مصر ، على رأس جيش كبير دخل أرض النوبة ، ولكن النوبيين أنحنوا المسلمين بالنبل^(١) .

وقد عرف المسلمون أرض النوبة أو المقرّة فى الشمال وأرض غلوة فى الجنوب ، وكانوا يفتشون بلاد النوبة مجتازين غير مقيمين . وعلى هذا عرف

(١) البلاذرى : فتوح البلدان (طبعة القاهرة ١٣١٨) ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

العرب تلك البلاد معرفة اجتياز ومرور . وكان هذا الاجتياز والمرور لأغراض تجارية خالصة . كذلك عرف العرب أرض البُجّة (أو البُجاة) ، وكانوا يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر ، كما انتشروا في بلاد النوبة وغيرها ولا سيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر في الأراضي الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريباً . وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبُجّة اتصال تعاهد ومرور ، وأن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين الساسيين من العرب ، كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو السودان ، واستقروا بأرض الجزيرة بعد سقوط الدولة الأموية (سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠ م) . ويظهر أن العرب اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالبُجّة في القرن الثامن الميلادي عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادي النيل ، وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليهم تجاراً ، واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين ، كما يظهر أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك ، وبنوا مساجد لهم . فهذه كلها ظروف ومناسبات مهدت أول الأمر للعرب الاختلاط ببلاد النوبة والبُجّة ، وكانت من العوامل التي ساعدت على تعريب كل من هاتين المنطقتين .

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي كان الإسلام قد تسرب إلى مدن النوبة السفلى : وكان للزواج بين العرب والنوبيين أثر في إسلام الأخيرين ، حتى أصبح صاحب دنقلة من رعايا صاحب مصر ، وجعل يخطب على منابر بلاده « خليفة العصر وصاحب مصر » . وفي سنة ١٣١٩ م زالت النوبة جملة وأصبح ملوكها تحت تأثير القبائل العربية ، ومنذ ذلك الوقت تدفقت موجات من العرب ، ولا سيما عرب جُهينة إلى السودان حتى بلاد الحبشة ودارفور . وفي سنة ١٣٨٥ م أخذ ننوذ بني السكَنز يمتد حتى منطقة عيذاب ، وكانت هناك

جماعات من الفونج ، وهو الجنس الزنجى الذى كانت له السيادة على ستار ، يدين بعضهم بالإسلام ، وبعضهم الآخر بالوثنية . وقد حاول تجار مسلمون من بلاد النوبة أن يدخلوا هؤلاء الوثنيين فى الإسلام .

(ح) على الساحل الشرقى :

جاء الغزاة إلى شرقى إفريقية أول الأمر من آسيا وليس من أوربا ، لأن الآسيويين أقرب إلى شرقى إفريقية من غيرهم . فزنجبار تبعد عن عدن بنحو ١٧٠٠ ميل وعن مسقط بنحو ٢٢٠٠ ميل ، كما أن الطريق المباشر عبر المحيط الهندى من ممبسة إلى بمباى لا يجاوز ٢٥٠٠ ميل ، وهى مسافة تبلغ طول حوض البحر الأبيض المتوسط .

وهناك أمور طبيعية سهلت الاتصال البشرى فى هذا الجزء من العالم منذ أن عرف الإنسان ركوب البحر . وهذا العامل الطبيعى هو الرياح الموسمية ، ففى شهر ديسمبر من كل سنة تهب هذه الرياح متجهة إلى الشمال الشرقى وتظل تهب حتى آخر فبراير . ثم يتكرر هبوب الرياح مرة أخرى من إبريل إلى سبتمبر فى اتجاه مضاد نحو الجنوب الغربى . ومعنى هذا أن هذه الرياح تحمل أهل زنجبار إلى سواحل الهند ثم تحمل أهل الهند إلى ساحل زنجبار عن طريق ساحل جزيرة العرب الجنوبى ومضيق عدن .

* والتجار والمغامرون الذين يركبون سفنهم الصغيرة من ساحل بلاد العرب أو الخليج الفارسى فى الشتاء يتأكدون أن رياح هذا الفصل ستحملهم إلى ساحل القارة الإفريقية . وبعد أن يقضوا بضعة أشهر فى التجارة تحملهم الرياح إلى أوطانهم مرة أخرى . هذه الحقائق الطبيعية كان يعرفها منذ وقت بعيد العرب ، وخاصة عرب جنوبى الجزيرة من أهل الممالك القديمة ، مثل سبأ وحضرموت . وقد عرف الإغريق والرومان هذه الأسرار حول ٨٠ م ، واستطاعوا أن يبحروا

عبر البحر الأحمر إلى الجنوب ، ثم إلى شرق إفريقيا بجذاء الساحل لى يتعاملوا مع أهالى المدن الساحلية ، ويصبحوا على مقربة من مصبات الأنهار وموارد الماء . وقد اشتغل العرب بالتجارة فى هذه البلاد ، وكانت لهم صلات قوية بسكانها الأصليين . وكانوا يجلبون منها العاج والرقيق وزيت النخيل وغيرها من الحاصلات الاستوائية .

ثم ينجم الظلام على تاريخ هذه البقاع حتى سنة ٦٠٠ م ، حين بدأ المحيط الهندى يخرج من ظمة المجهول إلى التاريخ . فقد بدأ هذا المحيط يزدهم بالتجار الآسيويين ، وبخاصة تجار العرب الذين اعتادوا الرحلة إلى جنوبى بلاد الهند وجزيرة سيلان ، بل إنهم وصلوا إلى الصين نفسها . لكن ظهور الإسلام فى جزيرة العرب قد هيا لهم الفرصة ليظهروا على مسرح التاريخ . وقد ظلوا من القرن السابع إلى القرن السادس عشر سادة المحيط الهندى بلا منازع .

وكانت العلاقات التجارية بين أوربا وآسيا تعتمد على السلع التى يحملها هؤلاء العرب إلى سواحل الخليج العربى والبحر الأحمر . وقد أنشأ العرب محطات تجارية قبل المحطات التى أنشأتها أوربا : أنشئوا محطات فى قاليقوت وساحل ملبار وملقا ، كما أقاموا علاقات تجارية مع جزر الهند الشرقية والفلبين وسيام (فيتنام) ، ثم استقر العرب كمهاجرين فى هذه البلاد . ويقال إنه أنشئت مستعمرة عربية كبيرة فى مدينة كانتون ، ولم تكن هذه التجارة مقصورة على العرب والفرس ، فإن أهل هذه البلاد الشرقية كانوا يروون الزيارات ، وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرق إفريقيا وإلى ساحل بلاد العرب ، كما وصلت سفن الملايو وجاوة إلى مدغشقر ، وكذلك وصلت سفن الصين ، بدليل أن كثيراً من العملة الصينية التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) والتى لا يبعد أن يكون العرب أو الهنود قد جلبوها معهم قد عثر عليها فى ساحل إفريقيا . ولا يبعد أن يكون الصينيون أنفسهم قد تعاملوا مع أهالى هذه البلاد ، لأن

الكتب الصينية القديمة تتضمن إشارات إلى شرق هذه القارة ، كما تتحدث بعض الكتب الصينية التي ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن زنجبار وعن أهلها من العرب الذين يرتدون عباءات زرقاء مصنوعة من القطن وينتعلون بنعال حمراء .

من ذلك يتضح أنه كان لشرق إفريقيا نصيب من هذه العلاقات التجارية في المحيط الهندي في العصور الوسطى . فقد وجدت سلع الهند طريقها إلى أوروبا عبر آسيا . وأهم هذه السلع : العاج الذي يكثر في هذه البلاد حيث تسكن القبيلة التي تستخدم في الحرب أو في أغراض أخرى ، كذلك وجد الذهب في مناجم روديسيا ، وكان الخشب يحمل من زنجبار إلى بلاد العرب . ولا ننسى تجارة الرقيق التي كانت تعد السلعة الأولى في هذه التجارة .

غير أن هذه العلاقات التجارية التي قامت بين بلاد العرب وشرق إفريقيا لم تتوطد إلا بنزوح العرب إلى هذه البلاد واستقرارهم فيها . وقد شاعت الصدف أن يكون هؤلاء المهاجرون من جنوبي الجزيرة العربية ، وأن يؤسس هؤلاء العرب إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقي لهذه القارة^(١) .

يقول سير توماس أرنولد إن هجرة العرب إلى شرق إفريقيا كانت على أثر نفي الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، ويسمى هؤلاء الزيدية « أموزيديج »^(٢) . على أن أول هجرة ترجع إلى زمن أبعد من هذا . فإن بعض الباحثين يرجحون أن استيطان العرب لإفريقية الشرقية امتد في العصور القديمة حتى سوقالا جنوبي نهر زمبيزي . ومما لا ريب فيه أنه لما اشتد أذى قبيلة قريش للرسول في مكة وتنكيلهم بالمسلمين ، ففكر

(١) Coopland, East Africa and its Invaders, pp. 15—21.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة المؤلف ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

في هجرة المسلمين إلى بلاد الحبشة حتى استقر بعضهم فيها لما لقوه من حسن استقبال النجاشي وإكرام ضيافتهم وامتناعه عن ردهم إلى قريش . بيد أن الإسلام لم يظهر في بلاد الحبشة إلا بعد حقبة طويلة من الزمن .

استمرت هجرات المسلمين بعد ذلك تتدفق على شرق القارة الإفريقية ، فوفدت جماعة من نواحي البحرين على الخليج العربي فراراً من أمير الأحساء وبنوا مدينة مقدشيو (بضم الميم وفتح القاف وكسر الدال) على ساحل المحيط الهندي ببلاد الصومال ، ثم هاجرت جماعة أخرى في الخليج العربي بزعامة أحد أبناء سلاطين شيراز ، وكانت أمه حبشية ، فراراً من سوء معاملة إخوته له ، وقد رحلت هذه الجماعة إلى زنجبار وأسست مدينة كَلَّوَا (بكسر الكاف وسكون اللام) ، وتقع ببلاد تنجانيقا حالا .

وقد استطاعت عمان في ظل اتحاد أهلها أن تقاوم الأتراك والفرس . وكانت السيادة الإسلامية على هذه البلاد سيادة إسمية فحسب . وفي القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) تلقب حاكم عمان بلقب إمام ، وظل خلفاؤه يتوارثون هذا اللقب حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

وقد أنشأ العمانيون ميناء مسقط على ربوة عالية تشرف على الخليج العربي . وعن هذا الطريق أخذوا يشتركون في التجارة الإسلامية في المحيط الهندي . وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عرف أهل عمان بمهارتهم في بناء السفن ، وبلغوا ساحل زنجبار لطلب الأخشاب اللازمة لبناء سفنهم ، كما جلبوا ثمار جوز الهند . وسرعان ما أخذ العمانيون يستقرون في شرق القارة الإفريقية وينظمون شئونها .

وقد احتل العرب بعض المناطق الرئيسية من الشمال إلى الجنوب : فاحتلوا مقدشيو (بضم الميم وفتح القاف وكسر الدال) وبراوة (بفتح الباء) وسبو

(بكسر السين) ويدت ، ولامو ومالندى (بكسر اللام) وكاليفى وممبسة (بضم الميم الأولى وتسكون الميم الثانية وفتح الباء) وقمبا (بضم الفاء) وبمبا (بكسر الباء الأولى) وزنبار ومافيا وكلوا وموزمبيق وسوفالا . وقد أنشئ أغلب هذه المدن على جزر ساحلية يبعد بعضها عن الساحل مثل زنجبار ، وبعضها الآخر يقرب منه مثل كلوا وممبسة . وهذه المدن عبارة عن موانئ ساحلية محصنة تحصيناً قوياً ، ولكل منها مسجد لها الجامع .

وفى سنة ١٣٣٥ م استطاعت إمارة بيت أن تستولى على الساحل الشرقى من مالندى إلى كلوا عدا زنجبار : ثم تبعتها إمارات ممبسة ومقدشيو وزنبار . ولكن زعامة كلوا كانت أكثر هذه الزعامات بقاء وأكثر هذه الإمارات قوة ، لأنها كانت تسيطر على منطقة سوفالا وتتجر فى الذهب منذ القرن الثانى عشر الميلادى . وقد استطاعت كلوا أن تحقق هذه الوحدة المنشودة إلى حد ما حتى جاء البرتغاليون فى القرن الخامس عشر ، فوجدوا أن هذه الإمارات لا تزال تسيطر على الجزء الجنوبى من ساحل كلوا . ولما ألقى فاسكو داغاما مراسيه فى موزمبيق وجد حاكم هذه المدينة الذى عين من قبل سلطان كلوا يجمع المسكوس باسم هذا السلطان .

ولم يكن المجتمع فى هذه البلاد عربياً خالصاً . فقد كون العرب استقرارية حاكمية ، وكان الهنود يملكون أغلب سفن المحيط الهندى ويزاولون التجارة ويشغلون بالشئون المالية وبالربا مما أدى إلى إضعاف النفوذ العربى . وإلى جانب الهنود نرى طبقة من السكان هى مزيج من العرب والإفريقيين ، وهم يتخاطبون باللغة السواحلية التى هى مزيج من العربية والإفريقية . وإلى جانب هذه الطبقة أيضاً طبقة المبيد من الزوج الذين كانوا يشترون بالمال ويقومون بالأعمال اليدوية فى الدور والمزارع والقوافل .

هذا عن طبيعة الجاليات التي استقرت على الساحل الشرقى للقارة الإفريقية .
ولنتحدث الآن عن علاقة هذه الجاليات بالوطن الإفريقى الأعظم فيما وراء
البحيرات العظمى .

استطاع العرب أن يسيطروا على هذه الشعوب الزنجية بفضل مدنيهم
الحصينة وأسلحتهم المتفوقة وسفنهم الكثيرة وراثهم الجم . ويظهر أنه قد ساد
بينهم نوع من التفاهم والتعاون ، وبدأ العرب يتزوجون من هؤلاء الأهالى
وتكون من ذلك العنصر السواحلى الذى يتكلم اللغة العربية ويدين
بالإسلام^(١) .

ولما كانت الإبل لا تستطيع أن تسلك الطرق التجارية فى مواسم الأمطار ،
اعتاد التجار أن يتخذوا فى الأماكن الداخلية أماكن يلجئون إليها ويقيمون فيها
شهرأ أو أكثر يمارسون فيها أعمالهم التجارية . وفى هذه الطرق أنشأ التجار
بعض الأماكن الداخلية التى استقروا فيها . ولم تكن هناك علاقات تجارية
فى أوقات الجفاف أو اختلاط اجتماعى كما كانت الحال فى المناطق الساحلية . ومع
ذلك فإن هذه العلاقات المحدودة تركت أثراً فى الإفريقيين الذين رأوا أقواماً
غرباء للمرة الأولى ، وأخذوا عنهم أفسكاراً جديدة ، وبدأوا يخرجون من أقطمهم
الضيقة المحدود ، تبهر أبصارهم الملابس المزركشة والعقود المتلألئة والأوانى
النحاسية البراقة .

أما العبيد الذين كان العرب يجلبونهم فقد استبقى العرب بعضهم للعمل فى
مدنيهم الساحلية أو فى مزارعهم ، وجندوا بعضهم فى الجيش الإقليمى الذى كونه
وحملوا أكثرهم إلى أسواق الرقيق ، فحمل بعضهم إلى مصر ومنها إلى بلاد اليونان
أو إلى إيطاليا أو إلى آسيا . ولم يشعر هؤلاء العبيد بشيء من العنف أو الاضطهاد

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٣ . كويلاند ص ٢٢ — ٢٩ .

لأن الإسلام يحث على حسن معاملة الرقيق . كذلك أرسل هؤلاء الرقيق إلى الهند واتخذوا منطقة البنغال الإسلامية مركزاً لهم . ويقال إنه كان لدى الملك ركن الدين الغورى فى سنة ١٤٧٤ م ثمانية آلاف من هؤلاء الزنوج . وكان أول ملك الهند الذى أعل من شأنهم ورفعهم إلى أرق المناصب ، ولكنهم ثاروا فى عهد خلفه فتح شاه (١٤٨٦ م) .

ويبدو أن هؤلاء الذين اشتغلوا بتجارة الرقيق قبل ظهور الإسلام لم يجدوا فيما وراء الهند شرقاً أسواقاً يروجون فيها تجارتهم التى ظلت حتى عهد الاستعمار الأوروبى . وما هو جدير بالملاحظة أن البرتغاليين كانوا أول من زاول تجارة الرقيق فى غربى إفريقيا بعد العرب ، وكانوا لا يستخدمون الزنوج فى أعمالهم فحسب بل كانوا يصدرونهم أيضاً .

ولم يحاول العرب أن يستغلوا المواد الزراعية للبلاد ، وإن كانوا قد جلبوا البرتقال وبعض الفواكه الأخرى من الشرق وزرعوا النخيل وأدخلوا زراعة الذرة والبقول والأرز فى الأراضى الواقعة حول مجارى الأنهار . ولكن هذه الزراعة كانت مقصورة على استهلاكهم المحلى ، وكذلك كان شأنهم فى تربية الماشية . أما منتجات البلاد التقليدية مثل العاج والذهب وجوز الهند والرقيق فقد كانت عماد صادراتهم . وقد أعجب ابن بطوطة الذى وقف على مستوى الحياة العربية فى البلاد الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى القرن الرابع عشر الميلادى ، لذلك الثراء العريض والحياة المترفة التى رآها فى شرقى إفريقيا ، فهو يتحدث عن كلوا ويقول إنها أجمل بقاع العالم وأحسنها بناء ، ويذكر أن ممبسة مدينة عظيمة ، ويشيد بجمال مقدشيو التى زارها فى سنة ١٣٣٢ م ويقول إنها كانت أعظم مدن الساحل الشرقى .

وكان المصلون فى مقدشيو يجمعون إلى مسجدتها الجامع فى مواسم معلومة .

وقد أعجب ابن بطوطة بما عرف به أهل هذه البلاد من الورع والتقوى^(١) ، ويقول ابن بطوطة إنه إذا وصل أحد المراكب إلى مقدشيو صعد إليه بعض الشبان من رجال السلطان فاستفسروا عن كل ما يتعلق بالمركب : من أين قدم ؟ وسألوا عن اسم صاحبه ، واسم ربابه ، وعن حمولته ، ووقفوا على أسماء المسافرين وعرضوها على السلطان ، فيأمر بإزال من يستحق التكريم في دار الضيافة . ويقص علينا ابن بطوطة أن قاضي المدينة وتلاميذه استقبلوه عند قدومه واستضافوه بضمة أيام بدار الطلبة باعتباره ضيف السلطان ، وقدموا له أحسن الطعام ، « وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحف خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الأدام (بضم الألف الثانية مع الهمزة) من الدجاج واللحم والحوت (أى السمك) والبقول ، ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ، ويجعلون اللبن الرائب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر (بضم الميم وفتح الصاد وفتح الباء مع التشديد) وعناقد الفلفل المصبر الخلل والمملوح والزنجبيل . . . والواحد من أهل مقدشيو يأكل قدر مائتا كلة الجماعة منا . « وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها »^(٢) .

بل لقد ورد ذكر مقدشيو في حوليات الصين ، ولا سيما في عهد أسرة منج (بكسر الميم وسكون النون) . ويتحدث المؤرخ الصيني عن جفاف إقليم الصومال وكثرة مرتفعاته وقلة أمطاره ، ويذكر أن الدور مبنية من الحجر . وكانت مقدشيو أهم مدن شرقي إفريقية ، وخاصة في التجارة مع الصين ، وقد بلغت أوج عظمتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي سنة ١٤٣٠ م زار الأسطول الصيني مقدشيو . ولما جاء الأوربيون إلى هذه البلاد التي لم تطأها أقدامهم من

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٠ .

قبل أعجبوا بما بلغه هذا المجتمع من حضارة لا تقل عما ألفوه في أوربا . وكان شيخ مقدشيو ورجال حاشيته أول من رآهم فاسكو داغاما من أهالى هذه البلاد . وكانوا يرتدون عباءات من الخمل والقטיפه المنسوجة بخيوط الذهب ، وعمائمهم منسوجة بخيوط الذهب والفضة ، وسيوفهم وخناجرهم مكففة بالفضة . ولم ينزل داغاما بهذه المدينة وإنما لاحظ أنها مدينة عظيمة تتكون بيوتها من طوابق عدة وقصور شاهقة تحيط بها أربعة أبراج^(١) .

وفي مدينة مالندى الكبيرة استقبل مبعوث داغاما استقبالا حافلا في قصر الملك ، وكان مفروشا بالأبسطة الفاخرة ومقاعد من العاج والذهب . وقد أهداه الملك قطعتين من القماش الملون المنسوج بخيوط الذهب وخاتما عليه فص جميل . وقد وصف هذا البرتغالى مدينة كلوا فقال إنها مدينة إسلامية عظيمة ، بيوتها مبنية من الحجر والجص ، وشوارعها نظيفة ، وأبواب دورها من الخشب المنحوت نحتا بديما ، وتحيط بها البساتين والجنان ، ويكثر بها الذهب . أما أهلها فبعضهم بيض الوجوه وبعضهم سود الوجوه ، يرتدون الملابس الحريرية والقطنية ويتحلى نساؤهم بالذهب والفضة ، ويضعن اللآلى فوق آذانهن .

ويصف هذا البرتغالى ممبسة فيقول إنها ميناء عظيمة ترسو فيها السفن الكبيرة التى تبهر إلى جزر زنجبار .

أما فى الجزر الصغرى مثل مافيا ومببا وزنجبار ، فإن أهلها يعيشون عيشة قوامها البذخ والترف ، ويرتدون الملابس الحريرية ، والنساء يخرجن إلى الأسواق وعليهن حلى من الذهب والجواهر^(٢) .

وهكذا نرى مدنا عربية أخرى تأخذ فى الظهور على طول الساحل الشرقى

(١) كوبلاندس ٢٢ — ٣٦ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٦١ .

للقارة الإفريقية من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة المنطقة التى كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم بر الزنج ، وذلك بسبب اختلاف جموع كبيرة من العرب إلى هذه البلاد الساحلية^(١) .

وكانت جهود العرب مقصورة على الحدود الساحلية أول الأمر ، ثم أوغلوا فى داخل القارة الإفريقية المتاخمة للساحل حيث صادف الإسلام نجاحاً كبيراً بين قبائل الجلا (GaIIa) الذين استوطنوا بلاد الحبشة ، كما انتشر هذا الدين بين قبائل الصومال . وقد انقسم هؤلاء المهاجرون إلى سبع قبائل تسمى ولوجا ، وهو اسم الجنس الذى ينتمون إليه . وكان أكثر المسلمين يقيمون فى جنوبى بلاد الحبشة .

وقد حاول دعاة المسلمين أن يشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة وأن يفتشروا على حدودها الشرقية بالإضافة إلى من كان يقد إلى هذه البلاد من التجار . وكان هؤلاء الدعاة والتجار يقدون إلى شرقى القارة الإفريقية عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين ومصوع وزيلع وبربرة . وأخذ الإسلام يشق طريقه معهم إلى بلاد الحبشة والصومال ، ليس عن طريق الفتح والغزو ، بل عن طريق التجارة ، حيث أخذ التجار المسلمون يقدون على هذه البلاد ويدخلون الكثيرين فى الدين الإسلامى .

وكذلك شق الإسلام طريقه إلى أوغندة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فدخلت ولاية بوجوسا (Bugosa) فى شمالى هذه البلاد فى الإسلام فى سنة ١٩٠٦ م ، كما شق الإسلام طريقه من الساحل الشرقى إلى « نياسالاند » على أيدي العرب وخلفائهم الياءوس (Yaos) المسلمين ، فانتشر بسرعة غريبة فى أوائل القرن العشرين . وعلى أيدي العرب أيضاً انتشر الإسلام بين السواحلية أهالى

(١) سبر توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة المؤلف من ٣٧٩ .

زنبار ، وفي جزيرة مدغشقر حيث تحولت قبيلة أنتيمورونا (Antimorona)
التي تحتل جزءاً كبيراً من الساحل الشرقى ، بل لقد نفذ إلى كينيا وأوغندا
وتنجانيقا وإلى أقصى جنوب القارة الإفريقية ، أى إلى مستعمرة الكاب حيث
نجد مسلمى هذه البلاد من سلالة أهل الملايو الذين جاء بهم الهولنديون فى القرن
السابع عشر أو الثامن عشر^(١) .

ويمكن أن نلخص المسالك التى سلكها الإسلام إلى القارة الإفريقية
فيما يلى :

١ — طريق شمالى إفريقية : مصر ، برقة ، طرابلس ، إفريقية (بلاد تونس) ،
المغرب الأوسط (الجزائر وجزء من مراکش) ، بلاد السوس الأقصى إلى مصب
السنغال . ويتبع هذا الطريق طريق بحرى بعد نمو البحرية الإسلامية : من ثغور
الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش) .

٢ — طريق صحراوى : من واحات مصر الغربية ماراً بجنوب بلاد المغرب ،
حتى غربى القارة الإفريقية .

٣ — طريق القوافل : من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالى السودان ،
ولا سيما من جنوبى تونس إلى بلاد بُرنو غربى بحيرة شاد ، ومن جنوبى الجزائر
إلى بلاد « الحوصا » شمالى « نيجيريا » ، ومن جنوبى مراكش إلى مصب
السنغال ومنحنى النيجر .

٤ — والطريق الرابع يسير عبر الصحراء الشرقية ووادى النيل إلى بلاد
النوبة وشمالى السودان .

٥ — والطريق الخامس من جنوب بلاد العرب إلى ساحل إفريقية
الشرقية .

(١) راجع سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٨١ — ٣٨٧ .

الباب الثاني

وسائل انتشار الإسلام في القارة الإفريقية

١ - الفتح

انتشر الإسلام في القارة الإفريقية عن طريق الجهاد أو القتال في سبيل الله. ومن أروع مظاهر الإسلام أنه وضع الأسس والمبادئ العامة التي تمتد للثل العليا والآداب الرفيعة ، وتنظّم المعاملات بين أفراد الجماعة الإسلامية . كما عني الإسلام بالأسرة ، وقرر مبدأ حقوق الإنسان ؛ فوضع أساس الحرية والاخاء والمساواة والتسامح الديني ، وخلف للإنسانية الحديثة هذا التراث المجيد من فلسفة وأدب وفن ونظم .

والقرآن الكريم يعترف بالأديان السماوية الأخرى ، وبالأنبياء ، كموسى ، وعيسى ، ويفرض على المسلمين أن يعترفوا بهذا كجزء مكمل للعقيدة الإسلامية ، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة (٢ : ٢٨٥) : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

وقد حث القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، المسلمين على نشر الإسلام وإشاعة المحبة بين الناس جميعاً ، وقرر الله سبحانه وتعالى معنى السلام ، فسمى نفسه السلام ، فقد قال في سورة الحشر (٥٩ : ٢٣) : (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله

عما يشركون). وقال في سورة إبراهيم (١٤ : ٢٣) : (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربّهم تحمّتهم فيها سلام) .

وإن تفشى الوثنية ، وانحراف اليهود والنصارى عن المبادئ التى وردت فى التوراة والإنجيل ، قدم هذا السبيل لعمومية الرسالة الحمديّة . ذلك أن المسيحية كانت فى عصر النبوة مذهباً معقداً ، تعددت فيه الفرق واختلفت . ولم يكن اليهود قبيل ظهور الإسلام مزوّدين بمعلومات كافية ، وإن كانوا قد عرفوا من التوراة شيئاً عن البعث والثواب والعقاب ، وكان إلى جانب الوثنية واليهودية والمسيحية ديانات أخرى ، كالصابئة التى يعبد أتباعها النجوم والكواكب ، والزرادشتية (بفتح الزاى والراء وتشديد الدال مع الضم) ، نسبة إلى زرادشت نبي الفرس القدماء ، ويقول أتباعها بوجود قوتين هما الخير والشر ويرمزون لإله الخير بالنور وإله الشر بالظلمة^(١) .

الاسلام رسالة عامة

لذلك كانت الرسالة الحمديّة رسالة عامة لجميع البشر . يؤيد ذلك كتب الرسول الكريم إلى الملوك والأمراء فى الجزيرة العربية وفى خارج الجزيرة العربية . فقد بعث رسله إلى إمبراطور الروم ، وإلى كسرى فارس ، وإلى نجاشى الحبشة ، وإلى المقوقس عامل مصر من قبل إمبراطور الروم ، وإلى أمير بلاد اليمامة ، وإلى أمير غسان بأطراف الشام ، وإلى صاحب البحرين وغيرهم .

وتدل هذه الكتب دلالة واضحة على ما تردد ذكره فى القرآن الكريم من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام . فقد قال الله سبحانه وتعالى فى سورة

(١) راجع الشهرستانى : الملل والنحل (المطبعة الأدبية ، القاهرة ١٣١٧ هـ) ج ٢

ص (٣٨ : ٨٧ - ٨٨) : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .
وقال في سورة الفرقان (٢٥ : ١) : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ
لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) ، وفي سورة سبأ (٣٤ : ٢٨) : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ، وفي سورة آل عمران .
(٣ : ٨٥) : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

ويؤيد عمومية الرسالة المحمدية للجنس البشري قول الرسول الكريم متنبئًا
أَنْ بِلَالًا أَوَّلُ ثَمَارِ الْحَبْشَةِ وَأَنْ صُهَيْبًا (بضم الصاد وفتح الهاء وسكون الياء)
أَوَّلُ ثَمَارِ الرُّومِ ، وَأَنْ سَلَمَانَ أَوَّلُ ثَمَارِ الْفَرَسِ . وإن الأحاديث النبوية لتدل
دلالة واضحة على حسن معاملة الإسلام لأهل القمة . فقد روى أن آخر ما تكلم
به الرسول أنه قال : « احفظوني في ذمتي » .

لِمَاذَا أُذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْجِهَادِ؟

ولقد زعم بعض المفرضين أن الرسول الكريم أكره الناس على قبول
الإسلام . ولكن هذا الزعم لا يتفق مع صريح قوله تعالى في سورة البقرة :
(٢ : ١٥٦) : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (بفتح الغين) .

وقد أُذِنَ للمسلمين بالجهاد ، أو القتال في سبيل الله ، في آيات بعضها نزل
بمكة وبعضها نزل بالمدينة . وإنما أُذِنَ الله تعالى بالقتال لأمر منها .

(١) الدفاع عن النفس ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن لا يعتدوا
على غيرهم ، وإنما يقاتلون من يعتدى عليهم ، كما أمرهم أن يكتفوا عن قتال عدوهم
إذا جنح إلى الصلح . فقد جاء في سورة البقرة (٢ : ١٩٠) : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

ولم يكن قتال المسلمين في جهادهم قائماً على البدء بالسيف والاحكام إلى القوة كما يزعم بعض الطاعنين في الجهاد الإسلامي ، إذ كانت قاعدة الجهاد أن يعرض المسلمون فكرة الدين الحنيف على الناس عرضاً سلمياً : فإن أجابوا دخلوا الاسلام وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا عرض المسلمون عليهم قبول الجزية ، فإن أطاعوا كانوا أهل ذمة ، على المسلمين أن يقوموا بحمايتهم وحماية عقيدتهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم ، فإن أبوا كان معنى هذا أنهم يفضلون إشهار السيف في وجه المسلمين . وكان معنى هذا بالتالي أنهم سيبدءون المسلمين بالعدوان ، لأن الرفض كان يقترب بالعدوان في العادة : فكان على المجاهدين المسلمين أن يردوا العدوان تمشياً مع ما جاء في سورة البقرة (٢ : ١٩٤) (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين الذين كانوا يحاربون للدفاع عن أنفسهم كانوا في الواقع ينجحون إلى السلم حين يجدون في العدو هذا الاستعداد تمشياً مع قوله تعالى في سورة الأنفال (٨ : ٦١) : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم)

(٢) وكذلك أذن للمسلمين بالقتال لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها أمام من يقف في سبيلها . فقد جاء في سورة النساء (٤ : ٧٤) فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً .

وقد يسأل بعض المستفسرين : إذا كان الإسلام قد اعترف باليهودية والمسيحية . واعتبر أتباعهما أهل كتاب ، فلماذا أمر القرآن بقتالهم كالوثنيين ؟ .

والجواب على هذا أن الإسلام أمر بقتالهم إذا أبوا قبول الشرطين السلميين اللذين أشرنا إليهما . ومعنى الرفض - كما قررنا - أن الكفار كانوا يشهرون السيف في وجه المسلمين . فكان على المسلمين بالتالي أن يردوا العدوان . هذا

من جهة ، ومن جهة أخرى فلأن اليهود والمسيحيين في ذلك العصر قد غيروا وبدّلوا في التوراة والإنجيل واتخذوا أرباباً من دون الله . لهذا أنزلهم الإسلام منزلة المشركين ، فبعث الرسول الكريم الكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى قبول الإسلام الذي يقوم على وحدانية الله ، وأمر الله سبحانه وتعالى بقتال هؤلاء المنحرفين ، لأنه اعتبرهم كفاراً مشركين ، والإسلام يهدف أول ما يهدف إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى . ويؤيد صحة ما ذكرنا ما جاء في سورة التوبة (٩ : ٢٩ - ٣٣) :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد^(١) وهم صاغرون^(٢) . وقالت اليهود عزيز^(٣) ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون^(٤) قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

والجزية التى أشرنا إليها ووضعت على الرءوس وتسقط بالإسلام . وقد وجبت على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ

(١) أى عن قدرة .

(٢) أى قادرين أن تجرى عليهم أحكام الإسلام .

(٣) بضم العين وفتح الزاى وسكون الياء .

(٤) أى يماثلون .

الفريقان ، وهم رعية لدولة واحدة في المسؤولية ، كما تكافأ في التمتع بالحقوق ، وتساويا في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة ، والشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين ، وذلك مقابل حماية أهل الذمة ، والمحافظة على أموالهم وأرواحهم .

كل ذلك يعمل لنا لما إذا انتشر الإسلام في سهولة ويسر ، بسبيل الحجة والموعظة الحسنة ، لا بسبيل الإكراه والسيوف ، والآن ننقل إلى الكلام على الوسيلة الثانية التي انتشر بها الإسلام بطريق الفرق الصوفية .

٢ - الفرق الصوفية

ومما هو جدير بالملاحظة أن نشاط الفرق الصوفية والتجار والمعلمين والدعاة كان يقوم في الغالب على الإرشاد ، ويعتمد على انتشار التعاليم الإسلامية ، ويقوم على حب الجار والتسامح مع المسيحيين واستخدام كل وسائل الترغيب في نشر الدعوة إلى الإسلام ، رغبة في نشر الدين ابتغاء مرضاة الله وحسن الثواب في الآخرة وهداية الناس ، وذلك بتأسيس المساجد وفتح المدارس والمصاهرة مع أهالي البلاد التي يتردد عليها المسلمون أو يستوطنونها ، أو بشراء العبيد لتعليمهم مبادئ الدين الحنيف ، ثم إعانتهم لوجه الله وإعادتهم إلى أوطانهم ليدخلوا إخوانهم في الدين^(١) . أضف إلى ذلك مبدأ الحرية والإخاء والعدالة والمساواة العنصرية ، إذ أن لون الزنبي لا يحمل إخوانه في الإسلام على أن يتعصبوا عليه ، أو أن يعاملوه على أنه من طبقة دنيا بالنسبة إليهم كما هي الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي .

(١) راجع ما ذكرته في الباب الثاني عن انتشار الإسلام في إفريقية الاستوائية .

(١) القادرية :

ويدخل في حكم الثغور والربط تعاليم الفرق الصوفية ، كلقادرية ، والتجانية (بتشديد التاء مع كسرها) ، والسنوسية ، تلك التعاليم التي تعمقت فيها هذه الفرق ، وشبعت بالميلول الصوفية ، وعكفت على الرياضة الروحية ، المقسمة بين التقشف والرياضة النفسية التي تذكرنا - كما يقول ليثى بروفنسال^(١) بمسيحية المصور الوسطى ، التي كان فيها المثل الأعلى حربيا ورفهانيا (بفتح الراء) في آن واحد ، وذلك على حد تعبيره .

وتعد طائفة القادرية التي تأسست في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) على يد عبد القادر الجيلاني ، أوسع الفرق الدينية انتشاراً . وقد دخلت إفريقية الغربية في القرن الخامس عشر الميلادي على أيدي مهاجرين من توات (بضم التاء) ، وهي واحة في النصف الغربي من الصحراء ، واتخذوا ولاته أول مركز لطريقتهم ثم لجئوا إلى تُمْبُكْتُو .

وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الإسلامي تأثيراً عميقاً ، تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون في الصحراء الكبرى ، وفي السودان الغربي ، إلى حياة ونشاط جديدين . وتقوم المراكز الرئيسية لتنظيم دعوة الفرقة القادرية في كَنَمْكا (بفتح الكاف وسكون الفون) و تَمْبُو (بكسر التاء وسكون الميم بجبال فوتاجالون) ، ومَسَرْدُو (بضم الميم وفتح السين وسكون الراء وضم الدال) ببلاد الماندينجو (بسكون الفونين وكسر الدال) ، وموطنهم على نهر الجيبيا (بفتح الجيم وسكون الميم وكسر الباء) في غينا . وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء ومعلمين .

(١) الشرق الإسلامي واخضارة الأندلسية . منشورات معهد مولاي الحسن تطوان ص ٣٥

ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين وجماعات من المريدين قد انتشروا في أرجاء السودان الغربى ، من السنغال إلى مصب نهر النيجر . وكان بعض هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام يوفدون لإتمام دراستهم بمدارس القيروان والزيتونة وطرابلس ، أو بجامعة القرويين والأزهر . حتى إذا ما أتموا دراستهم الدينية ، عادوا إلى أوطانهم مزودين للعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين مواطنيهم . وكان المعلمون الذين تربوا فى سلك نظام الفرق الصوفية التى كانت تقوم على حب الجار والتسامح يؤسسون ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، المدارس فى السودان ، ويقومون بالإنفاق عليها .

وكان نشاط هذه الجماعة — كما يقول سير توماس أرنولد^(١) — ذا طابع سلمى للغاية ، يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد . . . كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم فى تلاميذه ، وكما كان يعتمد على انتشار التعليم فى الوقت نفسه . وبذلك برهن دعاة القادرية فى السودان على أنهم أوفياء لأهم المبادئ التى كانت تسيطر على حياة مؤسس هذه الجماعة ، وهى حب الجار والتسامح وغيرها من الصفات الكريمة . وكان المعلم المسلم كلما تكلم عن أهل الكتاب ، عبّر عن أسفه عما كانوا عليه من باطل ، ودعا الله أن يهديهم سواء السبيل^(٢) .

(ب) النجابة :

ومن الفرق الصوفية التى كان لها أثر كبير فى نشر الإسلام فى إفريقية : التَّجَانِيَّة (بتشديد وكسر التاء) التى أنشأها أبو العباس أحمد بن محمد المختار

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمه عن الإنجليزية حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النعراوى (الطبعة الثانية : القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٦٥ — ٣٦٦) .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى وفى شرق القارة الإفريقية وغربها (القاهرة ١٩٥٧ ص ١٦ — ١٨) .

ابن سالم التجاني (١٧٣٧ — ١٨١٥ م) وكان أحد أهالي قرية عين ماضي ببلاد الجزائر ، وقد تنقل في البلاد الاسلامية ، مثل تلمسان ومكة والمدينة والقاهرة ؛ وتلمذ لشيخها ، ثم أسس طريقة صوفية جديدة . وقد رحل إلى الصحراء سنة ١٧٨٢ م ثم عاد إلى فاس سنة ١٧٩٨ م ، واتخذها مركزاً لنشر دعوته ، وقضى الشطر الأكبر من حياته متنقلاً لتنظيم شئون طريقته .

ويسمى أتباع الطريقة التجانية « الأحباب » ، وقد حرم عليهم الانتظام في سلك طريقة أخرى ، ويقوم الذكر عندهم عادة على تلاوة أدعية وصلوات وأوراد معينة في أوقات مخصوصة من اليوم . ولما مات أبو العباس انتقلت الوصاية على ولديه محمد الكبير ومحمد الصغير إلى محمود بن علي التونسي ، ثم خلفه في الوصاية عليه الحاج علي بن عيسى شيخ زاوية تجانية في تحاسين . ولما قتل محمد الكبير في أحد الحروب التي شنها أمراء الجزائر على أصحاب هذه الطريقة تولى محمد الصغير شئون الطريقة وأخذ ينشر الدعوة ولا سيما في الصحراء الكبرى والسودان ، وذلك بإرشاد الحاج علي بن عيسى .

وفي سنة ١٨٣٦ م أراد الأمير عبد القادر الجزائري الاستمانة بالتجانية في طرد الفرنسيين الذين استولوا على الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، ولكن التجانية آثروا أن يعيشوا عيشة وادعة ، ولم ينخرطوا في سلك جيشه ، وذلك تمشياً مع الروح الصوفية التي تأبى التدخل في الشئون السياسية . فقام الأمير عبد القادر بعدة حملات على مركز التجانية في « عين ماضي » التي قاومت هذه الحملات حتى لقد ذاعت شهرة هذه الطريقة لما أبداه أصحابها من ضروب الشجاعة في مقاومة المغيرين . ولما مات محمد الصغير سنة ١٨٤٤ م انتقلت شئون الطريقة التجانية إلى ابنه الذي توفي سنة ١٨٥٣ ، فخلفه محمد العائد (حفيد الحاج علي بن عيسى) الذي مات عن ولدين صغيرين اتهموا بعدم موالاتهما للفرنسيين ، وقبض عليهما في سنة ١٨٦٩ ، ولكنهما نجحا في مهادنة السلطات الفرنسية .

وقد نجح التجانية في نشر دعوتهم في مصر وبلاد العرب وبعض أجزاء آسيا ، ولكن التوسع الحقيقي في عقائد هذه الطائفة كان في السودان وفي إفريقية الفرنسية (سابقاً) ، وبين البدو المقيمين في أقصى جنوبي المغرب الأقصى^(١) . ثم ظهرت الطريقة التجانية في السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على يد الحاج عمر ، وقامت على أساليب القادرية في الدعوة . وساعدت كثرة مدارس التجانية على نشر تعاليمهم التي كانت مقابلة بتعاليم القادرية ، والمرابطين الذين نشروا تعاليمهم بين القبائل الوثنية حول نهر النيجر الأعلى والسودان ، وذلك في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

وقد فتحت هذه الفزوات ميادين جديدة لنشاط الدعوة التجانية . وتعدى أولى هذه الحملات التي قامت لنشر الدعوة التجانية إلى الحاج عمر الذي ولد سنة ١٧٩٧ بمكان يقع على مقربة من بودور (Podor) على السنغال الأدنى . وكان أبوه من المرابطين . وقد تثقف الحاج عمر ثقافة دينية عميقة ، واشتهر بعلمه وورعه حين خرج لأداء فريضة الحج في سنة ١٨٢٧ حيث انتظم في سلك التجانية على يد أحد زعمائها الذين تعرف عليه في مكة . ثم عاد إلى مصر (سنة ١٨٣٣) ، وعبر السودان الأوسط ، وظفر بكثير من الأتباع ، ونظر إليه الناس كمهدي جديد . وفي سنة ١٨٤١ م بلغ الحاج عمر جبال « فوتا جالون » ، وبدأ سلسلة من الحملات لنشر تعاليم التجانية بين القبائل ، التي كانت لا تزال على الوثنية ، والتي كانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال^(٢) . وفي إحدى هذه الحملات لقي الحاج عمر حتفه في سنة ١٨٦٥ ، ولم ينجح ابنه أحمدو شينغو في ضم

(١) مرجليوت : أنظر مادة تجانية في دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة ج ٤ ص ٥٩٣ — ٥٩٦ .

(٢) Fage, History of Western Africa, p. 147.

مختلف الولايات إلى مملكة أبيه غير سنوات قليلة ، ولم تلبث المنازعات الداخلية أن قضت على بلاده التي انتقلت إلى حكم الفرنسيين^(١) .

(ح) السنوسية :

ومن الفرق الصوفية التي كان لها أثر بعيد في نشر الإسلام في القارة الإفريقية : السنوسية التي أنشأها الفقيه الجزائري سيدي محمد بن علي السنوسي في سنة ١٨٣٧ م . وهي فرقة دينية تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية . وقد تأثرت العقيدة السنوسية بعقيدة الوهابية التي نشرها محمد بن عبد الوهاب في بلاد العرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، متأثراً بمبادئ ابن تيمية الدمشقي صاحب المذهب التجديدي المشهور .

ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ م حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية ، وذلك بقوة عبقريته الصافية واستخدام كل وسائل الترغيب في نشر دعوته . ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة . ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن في دقة بما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد المطلق ، تلك المبادئ التي تجعل التمسك بالله وحده وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريماً تاماً . وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين ، وأن يسهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٦٧ — ٣٧٠ .

من أهم المصادر التي تجمع مذاهب التجانية ورياضتهم : كتاب « جواهر الماني وبلوغ الأمان في فيض الشيخ التجاني المعروف كذلك بالكناش » (القاهرة ١٣٤٥ هـ) . ويقال إن هذا الكتاب من إملاء منشيء الطريقة التجانية . وهناك معجم يضم أسماء أعوان الطريقة التجانية عنوانه : « كشف الحجاب عن تلقى مع التجاني من الأصحاب » ، صنفه أبو العباس أحمد بن أحمد العياش سكيج (فاس ١٣٢٥ ، ١٣٣٢ هـ) .

أنفسهم لخدمتها ، كما أوجبوا على أنفسهم أن ينفقوا كل نشاطهم على تقدم الإسلام وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربي .

وقد انتشرت طائفة السنوسية في إفريقية الشمالية كلها ، وتنتشر زواياها من مصر إلى المغرب ، وتمتد في الداخل في واحات الصحراء وفي السودان . وكان مركز السنوسية واحة جغبوب^(١) في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس مركز السنوسية . وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئآت من الدعاة ، ثم يرسلون إلى كافة أجزاء إفريقية الشمالية دعاء للإسلام . وكانت زواياهم الفرعية ، التي قيل إنها بلغت ١٢١ زاوية ، تتلقى من زاويتهم الرئيسية في جغبوب التعليمات والأوامر في كافة المسائل المتعلقة بالفرقة السنوسية التي كانت تضم في نظام رائع آلافا من الأتباع والمدارس في إفريقية الشمالية من مصر إلى المغرب الأقصى ، وفي أرجاء السودان والحبشة وسنغامبيا والصومال كافة ، بل اننا نجد ذلك في بلاد العرب والعراق وفي أرخبيل الملايو .

ومع أن السنوسية كانت في أول أمرها حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه ، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة ، حتى أخذت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلاماً إسمياً بحتماً من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاء السنوسية . ومن هذا النوع من النشاط ، نذكر على سبيل المثال ، ما بذله دعاء السنوسية من جهد ليدخلوا

(١) وفي سنة ١٨٩٥م هاجر إلى كفرة سيدي المهدي ، وهو ابن سيدي محمد السنوسي وخليفته ، لأنها كانت أكثر توطئاً من جغبوب (محمد بن عثمان الحشاشي : رحلة في بلاد السنوسية) .

ترجمة (Tibesti) (Borku) pp. 111—150 Serras et Lasram,

ولسكنه توغل فيما بعد جنوباً إلى منطقة بوركو وتيبستي حيث توفي سنة ١٩٠٢ . وكان رئيس الجماعة في سنة ١٩٠٨ سيدي أحمد أحد أقرباء مؤسس الجماعة .

Falls : Drei Jahre in der Libyschen Wüste, p. 274.

في الإسلام هذا الفريق من قبيلة بيلي (Baele)^(١) الذي كان لا يزال على الوثنية ، بل إنهم حملوا حماسهم الدينية إلى البقية الباقية من هذه القبيلة حين وجدوا أن معرفتهم بالإسلام سطحية ، وأنهم كانوا مسلمين اسماً . كما نجح السنوسية حين نزلوا بين شعب التيدا (Tedas) في بلاد تيبستي (Tibesti) بالصحراء الكبرى جنوبى واحة فزان ، في إدخالهم في الإسلام بعد أن كانوا مسلمين اسماً . كما كان دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة في بلاد الجالا (Galla) في الحبشة ، فيرسلون إليها في كل عام دعاة من هرر ، حيث تتمتع السنوسية بنفوذ كبير . وتسكاد تجد كل الرؤساء منهم في بلاط الأمير بلا استثناء . ويستعين دعاة السنوسية على نجاح دعوتهم بفتح المدارس ، وخاصة في ودأى (Wadai) غربى بحيرة شاد بزيادة كبيرة في عددهم ، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم في جفبوب . فإذا تعلموا مبادئ الطائفة بصورة تبعث على الرضا ، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم ليدخلوا إخوانهم في الإسلام^(٢) ، وفي سنة ١٨٩٥م هاجر كفرة سيدى المهدي ، وهو ابن سيدى محمد السنوسى وخليفته ، لأنها كانت أكثر توسطاً من جفبوب .

(١) وهى قبيلة تسكن بلاد إيندى (Ennedi) الجبلية شرقى بوركو .

(٢) انظر سير توماس أرنولد — الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ، ٢٨١ — ٢٨٢ .

Revue du Monde Musulman.

راجع مراجع الحركة السنوسية فى 313، 2، 141، III،

(م ٤ — انتشار الإسلام)

٣ - الملازمة بين الإسلام والمذهب الحيوى

فى العقائد والشرىعة

(١) الوضع الحالى للإسلام فى إفريقيا :

ما هو الوضع الحالى للإسلام فى القارة الإفريقية ؟ وما مدى انتشار الإسلام فى إفريقيا الاستوائية ؟ وما تأثير الشريعة الإسلامية فى إفريقيا وكيف تطبق ؟ وإلى أى حد تتمشى الشريعة مع العرف فى إفريقيا ؟ .

هذه أسئلة تتبادر إلى ذهن الباحث فى حالة الإسلام فى القارة الإفريقية . وسأحاول أن أجيب عنها فى شىء من الإيجاز ولا سيما ما يتعلق منها بغربى هذه القارة .

يقول جورج كاربنتر^(١) فىما كتبه عن « الدور الذى تقوم به المسيحية والإسلام فى إفريقيا المعاصرة » : « إن السواد الأعظم من المسلمين فى أواسط إفريقيا إفريقيا الأصل لا ينتسبون إلى أصول عربية ، وبعضهم لا يعرف من العربية إلا كلمات : وهم يتلون القرآن دون أن يفهموا معناه ، ومعرفتهم بالدين لا تتعدى بضع قصص عن سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبعض الأمثال . كما أن تطبيقهم للإسلام يماز قليلا القيام بالصلاة وأداء الزكاة . ويرى الباحثون فى أحوال المسلمين فى إفريقيا أن للإسلام أشكالا تختلف من إقليم إلى إقليم . كما أن النظرة إلى الإسلام تختلف هى أيضا : فبعضهم يرى فيه نظاما سياسيا يقوى من حركاتهم التى تتجه نحو الحكم الذاتى ، وبعضهم يرى فيه تحرراً من السيطرة الاستعمارية ، وبعضهم الآخر يرى أنه يتيح لهم التفوق على جيرانهم .

(١) Africa To-Day, The Role of Islam and Christianity in Contemporary Africa, p. 95.

كما أن أغلبهم يرى في الإسلام دينًا غير غريب عن حياتهم ، أتى إليهم من إفريقيا نفسها وليس من أوروبا ، لأنه يقوّى شعور القومية في نفوسهم ، ويهيئ لهم الحرية التي ينشدونها .

ويقول ترمينجهام^(١) في حديثه عن الإسلام في إفريقيا ، إن الشعوب الإفريقية تأخذ من الإسلام العناصر التي تتفق وطبيعتها القومية وطريقتها في الحياة . فكل المسلمين مثلاً يقدسون الشريعة ويرون أنها شعار الإسلام ، إلا أنهم في الوقت نفسه يطبقون العادات التي ألفوها قبل دخولهم الإسلام ، عن طريق الملاءمة بينها وبين الشريعة الإسلامية . ومعنى ذلك أن الإسلام قد استوطن في كل قطر وأصبح جزءاً من التراث القومى . وهناك عاملان مهمان هما :

١ — أن الشعوب الإفريقية لها شخصية معنوية تحتفظ معها بنظامها الاجتماعى .

٢ — وأن هذه الشخصية تعمل على توطيد الإسلام والملاءمة بينه وبين النظام الاجتماعى السائد .

وهذان العاملان هما سر عظمة الإسلام وانتشاره وسيطرته على أتباعه ومريديه .

وهناك حقيقة أخرى تساعد على فهم أحوال المسلمين في إفريقيا ، هي هذه الوحدة القائمة بين حياتهم الدينية والاجتماعية . فالمسلمون يولون المظاهر الدينية أهمية قصوى تفوق نواحي السلوك . ويزعم جورج كاربنتر أن الإسلام عقبة في سبيل التطور لأسباب تتلخص فيما يلى :

(١) Islam in the Sudan. p. 107.

١ - الابتكار الذى اتسم به الإسلام فى عصوره الأولى قد حلت محله حركة ترضى بما قسمه الله .

٢ - إن التعليم الإسلامى محدود فى وسائله وأغراضه بدليل اقتصار المدارس الإفريقية على تعليم القرآن واللغة العربية .

٣ - انحطاط مركز المرأة وقصر نشاطها على الشؤون المنزلية .

٤ - نظرة العالم الإسلامى إلى الغرب نظرة تنم عن البغض والكراهة ، مما جعل الإسلام فى إفريقيا عاملاً موحداً بين حركات التحرير التى تناوى الغرب وتتحدى نفوذه .

٥ - إن الإسلام لا يعمل على توحيد المجتمع ، بل إنه يسمح لأهل الذمة بأن يحتفظوا بقوانينهم وعاداتهم داخل نطاق الدولة الإسلامية^(١) .

على أن كاربنتر قد نسى ما خلفه الإسلام من تراث مجيد فى الاجتماع ، وفى نظم الحكم ، وفى الحضارة والثقافة التى كان لها أثر بعيد فى الحضارة الأوربية ، ولا سيما فى عصر النهضة . ولعله قد فاتته بعث الروح القومية بين الشعوب الشرقية التى أخذت تعمل على التحرر من السيطرة الاستعمارية والإفادة من ثروات بلادها . ومع ذلك عاد هذا الكاتب فأشاد بما كان للإسلام من أثر بالغ فى النواحي الثقافية فقال : « ويجب ألا ننفل ما للإسلام من أثر بعيد فى النواحي الثقافية » :

أ - إن الإسلام يقوى الشعور بالوحدانية ، ويؤلف بين قلوب أفراد المجتمع ، ولا يقيم وزناً لحواجز اللون أو الجنس ، بل يمنح الجميع أخوة إسلامية مشتركة . فهو من هذه الناحية أقوى من المسيحية وأبعد أثراً .

٢ — إنه يقوى من الشعور بوجود الله وبوحدانيته وقوته ، وبتبعية الفرد لهذا الإله وإحكام صلته به عن طريق صلوات يقوم بها كل يوم ، بعكس ما نراه في المسيحية ، فهي تجعل هذه الصلة يشوبها بعض الغموض .

٣ — من مظاهر قوة الإسلام أنه يحث على الصبر وضبط النفس والشعور بالكرامة والعزة والكرامة .

٤ — إن الإسلام جعل اللغة العربية ، لغة القرآن ، لغة عالمية للتفاهم في جميع أجزاء العالم الإسلامي ، فهو إذن يضي على المجتمع وحدة ثقافية واجتماعية^(١) .

(ب) انتشار الإسلام في إفريقيا الاستوائية :

يظهر أن الإسلام بين الشعوب الوثنية في إفريقيا يلتزم طريقة واحدة ، هي أن انتشاره ذو طابع سلمى ، أى أنه لا ينتشر بالسيف . والظاهرة الأولى التى يلحظها الباحثون فى تاريخ انتشار الإسلام فى هذه القارة هي استعانة الوثنيين بالتعاون الإسلامى مع تعاويذهم الوثنية ، والاتجاء إلى شيوخ المسلمين وزيارتهم بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين . وظاهرة الاختلاط الجزئى هذه يشد من أزرها هذه الحقيقة ، وهى المذهب الحيوى (animism) ، الذى يقول بوجود روح أو نفس الحيوان ووجود عنصر حى فى النبات هو علة أعماله الحيوية وليس هو هلة القوى الكيميائية أو المادية .

ويعتقد أصحاب هذا المذهب بوجود إله واحد ، وإن كانوا يتجاهلون هذا الإله بسبب اهتمامهم ببعض الأرواح التى هى أقل درجة ولكنها أكثر أهمية فى نظرهم . لذلك فإنهم يجدون أن إله المسلمين ليس غريباً عنهم . كما أن بعض

(١) Ibid, pp. 98—99.

المسلمين من ناحيتهم يجدون في عقائد المذهب الحيوى ما يشبه عندهم الاعتقاد في الجن وفي الأرواح السفلية ، وهى قريبة من طقوس السحر عند الوثنيين . وهذه الظاهرة تتجلى مما ذكره « أندرسون » نقلا عن بوديتش في كتابه « البعثة إلى بلاد أشنتى »^(١) (بفتح الألف والشين وسكون النون) وإن كانت تقسم بالمبالغة حيث يقول :

« إن أغرب الخرافات عند الأشنتى هى إيمانهم بالأحجار والتماثم التى يشترونها بكثرة في بلاد المغرب ، ويمتقدون اعتقاداً راسخاً أنها تنفعهم في القتال ، فتقيهم شر الجروح والمزيمة ، وتشل يد العدو ، فتتهز أسلحته وتطيش رصاصاته ، كما أنها تخصب الجنسين الذكر والأنثى ، وتمنع السوء ، وتقيهم شر المرض ، وتطيل العمر . كما أن العرافين المغاربة الذين يقولون بالغيب لم يترددوا في أن يمزجوا بين خرافاتهم الدينية والقصص الإسلامية ، إما لمنفعتهم الذاتية أو من أجل سلامتهم . وكانوا خبيرين بالحيل اليدوية » . وقد ذكر « أندرسون » نقلا عن « جرينبرج » في كتابه « تأثير الإسلام في الديانة السودانية » .

أن « المجازاوا » الوثنيين يذكرون بين أرواحهم روحا تسمى إيسكوكى ، ويسمونها أيضاً المعلم الذى حج بيت الله (Malam-Alhaji) . وافظة « مالام » ترادف « معلم » العربية وتعنى الرجل المثقف المتفقه في الدين ، و « ألأجى » هى تحريف لاسم الحاج ، أى الذى حج بيت الله في مكة المكرمة . وهم يصورونه في صورة حاج مسلم متفقه في الدين متقدم في السن .

وقد رأى جرينبرج بنفسه في مستعمرة غامبيا وغيرها أن التماثم والرُقَى (بضم وتشديد الراء وفتح القاف) الإسلامية تختلف عن تماثم أصحاب المذهب

الحيوى ، كما وجد أن أقارب المرضى من الوثنيين يلتمسون البرء على يد مشايخ المسلمين ، كما يلتمس المسلمون الشفاء على يد الكهنة الوثنيين الذين يطلقون عليهم اسم « چوچو » .

والظاهرة الثانية تتمثل ، لا فى مجرد تقليد الرقى الإسلامية ، وإنما فى تقليد الصلوات الإسلامية . وقد وجدت أمثلة طريفة لهذه الظاهرة فى غامبيا وساحل الذهب (غانة) . فى جهات كثيرة فى غامبيا وبين شعب الجولا بوجه خاص ، تبحد بعض الوثنيين المحترفين يحضرون الجناز الإسلامية ، ويحتفلون بالأعياد ، ويصلون كما يفعل المسلمون . وفى بعض المناطق مثل كيمبه (Kpenbe) وييندى (Yendi) ، فى الجهات الشمالية من ساحل الذهب ، يتلون الصلوات الإسلامية بانتظام ، ويعتقدون أن ذلك يجلب لهم السعادة الأبدية . وقد وجد المؤلف أيضاً أن زعيم البلاد يعين بعض الموظفين المسلمين ليتولوا بعض المهام نيابة عنه ، كتقديم القرابين أو حضور الجناز . ويمكن أن يفسر ذلك على أن هذه الظواهر بقية من علامات قديمة عفا أثرها . ولكن اختلاطهم من جديد بالتجار المسلمين وبفقهاءهم ربما يعيد هذه الصلوات القديمة . فى بلاد مثل نامالى يصلى نحو ٥٠ ٪ من السكان كما يصلى المسلمون ، على حين نجد ٢٠ ٪ من هؤلاء قد تحولوا إلى الإسلام فعلاً . وفى نيجيريا استخدم أحد الزعماء المحليين عالماً مسلماً ليقوى مركزه . وقد اعتاد زعيم مملكة برنو (بضم الباء وسكون الراء) غربى بحيرة شاد وشمال شرقى نيجيريا أن يصلى لآلهته فى شهر رمضان ويستعين بالفقهاء المسلمين مع وثنيته .

والظاهرة الثالثة تتمثل فى أن الوثنيين يعتقدون الإسلام جهراً مع احتفاظهم ببعض العقائد القديمة ويحتفظ كثير من حكام المسلمين غير المتنورين فى بلادهم بكهنة وثنيين يستعينون بهم فى بعض المناسبات ، كاعتلائهم العرش حيث تتبع

التقاليد الوثنية . كما أن بعض المجتمعات الإسلامية تفتتح شهر رمضان وتختتمه بتقاليد وثنية . ويقسم الحوصا (بفتح الحاء وسكون الواو) في شمالى نيجيريا الجن إلى نوعين : البيض للمسلمين والسود للوثنيين . وهم لا يجدون غضاضة في الاستعانة بهذه الأرواح لشفاء نفوسهم وتخليصهم من مصائبهم . ويعتقد الوثنيون بحلول هذه الأرواح في الأشجار والأحجار ، وكذلك الاستعانة بالأجداد عند الوثنيين .

وليس غريبا أن نجد الزوج المسلمين يحلون القرآن محل وثنهم القديم ، كما نجد أيضا تشابها في الاعتقاد بأسر السحر في معاقبة الحائث يمينه وشاهد الزور . وكذلك تجد لصلاة الاستسقاء عند المسلمين نظيرا عند الوثنيين ، فهم يصلون من أجل إلههم الكبير الذى يملو على أوثانه . ولا زال بعض المسلمين هناك يعتقدون في قدرة الكهنة الوثنيين على التحكم في المطر وتغيير بعض الظواهر الطبيعية . هذا إلى ما تحفل به الطقوس الإسلامية من أمور تشبه الطقوس الوثنية ، مثل ختان الرجال والنساء ، وأداء الصداق عند الزواج ، ومثل الأخوة عند الفرق الصوفية . فذلك الاحتفال المسمى « صدقة » (أى الصداق) عند الياوس (Yaos) يمثل بقية من الطقوس الجنائزية الوثنية التى تقام عند الدفن وفي فترات متعاقبة بعد الوفاة ، ويصحبها نوع من الرقص وشرب الخمر . فلما اعتنقت هذه القبيلة الإسلام ، وجدت في حلقات الذكر ما يذكرها بالرقص القديم . وكذلك صلاتها من أجل موتها وتقديمها القرابين لم تغير بعد اعتناقها الإسلام ، لأن المسلمين يعتبرونها مجرد صدقة للغادين والرائحين ليرحم الله موتاهم ويغفر خطاياهم . كما أن الصلوات ليست من أجل المتوفى وإنما هي من أجل خالقه . ويحتفظ المسلمون ببقية من وثنيتهم القديمة . وليس انتحال الإسلام بالنسبة إلى قبائل الياوس إلا مجرد استبدال الختان الإسلامى الكامل بالختان الجزئى القديم^(١) .

Anderson, Udiy and Variety in Muslim Civilization, (١)
pp. 263—266.

(ح) تأثير الشريعة الإسلامية وكيف تطبق :

إن تأثير الشريعة الإسلامية في الزوج المسلمين أشد وضوحاً في العقيدة منه في الأحوال الشخصية والصلوات الأسرية . فشعب « الياوس » كانوا لا يزالون إلى عهد قريب يختلفون في مسائل تافهة ، مثل شرعية أكل الطعام قبل الجنائز أو بعدها ، أو الغناء والرقص وحمل الأعلام في مثل هذه المناسبات ، وفي ضرورة الرقص عند زيارة المقابر الزيارة السنوية ، وفي شرعية أكل لحم فرس النهر ، وفي بناء المسجد الجديد مكان المسجد القديم . أما شعب « بجفدة » المسلمون فيذكر « أندرسون » أنهم يختلفون في فريضة الظهر وفريضة الجمعة أيتهما تسبق الأخرى . كما وجد شعب « الياوس » يتمسكون بطقوسهم القديمة في الزواج وفي الطلاق والميراث .

ويمكن أن يقال بوجه عام في هذه الظاهرة الثالثة إن الزوج لا يزالون يحتفظون بشطر من عقائد المذهب الحيوي عن طريق إعطائها صبغة إسلامية . وفي الوقت نفسه تستخدم الطقوس الإسلامية ويوليها المسلمون المحل الأول ، على حين يقل أثر الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية والأسرية . ففي غامبيا مثلاً نجد أن « الماندنجو » لا يتقيدون (كما يقول « أندرسون ») بتحديد الإسلام عدد الزوجات ، ويعتقدون أن أبناء من يزيدون على أربع ، أبناء شرعيون . وكذلك يقتنى مسلمو غامبيا عدداً من الإماء وإن كن في الحقيقة حرائر ، وفي سيراليون نجد المسلمين يجمعون بين الأختين^(١) . وعلى كل حال ففي تطبيق الشريعة الإسلامية في إفريقية الاستوائية يمكن أن نميز بين حالات ثلاث :

(١) Anderson, pp. 267—268.

الأولى : عند ما يعتنق بعض أفراد القبيلة الدين الإسلامى .

الثانية : عند ما تدخل القبيلة بأسرها فى الإسلام .

الثالثة : عند ما تعتنق الدولة الدين الإسلامى وتطبق الشريعة الإسلامية .

وفى الحالة الأولى ، عند ما يدخل بعض أفراد القبيلة الدين الإسلامى كما حدث فى كينيا مثلا ، فإنهم يعتزلون حياة القبيلة ولا يشاركونها فى طقوسها ، بل يتركون أرضها ويهاجرون إلى السواحل حيث يعيشون مع سائر المسلمين ، ويتزوجون أمام القاضى ، ويطبقون أحكام الشريعة الإسلامية فى الموارث ، بل يتركون آباءهم وأمهاتهم وزوجاتهم محتفظين بإسلامهم .

وفى الحالة الثانية ، عند ما تدخل القبيلة بأسرها فى الإسلام ، نجد أنها تجمع بين التقاليد الوثنية القديمة وبين الشريعة الإسلامية ، وتظل بعد اعتناقها الإسلام على تقاليدها القديمة فى الزواج وفى الميراث حيث نرى الأخ من الأم أو ابن الأخت هو الوريث الوحيد ، على حين نجد أن أفراد هذه القبيلة الذين اعتنقوا الإسلام ولجئوا إلى الساحل يلتزمون الشريعة الإسلامية التزاما مطلقا .

وفى الحالة الثالثة ، عند ما يعتنق الشعب بأسره الدين الإسلامى كما فعل الصوماليون ، تحل الشريعة الإسلامية محل التقاليد القديمة إلى حد بعيد ، وتصبح هذه الشريعة عامل توحيد بين التقاليد المتعددة للقبائل الصومالية .

أما إذا عمد الحاكم إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، فإن الموقف يختلف ، إذ نراه يتخطى القوانين المحلية للمجتمع ويطبق الشريعة الإسلامية على أهل الكتاب والوثنيين ، كما حدث فى بعض الإمارات الإسلامية فى شمالى نيجيريا^(١) .

(٥) الشريعة والعرف :

أشرنا من قبل إلى الآثار البعيدة التي تركها انتشار الإسلام في شعوب إفريقيا الزنجية ، يتضح هذا مما ذكره « ميك »^(١) : « إن الإسلام جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعا حضاريا متميزاً لا زال واضحاً حتى اليوم ، مؤثراً في نظمهم السياسية والاجتماعية . ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبا ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ... فقد وسع من الأفق ، ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى ، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين ... لقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً فى عالم حر » .

على أن « أندرسون » يعقب على هذا القول الواضح بادعائه أن « ميك » قد لاحظ من قبل كيف أن الإسلام اعترف بتعدد الزوجات ، وبالحتان وتحريم بعض الأطعمة ، كما اعترف بالرق وغير ذلك من الأمور التى جعلت الطفرة من المجتمع البدائى إلى المجتمع الجديد غير كبيرة . أما العوامل الرئيسية التى توحد بين المسلمين فى مختلف أقطار العالم الإسلامى ، ومنها إفريقية الاستوائية ، فهى : السنن الإسلامية ، والشريعة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية .

والسنن تأتى فى المرتبة الأولى تقريباً . على أن السنن الحيوية القديمة لم تكن غلبة الأثر فى السنن الإسلامية فى إفريقية الاستوائية . وعلى الرغم من الخلافات

Meek, Northern Tribes of Nigeria, pp. 1, 4 - 5. (١)

المحلية في الثقافة الإسلامية نجد وحدتها ظاهرة الأثر ، وهي أشد ظهوراً في شعب « الحوصا » في شمالي نيجيريا ، منها بين مالي في شمال غربي نيجيريا ، وصنغاي (بضم الصاد وسكون النون) في جُوا (Gao) ، وبين طوارق الصحراء البيض ، وفي جهات مختلفة من شمالي إفريقيا والشرق الأدنى . ومع ذلك فقد وحد الإسلام شعوب الحوصا وجعل منها أمة واحدة . أضف إلى ذلك أن الحج إلى مكة ، وما يصحبه من الأعمال التجارية في قارتي آسيا وإفريقية كان ولا يزال من أهم العوامل التي ساعدت بصورة ملحوظة على نجاح هذه الوحدة .

يقول « أندرسون » : وقد أخذ أثر الشريعة الإسلامية في عصور متأخرة يجاوز ناحية العقيدة ويتسرب إلى الحياة العامة ، لأن الشريعة الإسلامية تنبّه إلى إيجاد طراز موحد من الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي كله . فقانون الزواج قد نجح في تحديد تعدد الزوجات ، كما أن قانون الزواج والميراث قد غير من نظام الأمومة وجعل الأبوة هي الأصل في الحياة القبلية . كذلك نظام الوصية قد نظم توزيع الثروة وقضى على قوانين الزواج من خارج القبيلة تلك القوانين التي أخذت تنمحي تماماً^(١) .

٤ - الدعاة والمعلمون

اهتم خلفاء المسلمين بنشر الإسلام في القارة الإفريقية ، إذ كان الدين غايتهم المنشودة من هذا الفتح الذي يقوم عن طريق الجهاد أو القتال في سبيل الله ، عن طريق الحجة والموعظة الحسنة مملا بقوله تعالى في سورة الحج (٢٢ : ٧٧) (وجاهدوا في الله حق جهاده هو أجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) ، بمعنى أن الوسائل التي يتخذها الفاتحون تصبح مشروعة طالما كانت

(١) Andereon, pp 275 - 276.

لوجه الله ونصرة الدين الحنيف . ولم يستعمل المسلمون في فتوحهم طريق الإكراه في نشر الدين نزولاً على قوله تعالى ، بل لقد كان قتالُ المسلمين للدفاع عن النفس ، إذ كانت قاعدة الجهاد أن يعرض المسلمون فكرة الدين على الناس عرضاً سَلَمِيّاً ، فإن أجابوا دخلوا الإسلام وكان لهم مآل المسلمين وعليهم ما عليهم ، وإن أبَوْا عرض المسلمون عليهم أداء الجزية مقابل تأمينهم على أنفسهم وحماية عقيدتهم وأولادهم وأموالهم ، فإن أبوا كان معنى ذلك أن هؤلاء المشركين أو الوثنيين يؤثرون إظهارَ السيف في وجه المسلمين . ومعنى ذلك بالتالي أنهم هم البادئون بالعدوان ، فكان على المجاهدين المسلمين أن يردُّوا العدوان تمثيلاً مع مبدأ الدفاع عن النفس الذي نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة البقرة (٢ : ١٩٤) (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . ومعنى هذا أن دعاية المسلمين لدينهم لم تكن عن طريق القهر والغلب ، وإنما كانت تتمشى مع المنطق الإسلامي القويم^(١) .

الدعوة الإسلامية دعوة روحية

من ذلك نرى أن الدعوة إلى الإسلام لم تكن على نمط الدعاية الحديثة التي تقوم غالباً على أن الغاية تبرر الوسيلة . فكانت الدعوة الإسلامية دعوة روحية بحتة . وفي ذلك يقول سير توماس أرنولد « إن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في القارة الإفريقية . . . » وكان الداعي المسلم يتعقب الفاتح ليكمل النقص في تحويل الناس إلى الإسلام ، والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحاً دنيوياً سهَّل إلى حد كبير جداً نجاح الإسلام في جهات كثيرة من هذه القارة ، كما سهَّل تأسيس دول إسلامية على

(١) راجع ما ذكرته في مجلة البينة ، العدد الأول (مايو ١٩٦٢ ص ١٠ — ٢١) .

أنقاض دول وثنية ، وحيثما شقَّ الإسلام طريقه ، نجد هناك الداعى المسلم حاملاً
الدليل لمقائد هذا الدين^(١) .

ويقول فورجى^(٢) : وقد زاد من تيسير جهود الداعى فى نشر الدعوة
أن الاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحي والأديان (Deism) وهو أساس الشعور
الدينى عند كثير من عبدة الأوثان ، يمكن أن يتحول فى سهولة ويسر ، إلى
عقيدة التوحيد عند المسلمين . وكذلك الحال فى بعض مظاهر أخرى فى فلسفتهم
الدينية ، وهكذا نجد أن نظرتهم العامة فى الحياة وكثيراً من شرائعهم الدينية ،
قابلة لأن تصطبغ بصبغة إسلامية ، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون
إجراء تغيير كبير .

والداعى المسلم يستطيع أن يُمدِّد القبائل الزنجية غير المتحضرة بكثير من
الحقائق المتعلقة بالله وبالبشر ، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن
يمنحهم ترخيصاً بالدخول فى وحدة اجتماعية سياسية ، ثمَّ يُلهم حق الحماية
والمساعدة فى البلاد الإسلامية التى تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى سور
الصين شرقاً . وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك داراً إسلامية ، يجد الإفريقى
الذى تحول إلى الإسلام ، يُردِّد أركان عقيدته ، واثقاً من المأوى والقوت
والنصيحة ، وسرعان ما يجد نفسه فى بلاده عضواً فى طبقة ذات نفوذ ، إن لم
يكن فى الطبقة السائدة^(٣) .

(١) The Preaching of Islam, 3 rd. ed. (London, 1935).

الترجمة العربية : الدعوة إلى الإسلام (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ س ٣٩١ — ٣٩٢) .

(٢) Forget, L' Islam et le Christianisme dans l' Afrique Central (Paris, 1900), p. 28 et seq.

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ،
ص ٣٣ — ٣٥ (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٧)

على أنه من الثابت أن عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوى لم يتمكنوا من نشر الإسلام لانشغالهما بالفتوح ومقاومة الوثنيين والروم . فلما تقلد حسان ابن النعمان ولاية بلاد المغرب حرص على نشر الدعوة الإسلامية ، ولكنه دُهم بالمقاومة الشديدة التي أعدها له الروم في شخص الكاهنة « داهية » التي خلفت كسيلة الذي قتله حسان . ولكن حسان كسر شوكة الروم الذين قويت عزيمتهم وانبعث فيهم الأمل في استرداد بلاد المغرب من أيدي المسلمين ، إذ قاتلهم حسان قتالاً مريراً وأنزل بهم الهزيمة ، ثم اتجه لمحاربة الكاهنة التي هزمت حسانا ، وقد أنهكت جنده الحروب مع الروم ، فانسحب إلى طرابلس وظل بها خمس سنوات ، ثم أمره الخليفة الأموي بالتوجه لمحاربة الداهية حيث أحل بها الهزيمة . وبذلك استطاع حسان أن يتفرغ لنشر الإسلام وتدوين الدواوين بالعربية . وكان حسان والياً محبوباً ، ساوى بين العرب والبربر ، وكادت تُفتح على يديه صفحة جديدة في تاريخ المغرب الإسلامي ، ولكن القدر عانده ، فخلع من منصبه ، وخلفه موسى بن نصير الذي أنتم فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ .

وكان فتح بلاد الأندلس فتحاً للإسلام في المغرب والأندلس معاً . ذلك أن معظم الجيش الذي فتح هذه البلاد كان من البربر بقيادة طارق بن زياد . وقد شعر المغاربة لأول مرة بمساواتهم بالعرب ، وبدأت شخصية المغرب الإسلامي تدخل في دورها الفعال ، إذ شعر البربر بعد فتحهم الأندلس أنهم أصبحوا حماة الإسلام في هذه البلاد ، وأن عليهم مهمة نشر هذا الدين ومناهضة المسيحيين . وقد حرص الخلفاء على اختيار طائفة من الفقهاء ليعلموا البربر فرائض الإسلام ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم . وأظهر بعض خلفاء المسلمين ، ولا سيما

الخليفة العادل عمر بن العزيز ، حماسة في إعلاء شأن الإسلام . فقد أرسل مع واليه على شمالى إفريقيا عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى المغرب^(١) .

ثم قامت دولة الأدارسة بدور هام في نشر الإسلام في ربوع المغرب . وكان لانتساب الأدارسة إلى الرسول الكريم أثر كبير في توحيد القبائل المتعادية وتأييد الأهالي على اختلاف ميولهم بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شملهم . واستطاع المولى إدريس لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعى ، أى بين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة . كما استطاع الأدارسة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة جهاد مقدس بقصد إتمام إسلام البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا اليهودية والنصرانية بين قبائل المغرب الأقصى . وجاوز نفوذهم منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التى تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان^(٢) .

ولما كانت ديار الملمثين قريبة من جبال درن (بفتح الدال والراء وسكون النون) انضمت تحت لواء الأدارسة وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، تخضع للحكومة المركزية في فاس . لذلك زاد تحول منهاج اللثام إلى الإسلام الذى بدأ في عهد عقبة وزاد في عهد الأدارسة ، وانتشر بين الملمثين في القرن الثالث الهجرى ، وكان إسلامهم ذا أثر بالغ في تاريخ المغرب والسودان ، فقد تمخض عن قيام حلف قوى ضم قبائل الملمثين جميعها بزعامة لمقونة . فلما تم هذا الحلف أخذت القبائل المتحالفة على عاتقها أن تعدّ العدة لتوسع

(١) حسن إبراهيم حسن ، مجلة البينة ، العدد الأول (مايو ١٩٦٢ ص ١٨) .

(٢) الجزائى : زهره الآسى في بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢ ، ص ٢٢) .

جديد : إما صوب الشمال باختراق نطاق الجبال والاغارة على سهول المغرب الأقصى ، أو بالتقدم صوب الجنوب .

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تُقدم القبائل على المفامرة فيها بسبب قوة الإدارة وحلفائهم من الزناتيين والمصامدة . فلم يبق أمام هذا الحلف إلا أن يتجه صوب الجنوب . ومما ساعد على هذا التوسع أنه كان يقصد الجهاد وابتغاء مرضاة الله ونشر الإسلام بين القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب . وكانت القبائل الملتزمة حديثة العهد بالإسلام قد أرادت أن تسهم في حركة الجهاد . ومما ساعد هذه القبائل على التوسع صوب الجنوب أن مملكة غانة الزنجية في ذلك الوقت قد أصابها الضعف والتفرق ، حتى استطاع أعداؤها أن يغيروا عليها في الجنوب ، في الوقت الذي أثنختهم سيوف الملتزمين في الشمال ، فانتصر هؤلاء الملتزمون ومضوا قُدماً في توسعهم حتى أصبحوا على مسيرة أيام من منحنى نهر النيجر ، فسكانت هذه الخطوة بالغة الأثر في تدفق سيل الإسلام إلى غربي القارة الإفريقية^(١) .

ولا يفوتنا أن نشير إلى ذلك الدور العظيم الذي قام به عبد الله بن ياسين فقيه ملتونة في سبيل نشر الإسلام في الصحراء وفي حوض السنغال : ولم تلبث أن تجمعت طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة (بضم الجيم) ومسوفة (بفتح الميم والفاء) وملتونة (بفتح اللام) ، بلفوا ، فيما قيل ، نحو ألف شخص قاموا بنشر الإسلام .

وقد اعتنق زعماء ملتونة وجدالة الإسلام على مذهب الإمام مالك ، واستطاع عبد الله بن ياسين أن ينشئ رباطاً في جزيرة عند مصب نهر السنغال ،

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية (القاهرة ١٩٥٧) ص ٥١ — ٥٢ .

وأن ينشر حركة الجهاد في سبيل الله ، وكان للجهاد في زعمه غرضان : أولهما فتح بلاد السودان وتحويل أهلها إلى الإسلام : وثانيهما ، نشر مذهب الإمام مالك بين شعوب إفريقية الشمالية^(١).

ومن كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة لطلابه قوله : (أخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ؛ فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلموا عما هم عليه ، نخلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيبتهم ولبجوا في طغيانهم ، استمعنا بالله عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا^(٢)).
وتعتبر هذه العبارة منهجاً أساسياً وضعه عبد الله بن ياسين لدعاة المرابطين من بعده .

مراكز الدعوة الإسلامية

ويحسن بنا في هذا المقام أن نشير إلى مراكز الدعوة الإسلامية التي كان يتخذها الدعاة أما كن تنبعث منها الدعوة إلى الإسلام ، نفعي بذلك المسجد والزاوية والرباط . وكان الدعاة يتخذون المسجد مكاناً للوعظ والارشاد ومنتدى الاستفسار عن كثير من المسائل الدينية وإيضاحها على أيدي هؤلاء الدعاة ، وقبل هذا وذاك ، فإن المسجد مكان العبادة وإقامة الشعائر الدينية التي كان يتعلمها الناس عملياً على أيدي الدعاة والمعلمين .

ومن معاهد العلم (الزاوية) ، وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوي ، بمعنى اتخذ ركنًا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبّد . وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء ، فأنشئوا لهم مساكن ملحقة

(١) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس الطرب ج ١ ص ١٤ — ١٦ .

بالمسجد ، كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة .
ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة
في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ، ويتعبدون
فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم
النقلية والعقلية . وتطلق الزاوية أيضاً على المعهد والرباط الذي تنشئه إحدى
الفرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسنوسية والشاذلية والخلوتية . وتنتشر الزوايا
في كثير من أرجاء المدن والقرى .

وتطلق كلمة زاوية في المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح
لأحد الأولياء ، تتصل بهما غالباً مقبرة يُدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة
أو قرابة بالولي . وكثيراً ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون
للعلم أو العبادة . وكانت الزاوية المغربية «مدرسة دينية وداراً لضيافة الأغراب» .

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) . انتشرت الزوايا
في المغرب ، وأنشئت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادئ العلوم ،
الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يُطَوِّروا هذه الكتاتيب إلى مدارس
وكليات ، ليُسهموا في الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها
من مدارس الزوايا في داخل المدن وفي خارجها ، وقد خصص ابن مرزوق التلمساني
المتوفى سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) الفصل الثاني والأربعين من رسالته عن أبي الحسن
المريني المسماه « المسند الصحيح الحسن » للسكلام على الزوايا التي شتدها هذا
الملك المغربي ^(١) .

وقد تطورت الزوايا بالمغرب في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر
الميلادي) حين اشتدت وطأة النصارى على المسلمين في الأندلس ، وامتدت

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمه ، العدد التاسع ، المجلد العاشر ص ٣٣٢ .

أطاعهم إلى احتلال السواحل المغربية . ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد ، أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي ، وبلغت أوج ازدهارها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، واستطاعت أن تجلس على العرش المغربي أسرة الشرفاء السعديين ، وأن تقف معهم جنباً إلى جنب في الجهاد ضد المسيحيين المحتلين . وقد وُقِّعت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية .

وقد تطورت الزوايا في المغرب في خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة (السادس عشر والسابع عشر للميلاد) ، حتى أصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها ، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعى الإصلاح من ذوي الأغراض الفاسدة والمُشَعَّوِّذين . على أن هنالك بعض الزوايا التي لم يَحْدُ أهلها عن سبيل الدين وأجمع الناس على صلاحهم واستقامة سلوكهم ، وظهرت نتائج أعمالهم ، كالدلائيين والفاسيين والناصريين .

ولم تكن هذه الزوايا الثلاث بمعزل بعضها عن البعض الآخر ، على الرغم من اختلاف مواقعها ، وإنما كان يجمع بينها التزاور في حل المشاكل الاجتماعية . ومن المقرر عند الأشياخ أن العلم إنما أحياء بالمغرب ثلاثة من الشيوخ هم : سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي ، وسيدي محمد بن ناصر في درعة ، وسيدي عبد القادر الفاسي^(١) . وإلى جانب هذه المراكز الدينية الهامة كانت زاوية العياشية ، وهي ربيعة الدلائيين ، تقوم بدور مماثل في منحدرات الأطلس المطلّة على أراضى تافيلالت ووحدات الصحراء ، ولا تزال محتفظة بمكتبتها التي تزخر بكثير من الكتب إلى اليوم .

(١) محمد بن أحمد الفاسي : المورد الهني ، مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ورقة ٢ ب .

الرباط

(١) في الشرق :

وأما الرباط فإنه لا يقل أهمية عن المسجد في كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام .

فقد كان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى معرضاً للخطر من ناحية البيزنطيين ، ولكي يحمي المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة ، أقاموا الحصون في بعض المدن الواقعة على تخوم دولتهم ، مثل طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الحصون - أو الثغور كما كانت تسمى - تقع طوراً في أيدي العرب ، وطوراً في أيدي الروم . وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ، ولا يستريحون إلا في أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل . ولذلك بُنيت « العواصم » وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وفي عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدولة الأموية أن تجد أعمالاً جديدة غير الفتح والغزو للرباطيين من جند العرب في الولايات الإسلامية حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال .

ولما استولى أبو جعفر المنصور العباسي على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى ، حصّن هذه المدن وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم الثغور . ولما ولي هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ أنشأ ولاية جديدة سماها « الثغور » ، وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً ، وأقام فيها المعقل ، وأمدّها بحاميات دائمة ، ومنح الجند بالإضافة إلى أرزاقهم أراضى قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم . فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة التي قامت بين

المسلمين والبيزنطيين . وقد سار أبناء الرشيد على نهجه في جهاد الروم . وكان من أبرز الحروب التي قامت بين ابنه المعتصم وبين الروم ، موقعة عمورية الشهيرة التي انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً يتمثل في قصيدة أبي تمام الشهيرة التي سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال في مطلع قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجئون إلى هذه الثغور لتفرغ للدرس والبحث ، كما كان يتوافد غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ويرابطون فيها ، وتكثر لديهم الصَّلَّات وتزد عليهم الأموال العظيمة ويحتفلون فيها بالأعياد ، حتى أصبح عيد الفطر والأضحى في هذه الثغور من محاسن الإسلام . وكان المسلمون — كما نعلم — يغزون بلاد الدولة البيزنطية صيفاً وشتاء . ولذلك سُميت هذه الغزوات : الصوائف والشواتي . وكان الخلفاء يهدون إلى ولاية عهدهم أو إلى قضاء قضائهم قيادة الصوائف والشواتي ، لأنهم كانوا يَعُدُّونها نوعاً من الجهاد في سبيل الله . فقد قاد يحيى بن أكثم جند المسلمين لحرب البيزنطيين في عهد الخليفة العباسي المأمون ، وقادهم أحمد بن أبي دؤاد في عهد الواثق ، وسار الأمويون في الأندلس على نهج الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضائهم قيادة الصوائف لحرب الروم نيابة عنهم . ومن هؤلاء القضاء منذر بن سعيد قاضي قضاء الأندلس الذي تولى قيادة الصوائف في عهد عبد الرحمن الناصر^(١) .

وقد أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، السفن الحربية في مصر (وهي الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع) ، وفي الإسكندرية

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٩٣ .

ودمياط . وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانئ الشامية مثل عكا .
وصور وعسقلان^(١) .

(ب) في المغرب :

وكان لفتح المرابطين في حوض السنغال في القرن الخامس الهجري
(الحادي عشر الميلادي) أثر كبير في نشر الإسلام حتى أصبحت بلاد المغرب
كلها ومنطقة الصحراء الكبرى بلداً إسلامية . وكانت القبائل الحاربة تدخل
في الإسلام في سهولة ويسر ، بشجعها على ذلك ما عرفه الإسلام من نظام الجهاد ،
ووجدت هذه القبائل الفرصة مهيأة لتفحدر نحو الجنوب وتفتح بلاد الوثنيين
وتختلط بهم ، وأدى ذلك إلى قيام ممالك قوية في بلاد السودان الغربي مثل
صنغاي ومالي واليوروبا وبرنو^(٢) .

وأغلب الظن أن محمداً المهدي بن تومرت قد سار على نهج عبد الله بن
ياسين في تأسيسه رابطة بمسقط رأسه هرغة (بفتح الهاء وسكون الراء وفتح
الغين المعجمة) ، كانت مقراً له ولتلاميذه ولأتباعه ، ومنها انبعشت الدعوة
المحمدية التي كان من أثرها أن تأسست الدولة الموحدية بالمغرب في القرن
السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

ولقد عرف المغرب الرباط قبل أن يعرف الزاوية ، ولعل عهدَه به يرجع
إلى زمن الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري . فرباط شاعر المعروف عند
الفرنجية بسيدى شكير (بضم الشين) على ضفة وادي نفيس جنوبي مراكش ، هو

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) ص ٣٠٣ .

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية (القاهرة

١٩٥٧) ص ٦ .

مدفن شاكر أحد أتباع الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري ، بناءً على (بفتح الياء) بن مصلين (بفتح الميم وسكون الصاد) أحد رجال رَجْرَاجَة (بفتح الراء) السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ، فأسلموا وعادوا إلى المغرب دعاءً للدين الحنيف . وكان شاكر يقاتل فيه كفار بورغواطه^(١) . وقد جدد المولى محمد بن عبد الله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ . (١٧٦٤ م)^(٢) .

ويمتاز الرباط بطابعه الحربي بالإضافة إلى وظائفه الدينية من العبادة ، وتلاوة القرآن ، والتفقه في الدين . وهو بذلك لا يختلف عن الرابطة إلا من حيث كونها تبتدىء حيث ينتهى ، فتجعل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم ، وتتهيء المرابطين فيها بعد ذلك للجهاد ، على ما نجده في رابطة عبد الله ابن ياسين الجزولي^(٣) . وقد اجتمع في هذه الرابطة نحو ألف من رجال صنهاجة كما تقدم ، فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولاً ، ثم أمور الجهاد في سبيل نشر الدين الحنيف . وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين . وكان عبد الله منقطعاً للعلم والجهاد في رباط شاكر ، ثم انتقل إلى أقصى الصحراء ليرشد قبائل صنهاجة ويفقههم في أمور الدين . ومات وهو يقاتل كفار بورغواطه سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ، وقبره معروف بكريفة على الطريق القاهية من الرباط إلى الرُّمَّانِي^(٤) .

(١) يوسف بن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف (نشرة مسيو فور ، الرباط سنة ١٩٥٨) ص ٢٦ .

(٢) انظر مجلة المغرب التي كان يصدرها محمد الصالح ميسة بالرباط ، المقال الافتتاحي عدد شهرى ربيع — جادى سنة ١٣٥٥ هـ (يونية — يولية ١٩٣٦) .

(٣) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع (الرباط ١٣٥٥ / ١٩٣٦) ج ٢ ص ١١ وما يليها حيث تجد ترجمة مطولة لعبد الله بن ياسين .

وقد ذكر ابن الزيات المتوفى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) في كتابه التشوف إلى معرفة التصوف ، أحد عشر رابطاً وتسع رابطات ، مع الإلمام ببعض أخبار روادها والمنقطعين إليها^(١) .

٥ - التجار

والإسلام ذو طابع صلى كما تقدم ، ويكفى أن يزور تاجر مسلم أوقفيه مسلم أحد بلاد القارة الإفريقية ، ثم يستقر به النوى ، فيعمد السكان الوثنيون إلى الاستعانة بالتعاون الإسلامي مع تعاويذهم الوثنية ، وزيارة شيوخ المسلمين بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين . والتاجر ، سواء أكان من العرب أم ممن أسلموا من أهالي هذه البلاد ، كان يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته . وحرقة التجارة من طبيعتها أن تصل التاجر بصلة وثيقة مباشرة بالمجتمع ، وبخاصة بأولئك الذين يتاح له أن يحولهم إلى الإسلام ، وينفى عنه كل ما عساه أن يشتم به من تهم تعرقل نشر الدعوة الإسلامية التي تنبعث من التاجر طواعية واختياراً لا تكلف فيها ولا تصنع على نحو ما يقوم به الدعاة . وإذا دخل التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلتفت إليه الأنظار بكثرة وضوئه الذي هو مظهر من مظاهر النظافة المحببة إلى النفوس البشرية . هذا إلى انتظامه في أوقات الصلاة والعبادة التي يؤديها بنظام ثابت وفي خشوع كأنه يخاطب كائناً خفياً ، وما يتحلى به من سمو عقل وخلق . كل أولئك الصفات الحميدة مما يستميل القلوب إليه ويفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين ، الذين يبدى لهم في نفس الوقت استعدادهم ورغبته في إمدادهم بمزايا هذا الدين الذي يتعبد على وفق أحكامه ، وعن منشئ هذا الدين الذي أوجد هذه الفضائل^(٢) .

(١) انظر مقال الذي نشرته مجلة البينة (الرباط ، المغرب) العدد التاسع فبراير ١٩٦٣ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة س ٣٩١ — ٣٩٢ .

حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية س ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٥ .

وقد ساعد إلغاء الرقيق وتيسير المواصلات في العصر الحديث على ترويج التجارة ، ومكن للتجار والدعاة المسلمين النشيطين أن يسيطروا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل ، وأن يجولوا في الأراضى المألوفة^(١) . وقد أخذ الإسلام ينتشر تدريجيا عن طريق التجارة عبر الاقاليم الصحراوية الكبرى وفي إقليم المراعى والشجيرات القصيرة جنوبي الصحراء ، وتطرق في بعض الجهات إلى ساحل المحيط الأطلسي وساحل غينيا^(٢) .

وكان للمغرب علاقات تجارية واسعة مع أهالى البلاد الواقعة جنوبي الصحراء بين المغرب وبلاد السودان . فقد قال الشريف الإدريسي^(٣) هذا كلامه على مملكة غانة : ومدينة ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتي عشرة مرحلة في رمال ودماس (قفار) لا ماء بها . وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو (يقصد نهر النيجر) . وهى أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا . وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى . وأهلها مسلمون ، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو يخطب لنفسه ، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي . وله قصر على ضفة النيل (يقصد به نهر النيجر أيضا) قد أوثق بُنيانه وأحكم إتقانه ، وزُيِّدت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج . وكان بنيان هذا القصر في عام عشر وخمسمائة من سنى الهجرة .

(١) سير توماس أرنولد : ترجمة ص ٣٩٣ ، ٣٩٩ — ٤٠٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٤٢ .

(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، فصوص من هذا الكتاب بعنوان : « المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٦ .

وقد ذكر الشريف الإدريسي أنه كان بنهر النيجر جزيرة تقع شرق مدينة غانة ، طولها ثلثمائة ميل وعرضها مائة ميل . ويحيط بها النهر في سائر السنة ، ويطلق الإدريسي على هذا النهر اسم النيل ، ولعله يظن أن نهر النيجر هو امتداد لنهر النيل . وبعد انتهاء موسم الفيضان في شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر ، يقصد أهالي هذه الجهات هذه الجزيرة بحثاً عن التبر ، « فيجد كل إنسان منهم في بحته هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر . وما يخيب منهم أحد . فإذا عاد النيل (أى النيجر) إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضاً ، واشترى أكثره وأرقلان (بفتح الألف مع الميمزة وسكون الراء وفتح اللقاف) وأهل المغرب الأقصى ، وأخرجوه إلى دور السكك (أى دور صك النقود) في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع . هكذا في كل سنة^(١) .

وقد ذكر الناصري السلاوي^(٢) نقلاً عن أبي العباس أحمد الشريشي صاحب كتاب شرح المقامات الحريرية أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سبخلماسة حاضرة بني مدرار ، ثم يسبرون في قوافلهم إلى غانة ، فيقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً ، فيبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر . ويحدثنا الشريشي أن التاجر المغربي كان إذا سافر إلى غانة بثلاثين حملاً ، رجع منها بثلاثة أحمال أو حقلين : واحد لركوبه وثمان للماء وذلك بسبب اختراقه المفازة . وكان التجار يقطعون هذه المفازة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا ما حمله على ظهور إبلهم . وقد أضاف الشريشي إلى ماتقدم أن أثمان أحمال الثلاثين حملاً يوضع فيها من التبر ما يملأ مزوداً واحداً ، وهذا يؤيد رأى الشريف الإدريسي في استخراج التبر واستعماله في هذا العصر .

(١) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٥ ص ٩٩ — ١٠٠ .

٦ — العنصرية ومبدأ المساواة

ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة والمعلمين والتجار المسلمين في إفريقية . ويرجع السبب في تحول كثير من أهالي هذه البلاد إلى الإسلام إلى أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الأولى ، التي يعترف فيها بالتحول إلى الإسلام بالعقيدة يسير على المبادئ القائمة على الإخاء والمساواة ومحاربة الطبقة ، وهي مبادئ يشترك فيها الإسلام مع المسيحية . غير أن هذا الداعي المسلم أسرع في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يعد مضطراً إلى المطالبة بدليل قوى على إخلاص المتنصر قبل أن يصافه مصافحة المسيحي الأبيض سيداً والوثني الأسود عبداً .

ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أن لون الزنبي وجنسه لم يحملأ بأية حال إخوانه في الإسلام على أن يتعصبوا عليه . وقد تقدم نجاح الإسلام في إفريقية الزنجية (Nigritia) تقدماً جوهرياً ، بسبب عدم وجود كل إحساس باحتقار الأسود الذي لم يعامل قط على أنه من طبقة منحطة ، كما هي الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي . وبينما نجد المبشرين المسيحيين لا يتزوجون من الزنجيات حتى لا يثيروا شعور أبناء جنسهم عليهم ، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية وينفذون في سهولة إلى الوثنيين ويحولونهم إلى الإسلام ويتزوجون من الزنجيات ، ويسيرون مع أهالي هذه البلاد على المبادئ القائمة على الإخاء والمساواة . لهذا لا نعجب إذا نظر الزوج إلى الإسلام على أنه دين السود وإلى المسيحية على أنها دين البيض ، ويرون أن المسيحية تدعو الزنبي إلى الإخلاص ، ولسكنها تضعه في مكان منحط بحيث أصبح يعتقد أنه ليس له نصيب في هذا الدين ^(١) . أما الإسلام فإنه يدعو الناس

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٩٩ .

إلى الخلاص ويكفل لهم الوصول إلى أسمى الدرجات . لقد قام الإسلام على أساس الحرية والإخاء والعدالة والمساواة والتسامح الديني . ومن أبرز مظاهر الإسلام أنه آخى بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، وجعلهم إخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق . نعم ! لقد حافظ الإسلام على الطبقات ، وحافظ على كرامة الفرد ، وقضى على العنصرية ، فسوى بين الناس على اختلاف أجناسهم : سوى بين الأبيض والأسود ، وبين الحاكم والمحكوم ، وبين الرجل والمرأة ، فلم يقم أى اعتبار للجنس ولاللون فى النظام الاجتماعى ولا فى إسناد مناصب الدولة وهى الخلافة ، ولم يجعل أى تفاضل بين مسلم ومسلم إلا بالتقوى . ولقد أثار عن الرسول أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا ولوولى عليكم عبد حبشى » .

ويتبين مدى ما يشعر به المسلم الإفريقى فى المجتمع الإسلامى وتعلقه بدينه واطمئنانه إليه من هذه العبارة التى ذكرها « موريل فى كتابه نيجيريا : أهلها ومشاكلها » ، عن أهل نيجيريا فقال : « إن الإسلام . . . لا يتطلب من وجهة نظر أهل نيجيريا أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شئ يصحب الدخول فى الإسلام ، ولا يستلزم تطوراً فى الحياة الاجتماعية . . . ولا هو يقوّض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة . وليست هناك هوة بين الداعى إلى الإسلام والمتحول إليه ، فكلاهما منساو أحدهما مع الآخر ، لا نظرياً ، بل عملياً ، أمام الله . وكلاهما إفريقى ، وهما من أبناء أرض واحدة . ومبدأ التآخى الإنسانى يُنفَّذُ تنفيذاً عملياً ، ولا يعنى الدخول فى الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه أو شئون أسرته وحياته الاجتماعية ، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين . . . وليس هناك مَنْ لا يعجب بسلوك المسلم النيجيرى ووقاره ، بل بسلوك مسلمى إفريقية عامة . وإن هيئة الرجل العامة لتُسمَّ عن شعور بالقومية

واعتراز بالجنس ، إنه ليخيل إليك أنه يقول : إن كلامنا يختلف عن الآخر
ولكننا جميعاً بشر . وإن انتشار الإسلام الذي نشهده اليوم في نيجيريا الجنوبية
ليؤثر بصفة خاصة تأثيراً اجتماعياً ، ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتحولون إليه
منزلة أرق وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط ويحرره من ربق
ألف من الأوهام الخرافية^(١) .

وقد ورد في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام كان أسمر اللون .
فقد جاء في سورة طه (٢٠ : ٢٢) : (واضم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من
غير سوء) . وجاء في سورة الأعراف (٧ : ١٠٨) : (ونزع يده فإذا هي
بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عظيم) . وإن شعور
المسلمين نحو السود ليتجلى من هذا الحديث الذي دار بين الخليفة المأمون
ومعه إبراهيم (بن المهدي أخى هارون الرشيد) الذي كان يطالب بالخلافة
في عهد المأمون العباسي حين كان يبرو حاضرة خراسان . فلما حضر المأمون
إلى بغداد فر إبراهيم ثم جرى به إلى المأمون فعفا عنه . ويقص علينا إبراهيم
قصة مقابله مع الخليفة فيقول : « قال لي المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عني :
أنت الخليفة الأسود ، فقلت : يا أمير المؤمنين أنا الذي مَنَنْتَ عليه بالعفو ، وقد
قال سُحَيْمٌ (بضم السين وفتح الحاء وسكون الياء) عبد بنى الحَسْحَاسِ (بفتح
الحاء وسكون السين) :

أشعار عبد بنى الحَسْحَاسِ قُنْ له عند الفَخَّارِ مقامُ العَيْنِ والورق^(٢)
إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا أَوْ أَسْوَدَ الْخَلْقِ إِنْ أَبْيَضَ الْخَلْقُ

(١) موريل . ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) بفتح الواو وكسر الواو : الفضة ، وقد أراد المال مطلقاً .

فقال لى : يا عم ! أخرجك الهزل من الجدد ، وأنشد يقول :

ليس يُزْرِى السوادُ بالرجلَ الشَّمْ م ولا بالفتى الأديبَ الأريبَ
إن يكنْ للسوادِ فيك نصيبٌ فببياض الأخلاق منك نصيبى^(١)

٧ - أثر الإسلام فى الزواج

كان لتحول الزواج إلى الإسلام أثر بعيد فى حياتهم الاجتماعية ، لأن الإسلام — كما ذكرنا — لا يقيم وزناً للون أو للجنس ، وإنما يقوم على مجتمع دينى يسوده الإخاء والمساواة والحضارة الإسلامية التى تفوق حضارة الزواج، تكفل لهم التخلّى عن كثير من عاداتهم وطبائعهم البربرية ، وتضمن لهم الترقى فى مضمار الحضارة عقلياً وخلقياً ومادياً . وتمثل الحضارة الإسلامية وأثرها فى الزواج فى هذه العبارة التى أوردها «بودورث سميت» ، أصدق وصف حيث يقول :

« إن أقبح الرذائل ، وهى أكل لحوم البشر ، وتقديم الإنسان قرباناً ، ووأد الأطفال أحياء — تلك الرذائل ، قد اختفت فجأة وإلى الأبد . والأهالى الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدءوا يرتدون الملابس ، بل أخذوا يتأنقون فى ملابسهم . والأهالى الذين لم يغتسلوا قط من قبل ، بدءوا يغتسلون ، بل إنهم يكثرّون من الاغتسال ، لأن الشريعة الإسلامية تأمر بالطهارة . . . ويميل النظام القبلى إلى فسح المجال لأساس أوسع نطاقاً ، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها فى بعض لتصير أمماً ، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم إمبراطوريات . ونستطيع أن نورد كثيراً من أمثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له فى خلال المائة (والخمسين) سنة الأخيرة .

(١) ابن خلدون : وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨) ج ١ ص ٢١ — ٢٢ .

ومتى أثير الروح الحربى على هذا النحو ، تكون الحرب أحسن تفضيلاً ،
وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الأسباب . وقد قلّ السلب ، كما زاد تأمين
الناس على أملاكهم وأرواحهم . وقد أنشئت مدارس أولية لو اقتضت على
تلاوة القرآن لكانت ذات قيمة فى نفسها ، وقد تكون خطوة فى سبيل ما هو
أعظم منها بكثير . وأصبح المسجد الجيد البناء النظيف ، بما فيه من أذان للصلاة
خمس مرات فى اليوم ، وقبلة تقبجه إلى مكة ، وإمام وصلاة جمعة ، مركزاً للقرية
بدلاً من دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع .

وقد قهرت عبادة الله الواحد القهار ، الكائن فى كل مكان ، العليم ،
الرحيم ، كل ما لقن الأهالى عبادته من قبل ، قهراً لا حذله . وظهرت صناعات
وتجارة ، لا كالتجارة العصامية التى تقوم الاشارات فيها مقام اللغة فى التفاهم ،
ولا كالمبادلة البدائية فى الخلمات ، تلك المبادلة التى نعرف من هيرودوت أنها
وجدت فى إفريقية منذ أقدم العصور ، ولا كالمقايضة بالودع أو البارود أو الطباق
أو الخمر ، تلك المقايضة التى لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية
فى التبادل ، ولكنها صناعات تنطوى على مهارة فائقة وتجارة منظمة نظاماً
محكم . وظهرت هذه المدن الكبيرة فى أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة
والتجارة وتأثير الحكومات الأكثر استقراراً التى جاء بها الاسلام . وهى مدن ،
نجد أن الرحالين الأوربيين حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا
بمجرد وجودها ... أما فيما يتعلق بالفرد ، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الاسلام
يعد السود الذين تحولوا إليه بالنشاط والعزة ، والاعتماد على النفس واحترام الذات ،
وهذه كلها صفات يندر جداً أن نجدها فى مواطنهم الوثنيين أو المسيحيين^(١) .

Bosworsh Smith (The Nineteenth Century, December, (١)
1887), pp. 798—800.

راجع ما كتبه سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ، ص ٣٩٣ وما يليها .

بيد أن طابع الحضارة الإسلامية لم يفتقر عن التأثير في العقلية الزنجية بعد تقسيم الجزء الأكبر من القارة الأفريقية بين إنجلترا وفرنسا (وألمانيا من قبل) . ونلاحظ أن أكثر المتعلمين في هذه البلاد من المسلمين الذين كانوا يشغلون الوظائف الثانوية في الإدارة المدنية وفي مدارس الحكومة ، وينتظرون في سلك الجندي . وقد ساعد إلغاء تجارة الرقيق وتيسير المواصلات على ترويج التجارة ، ومكن للتجارة والهداة المسلمين النشيطين أن ييسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل ، وأن يجولوا في الأراضي المألوفة^(١) .

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .
(م ٦ — انتشار الإسلام)

الباب الثالث

تاريخ انتشار الإسلام والعروبة

في غربي إفريقيا

١ - مقارنة بين شرقي القارة الإفريقية وغربيها :

بعد أن عرضنا للطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقيا والوسائل المختلفة التي انتشر عن طريقها ، نرى أن نعرض لتاريخ الدول الإسلامية والإمارات التي قامت في شرقي هذه القارة وغربيها . ولكي تستقر في الأذهان صورة واضحة لهذا التاريخ ، ينبغي أولاً أن نعقد مقارنة بين الإسلام في شرقي هذه القارة وغربيها .

نبع الإسلام من شبه الجزيرة العربية ، وانتشر في مصر وشمال إفريقيا يبتلع الكنائس المسيحية أو يحيط بها . وقد حمل التجار العرب الإسلام إلى الساحل الشرقي من القارة الإفريقية حيث امتدت جذوره هناك . ولكن مد الإسلام أعقبه جزر . أما الكنيسة المسيحية فقد قاومت الإسلام معتصمة بالمرتفعات الداخلية ، وظلت على ذلك عدة قرون . كما أن الكنيسة القبطية في مصر بقيت على هذا النحو رغم دخول أغلب المصريين في الإسلام .

وفي إقليم دنقلة كان للكنيسة المسيحية سلطان على شعبها ، فوقف في وجه الإسلام حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي حين قضى عليها تماماً . وقد تقدم المهاجرون العرب نحو وادي النيل بحثاً عن موارد الرزق وأصهروا إلى الزواج

والحاميين من أهل البلاد ، وبذلك أصبح الإسلام العامل الثقافى البارز فى شمالى السودان .

أما فى غربى إفريقيا فقد أخذ الإسلام ينتشر تدريجياً عبر الأقاليم الصحراوية الجنوبية حتى بلغ ساحل إفريقيا الغربى عن طريق التجارة . وقد انتشر الإسلام من ساحل البحر الأبيض المتوسط فى شمالى إفريقيا نحو الصحراء الكبرى ، وفى إقليم المراهى والشجيرات القصيرة جنوبى الصحراء ، وتطرق فى بعض الجهات إلى ساحل المحيط الأطلسى وساحل غينيا . على أن بعض القبائل المشتغلة بالزراعة هناك قد قاومت الإسلام - كما يقول كارپنتر - هناك وفضلت المسيحية فى ذلك الوقت . أما فى الشرق فإن شعب الأزندى (بفتح الزاى وسكون النون) أو الزّندى (Azande) وشعوب جنوبى السودان قد رحبت بالمسيحية^(١) .

على أن خضوع معظم القارة الإفريقية للنفوذ الأوروبى خلال القرن التاسع عشر قد شد أزر الإسلام وأدى إلى انتشاره فى كثير من الجهات . ففى غربى إفريقيا وجد الفرنسيون والبريطانيون إمارات إسلامية رضى أصحابها بالحماية الغربية التى ضمنّت احتفاظهم بالحكم الذاتى . وقد زاد نفوذ الإسلام السيامى والدينى فى نظر القبائل الوثنية المجاورة ، وفى نظر شعوبهم ، حتى انتشر هذا الدين انتشاراً سريعاً . ويقول « كارپنتر » إن سوء الإدارة التركية فى مصر أوقع شرقى السودان تحت رحمة تجار الرقيق الأقوياء الذين أصبحوا فى الحقيقة أمراء مستقلين^(٢) . ويقول « ترمينجهام » : « لقد أصبح النشاط الاقتصادى والاجتماعى لكل من مصر والسودان يتوقف على تجارة الرقيق ، وأصبح الحكم المصرى فى عهد محمد على يهدف إلى هذا الغرض »^(٣) .

(١) Carpenter, Africa To - Day, pp. 91 - 92.

(٢) Ibid, p. 93.

(٣) Islam in the Sudan, p. 93.

ومن الواضح أن هذا القول يتضمن كثيراً من المبالغة . وفى سنة ١٢٨١ م أخذ محمد أحمد المهدي فى السودان يدعو إلى إقامة عالم جديد ، فأعلن الثورة على نظام الحكم السودانى ، واستطاع أن يسيطر على شرق السودان كله فى سنة ١٨٨٣ .

وقد أرسلت الحكومة البريطانية التى كانت تسيطر على مصر فى ذلك الوقت الجنرال غوردون لإقامة حكم جديد فى السودان . على أن الخراطوم لم تلبث أن حوصرت وقتل هذا القائد البريطانى فى يناير سنة ١٨٨٥ ، وبدأ المهدي ينظم إمبراطوريته ، ولكنه مات فى شهر يونية من تلك السنة . ولم يستطع عبد الله التعايشى خليفة المهدي أن يوحد صفوف أنصاره ، فلبأ إلى وسائل العنف ، وعادت بريطانيا إلى احتلال السودان بين سنتي ١٨٩٦ ، ١٨٩٨ ، وأقيم نظام الحكم الثنائى الذى كان لبريطانيا فيه أوفر نصيب ، وكان للروابط السياسية والدينية بين مصر والسودان أثر كبير فى دعم الثقافة الإسلامية فى السودان . ولكن المهديّة كانت لا تزال حتى ذلك اليوم عاملاً مهماً فى هذه البلاد . فقد حاولت هذه الحركة أن تمت نفوذها حتى شمالى نيجيريا وكسبت فى غربى إفريقيا أنصاراً عن طريق دعوة الحجاج أثناء مرورهم بالسودان إلى الدخول فى دعوتها^(١)

وفى شرق إفريقيا جاء الإسلام بظاهرة جديدة ، هى أنه جلب معه عدداً كبيراً من مسلمي جنوبى آسيا ، وكلهم أو أغلبهم من الهند (والباكستان) . ولا زالت هذه الجالية الأسيوية التى يتكون أكتها من طبقة التجار تؤلف عنصراً جنسياً وثقافياً مستقلاً . غير أنهم أخذوا فى السنين الأخيرة يؤثرون فى الشعوب الإفريقية فى النواحي السياسية أكثر من تأثيرهم فى النواحي الدينية .

وتختلف جهود الدعاة المسلمين الإفريقيين فى كل مكان من حيث النجاح

Theobald, The Mahdiya, p. 29 seq. (١)

الضئيل والتوفيق الشامل . ومن هؤلاء الدعاة والفقهاء والمعلمون ، ومنهم المشتغلون بالتجارة وبخاصة بين شعوب الحوصا في شمالي نيجيريا . ومن الغريب أن نجد أن الإسلام في غربي إفريقيا ينتشر على الأخص حول الطرق الرئيسية التي تخترق البلاد ، وأن الحركة المهدية يطرد نجاحها لما تبشر به من ظهور المسيح الذي يطرد المسيحيين ، كما نجد أن انتشار اللغة يساعد على انتشار الإسلام^(١)

وهناك مظاهر أخرى لتباين الأوضاع في شرقي إفريقيا وغربها : فالوثرات الإسلامية في الشرق تتركز حول المجرات : في زنزار ومدن كينيا الساحلية وتنجانيقا ، كما تتركز في التأثيرات الهندية في أمحاء متفرقة من أوغندا ، وفي شعب السواحلية وفي اللغة السواحلية التي تمثل اختلاط المهاجرين العرب بدماء البنتو (بفتح الباء وسكون النون وضم التاء) الحاليين ولغاتهم . وعلى العكس من ذلك نرى في غربي إفريقيا أن شعوبها مهما كان أصلها فهم مستوطنون لهذه الجهات مثل الفُسلاني (بضم الفاء) والماندنجو (بسكون النون وكسر الدال) والحوصا وهم روح التأثيرات الإسلامية ، على حين نجد المهاجرين من شمالي إفريقيا وسورية ولبنان والهند يقومون الآن بدور ثانوي^(٢) :

والإسلام في شرقي إفريقيا جاء أصلا من بلاد العرب ، وذلك في عهد العباسيين أو في عهد منافسيهم من العرب . وتتمثل فيه الآن على نطاق محدود كل المذاهب الإسلامية السنية ، كذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة ، وفيه مذهب الشيعة بفرقها من اثنا عشرية وإسماعيلية ونزارية ومستعلية ، وفيه مذهب الزيدية ، وفيه

(١) Carpenter, Africa To - Day, pp. 93—94.

(٢) يذكر جرينبرج [Greenberg, The Influence of Islam on a Sudanese Religion, p. 10.

أن الامتزاج قد تم في بلاد الحوصا بين الإسلام والعقائد المحلية ، ليس عن طريق الاختلاط بين الشعوب فحسب ، وإنما حين عمدت الطبقة المتعلمة إلى الأخذ بما وجدوه في الكتب المحلية المطبوعة التي وجدوها . أنظر Anderson, p. 261.

الإباضية من الخوارج ، وفيه الوهابية ، والأحمدية وأشياعهم ، وإن كان المذهب الشافعي قد فشا إلى حد بعيد بين السكان الأصليين ، وهم يتطلعون إلى الشرقيين الأدنى والأوسط باعتبارها مركزين للإمامة الروحية ، ويشكلمون العربية أو السواحلية^(١) .

أما الإسلام في الغرب فإنه على العكس قد تسرب من المغرب الأقصى في عهد الأدارسة والراشدين ومن بلاد المغرب بصفة عامة ، وكلهم مالمكيون سنيون ، وعلى يد القادرية والتجانية منهم . وهم نادراً ما يتطلعون إلى خارج حدود بلادهم التماساً للزعامة الروحية ، لأن كلا من سلطان سكتو (بضم السين والكاف) والشيهو (Shehu) في برنو (بضم الباء وسكون الراء) يعتبران أئمة المجتمع الإسلامي . وهم في الأقاليم الأخرى من غربي إفريقيا يتطلعون إلى مراكز التعليم في المستعمرات الفرنسية (سابقاً) أكثر من تطلعهم إلى مراكزها في الشرق الأدنى . ويندر التحدث بالعربية بينهم ، وإن كان بعض المفردات العربية قد تسرب إلى لغات غربي إفريقية .

وفي الشرق أيضاً نجد أن الحاكم المسلم الوحيد الذي يطبق الشريعة الإسلامية هو سلطان زنبار ، وإن كان خلفاؤه قد أصدروا سلسلة من المراسيم التي تحول دون تطبيق الشريعة تطبيقاً متطرفاً ، على حين نجد في الغرب الإمارات الإسلامية في شمالي إفريقية متطرفة في مقاومتها للحضارة الغربية . وبرغم هذا نجد تشابهاً ملحوظاً بين تطبيق المذهبين الشافعي والمالكي في محاكم

(١) Anderson, pp. 231 - 232.

(١) سمووا بذلك لاتخاذهم اللثام غطاءً لوجوههم .

كينيا وفي ساحل الذهب (غانة) . ويتمثل هذا التشابه في معالجة المشاكل الناجمة عن انتحال الوثنيين الإسلام .

٢ — انتشار الإسلام والعروبة في المغرب الأقصى وامداده إلى مصر
السنغال والنيجر :

بعد أن أتم العرب فتح مصر وصلوا إلى برقة وطرابلس ، ثم تدفقوا إلى إفريقية بقصد الاستيلاء عليها . ولم تتوطد أقدامهم فيها إلا بعد بناء عقبة ابن نافع مدينة القيروان واتخاذها قاعدة حربية تتجمع فيها قوات العرب وتتدفق منها إلى غيرها من الجهات . لكن عقبة لم يستطع إتمام فتح إفريقية كما تقدم ، لأن قبائل البرانس كانت تتمحرن في الجبال وتتخذها معاقل تحميهم من غارات العرب . وعلى الرغم من أن أبا المهاجر دينار عامل هذه البلاد من قبل الأمويين أوغل بمجيوش أهل الشام ومصر حتى بلغ قرطاجنة وهاذن البربر ، لم يستطع أن يقاوم الروم . غير أن سياسته قد تكللت بالنجاح ، فانتشر الإسلام بين قبائل صنهاجة (بفتح الصاد) ، واشترك بعضها في الجيش الذي وجهه أبو المهاجر لفتح الجزائر حيث بلغ تلمسان (بكسر التاء واللام) قاعدة المغرب الأوسط .

فلما آلت قيادة حملة المغرب إلى عقبة بن نافع للمرة الثانية قضى على مقاومة البرانس في المغرب الأوسط ، وتدفع بقواته إلى المغرب الأقصى ، فكان أول فاتح عربي تطأ قدمه هذه البلاد . ثم توغل في إقليم الساحل حتى بلغ طنجة ، وبدأت صنهاجة المغرب الأقصى تدخل في الإسلام وتتصل بالفاتحين ، وتكملت جهوده في نشر الإسلام في إقليم الريف بالنجاح .

ثم اتجه عقبة إلى إقليم السوس الأدنى وانتصر على قبيلة المصامدة ، ومضى

قدما حتى بلغ مدينة مامسة (بفتح الميم الثانية وفتح السين مع التشديد) ببلاد السوس الأقصى ، وغزا مدينة نفيس (بفتح النون) القريبة من أغمات . وتذهب بعض الروايات إلى أن عقبة بلغ مدينة نول على ساحل المحيط الأطلسي في أقصى بلاد المغرب . وكانت بعض قبائل الملثمين تنزل هذه البلاد ، فقاومت عقبة أول الأمر دفاعاً عن كيائها ، ولكنه هزم مسوفة ، وأخضع الملثمين لسلطان الإسلام ، وبني في مدينة مامسة مسجداً ترك فيه من يعلم الناس مبادئ الإسلام . ولكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أبعد من هذا ، فيذكرون أن عقبة أوغل في بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة^(١) ، وأنه كانت بهذه البلاد جالية إسلامية في سنة ٦٠ هـ ، كما يذكرون أنه بني بها عدداً من المساجد .

وإذا علمنا أن غانة تقع عند منحنى نهر النيجر في المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال ، أدركنا كيف غلا المؤرخون في تقدير حملة عقبة في بلاد السودان ، إذ لم يكن من المعقول أن يدرك عقبة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان ومصعب السنغال مع وعورة المسالك ومشقة الطريق . ونستطيع أن نقبل هذه الرواية بشيء من التحفظ إذا عرفنا أن ديار الزنوج كانت أكثر امتداداً نحو الشمال ، وأن قبائل الملثمين لم تسكن قد أوغلت في ساحل المحيط . فليس بعيداً أن تكون مملكة غانة الزنجية قد مدت نفوذها شمالاً حتى وادي نون ، فيكون عقبة حين غزا وادي نون قد أدرك الحدود الشمالية لمملكة السودان^(٢) . وبذلك يكون عقبة أول من حمل أهل اللثام على الإسلام ، وأول من ارتاد هذه الديار النائية من العرب ، وأول من فتح هذا الطريق أمام التجار الذين أخذوا يتدفقون إلى هذه البلاد ويحترقون الصحراء إلى « أودغشت »

(١) De la Chapelle, Hésperis (1930), tome xi, p, 24.

(٢) Basset, Mission en senegal, p. 446.

على حافة السودان الشمالية ، وكانوا يقومون بحملات مسلحة لجلب الرقيق إلى المغرب الأقصى .

ولكن عقبة قتل أثناء عودته وكادت تضيق الجهود التي بذلها ، وارتدت قبائل البربر وزحفن إلى الشرق ، ودخلت القيروان حتى استطاع حسان ابن النعمان أن يهزم قوات البربر ، وأن يعيد إفريقية إلى حظيرة الإسلام . ولم يستطع العرب أن يوغلوا في المغرب الأقصى مرة أخرى ، إلا بعد أن استطاع زهير بن قيس البلوي أن يهزم كسيلة زعيم البربر وأن يتمقبه حتى منطقة طنجة ويقتله . وبعد أن قضى الأمويون على فتنة عبد الله بن الزبير ، واستقامت لهم الأحوال ، استؤنفت الفتوح الإسلامية على يد موسى بن نصير الذي ترسم خطا عقبة وأتم الرسالة التي كان قد بدأها ، وقاد جحافل المسلمين إلى المغرب الأقصى ، وسلك نفس الطريق الذي سلكه عقبة حتى أدرك طنجة ، ثم انحدر إلى سبتة (بفتح السين وسكون الباء وفتح التاء) ، ومنها اتجه نحو إقليم السوس الأدنى ، ثم انحدر على ساحل المحيط الأطلسي كما فعل عقبة من قبل ، حتى بلغ وادي دَرْعَا (بفتح الدال وسكون الراء) . على المحيط الأطلسي وأخضع القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد مقتل عقبة .

ولكن موسى كان أبعد نظرا من عقبة ، فلم يكن قائدا فحسب بل كان مصلحا وسياسيا أيضا ؛ فقد قرب البربر إليه وحببهم في الحكومة الإسلامية ، فولاهم الأعمال ، وأشركهم مع العرب في إدارة البلاد^(١) . وقد وجد البربر أن انضمامهم إلى العرب يُتيح لهم مزايا مادية كثيرة ، فأقبلوا على الإسلام إقبالا عظيما . وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنبا إلى جنب ، إذ أخذ موسى يفتقه

١ (١) ابن عذاري : البيان المغرب (طبعة ليدن) ج ١ ص ٢٧ .

الناس في الدين وينشئ المساجد في البلاد التي فتحها ، وأتيح للبربر أن يجنوا ثمار الثقافة الإسلامية بعد قليل .

وقد نجحت سياسة موسى نجاحا بعيد المدى ، فانقاد له المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله ، فشاركوه في فتح الأندلس ، وأخذت جماعات البربر تتدفق إليها طمعاً في الغنم أوحباً في الجهاد . ومن ذلك الوقت نستطيع أن نقول إن الإسلام قد توطدت أركانه في بلاد المغرب الأقصى ، وإنه بسط ظله على السكان ، وأن التحالف قد تم بين العرب والبربر . وكانت هذه خطوة هامة في سبيل تدفق الإسلام إلى غربي إفريقيا .

وقد اتصل موسى بقبائل الملثمين التي كانت تنتشر في إقليم الصحراء الكبرى حتى حدود السودان الشمالية ودعاهم إلى الإسلام مرة أخرى ، فأقبلوا عليه ودخلوا فيه ، وبنى المساجد في مدينة أغمات التي أصبحت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى .

وقد تابع خلفاء موسى السياسية الرشيدة التي اتبعها هؤلاء الذين قاموا بالدعوة إلى الإسلام بين البربر . فإن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القي ولي إفريقيا من قبل عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام في المغرب الأقصى ، ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم كما يذكر ابن عبد الحكيم^(١) وقد أمد عمر ابن أبي المهاجر بطائفة من التابعين انتشروا في البلاد يحثون الناس على دخول الإسلام ويبصرونهم بشئون دينهم ، ويقيمون الحدود ويحرمون الخمر ويحاربون المفاسد .

ثم انبعثت الثورة بمدينة طنجة ، وأذكى الخوارج ناراها وحملوا لواء المقاومة وحببوا القبائل في عقائدهم . وهذا يدل على أن المغرب الأقصى أخذت تشارك

(١) فتوح مصر وإفريقية ص ١٠٦ .

الشعوب الإسلامية الأخرى التي انقسمت إلى أحزاب سياسية ودينية ، ففشنت مذاهب الخوارج الصُّفْرية أتباع زياد بن الأصفر التي تنادى بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب ، بل هي للمسلمين على حد سواء ، حتى أن جمهور الثوار بايعوا سقاء يدعى ميسرة بالخلافة بمدينة طنجة^(١) . وقد عمت الثورة بلاد المغرب الأقصى كله واشترك فيها المثلثون وجاوزت أطراف الصحراء . وعلى الرغم من أن العرب استطاعوا أن يقمعوا هذه الثورة ، يمكننا أن نقول إنها تمخضت عن وضوح شخصية المغرب الأقصى وأذنت باختفاء نفوذ العرب ، إذ أخذ البربر المسلمون يعتمدون على أنفسهم في حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وقامت فيه دويلات مستقلة بسط كل منها نفوذه على منطقة بعينها وأخذت تقرر السكينة في ربوعها .

ومع أن ولاية القيروان فقدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى ، ظلوا يهتمون بشئونهم ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات التي تربطه بإفريقية . فقد عمل عبد الرحمن بن حبيب الفهري^(٢) (١٢٧ — ١٣٢ هـ) على حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة أودغشت بصحراء المغرب الأقصى ، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء وأن ينشروا الإسلام بين القبائل الضاربة فيها ، كما استطاع التجار أن يتصلوا ببلاد المثلثين وبلاد السودان عن طريقين :

طريق ساحل المحيط أو طريق الصحراء الذي أصلحه عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وأصبحت القوافل أكثر استعداداً لارتياح الطريق إلى غربي إفريقية . وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة ، إذ أدت إلى تطرق الإسلام

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) وكان حفيد عقبة بن نافع .

إلى غربي إفريقيا عن طريق آخر غير الطرق التي كانت مألوفة من قبل . وقد استطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يقر الأمن والسكينة في بلاد المغرب ، فانتشر السلام في ربوعه ، وبدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر برغم ما انتاب العالم الاسلامي من فتن بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

وفي الوقت الذي تفرقت الخلافة العباسية في الشرق واستقل بعض الدول عن نفوذ الخليفة العباسي في بغداد ، استطاعت دولتان أن تقسما النفوذ السياسي في بلاد المغرب ، فاستقل الأغلبية بالقسم الشرقي من هذه البلاد ، واستقل الأدارسة بإقليم المغرب الأقصى .

وقد قامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى بتوحيد البلاد تحت لواء أمرائها من العلويين وإقرار السلام في ربوعه بعد أن كانت فتن الخوارج تمزق شمله . وكان لانتساب الأدارسة إلى سبط الرسول أثر كبير في توحيد القبائل المتنافرة ، فظفروا بتأييد الأهالي على اختلاف ميولهم ، واستطاع إدريس لأول مرة أن يوحد بين إقليم السهول الساحلية (المغرب الأقصى) وإقليم المراعي ، أي بين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة . فاطمأن أهل السهول واطمأن البدو ، وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل . كما استطاع الأدارسة بفضل هذه الوحدة أن يوجهوا أنظارهم إلى حركة جهاد مقدس بقصد إتمام نشر الإسلام في البلاد ومحاربة العقائد الشاذة والقضاء على بقايا النصرانية واليهودية بين قبائل المغرب الأقصى . وقد جاوز نفوذ الأدارسة منطقة المغرب الأقصى إلى الصحراء الكبرى التي تفصل بلاد المغرب عن إقليم السودان ^(١) . وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ الثقافة العربية في المغرب الأقصى وغربي إفريقيا . فقد أصبحت هذه

(١) انظر الجزنائي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢) ص ٢٢ .

المدينة مثابة للعالم يقصدها العلماء والتجار من كل حذب وصوب ، وأخذت معاهدها تتأثر بالمؤثرات الثقافية من معاهد القيروان والأندلس وتشيعها في البلاد . وإلى هذه المعاهد يرجع الفضل في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية في هذه البلاد^(١) ، وقد بلغت هذه الثقافة العربية التي كانت تشع من مدينة فاس ديار المثلثين ، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريباً ، وتخطى نفوذهم جبال درن (بفتح الدال والراء) (أو الأطلس الكبير) ، وانتشر في إقليم الواحات ، ولا سيما في عهد عبد الله بن إدريس (١٢٣٤ هـ) .

ولما كانت ديار المثلثين قريبة من جبال درن ، انضمت تحت لواء الأدارسة وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، يولون عليها الولاية ويخضعونها للحكومة المركزية في فاس . لذلك زاد تحول صنهاجة اللثام إلى الإسلام الذي بدأ في عهد عقبة وزاد في عهد الأدارسة ، وانتشر بين المثلثين في القرن الثالث الهجري . وكان إسلامهم ذا أثر بالغ في تاريخ المغرب والسودان . فقد تمخض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل المثلثين جميعها بزعامة لمقونة . فلما تم هذا التحالف أخذت القبائل المتحالفة على عاتقها أن تعد العدة لتوسع جديد ، إما صوب الشمال باختراق نطاق الجبال والإغارة على سهول المغرب الأقصى أو بالتقدم صوب الجنوب .

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها ، بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من الزناتيين والمصامدة . فلم يبق أمام هذا الحلف إلا أن يتجه صوب الجنوب . ومما ساعد على هذا التوسع أنه كانت بقصد الجهاد ابتغاء مرضاة الله ونشر الإسلام بين القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب . وكانت القبائل المثلثة حديثة العهد بالإسلام قد أرادت أن تسهم في حركة الجهاد^(٢) .

(١) ابن زيدان : إتحاف أعلام الناس بحمال حاضرة مكناس (الرباط ١٩٢٩) في

خمس أجزاء ج ٢ ص ٦ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين (القاهرة ١٩٥٧) ص ٧٠ .

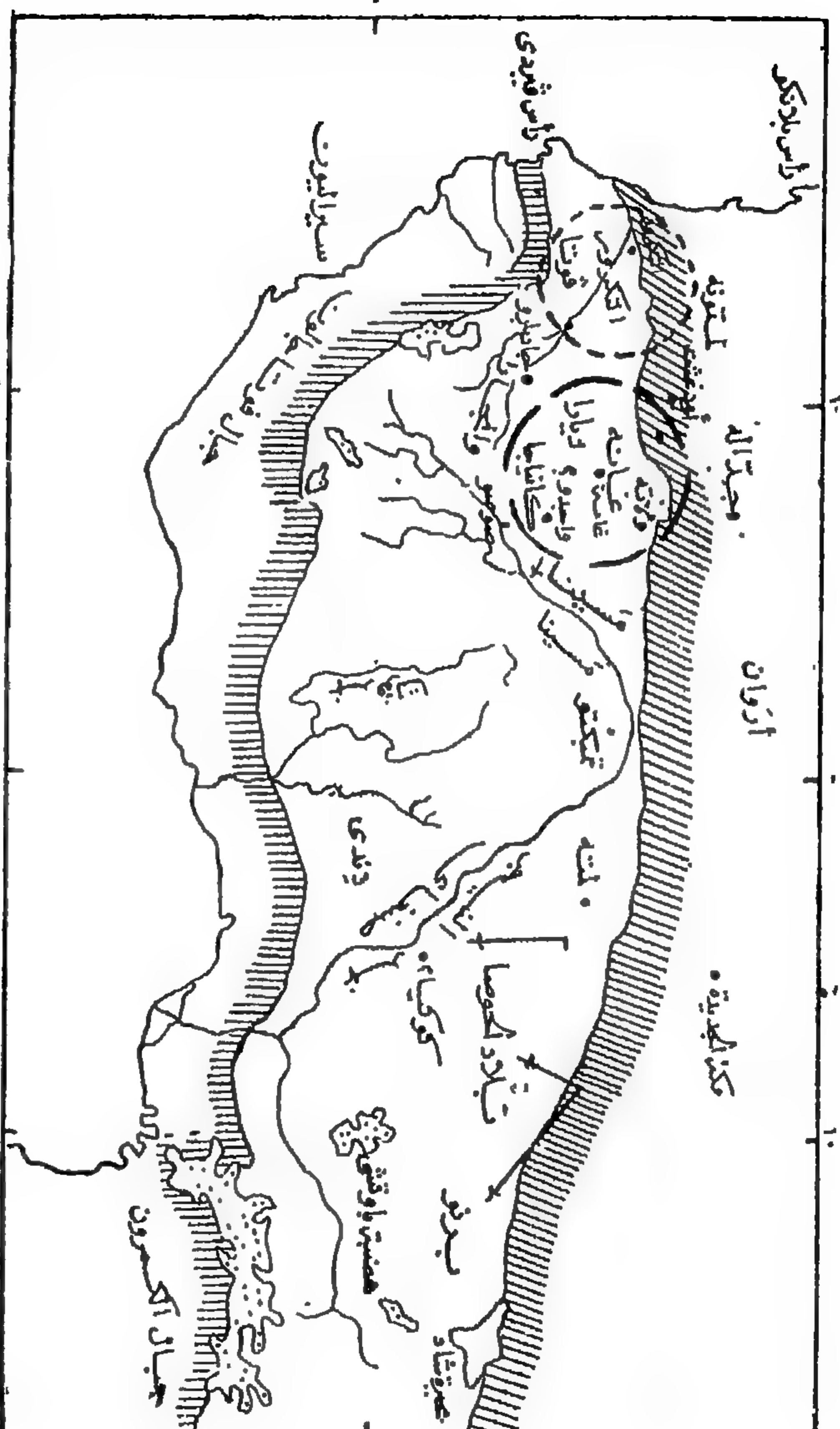
ومما ساعد هذه القبائل على التوسع صوب الجنوب أن مملكة غانة الزنجية في ذلك الوقت قد أصابها الضعف والتفرق ، واستطاع أعداؤها أن يغيروا عليها في الجنوب في الوقت الذي أثنى عليهم سيوف الملتهمين في الشمال ، فانتصر هؤلاء الملتهمون ومضوا قدما في توسعهم حتى أصبحوا على مسيرة أيام من منحنى النيجر ، فكانت هذه الخطوة بالغة الأثر في تدفق سيل الإسلام إلى غربي إفريقية .

٣ — الدول الإسلامية التي قامت في غربي إفريقية :

مملكة غانة

إن تاريخ غربي إفريقية شمالي نطاق الغابات هو تاريخ إمبراطوريات تعاقبت بين القرنين الرابع والتاسع عشر الميلاديين . هذه الإمبراطوريات هي عبارة عن قبائل غازية جاءت من الشمال أو شعوب زنجية أو شبه زنجية أخذت عن هذه القبائل أسلحتها ونظمها الحربية عن طريق اتصال مستمر خلال الطرق الصحراوية . فإلى الغرب من أنحناء نهر النيجر جاءت التأثيرات البيضاء التي ساعدت على قيام هذه الإمبراطوريات من المغرب والجزائر ، على حين نجد أن التأثيرات التي جاءت إلى المنطقة الواقعة بين النيجر وبحيرة شاد جاءت من برقة ومصر .

وقد استطاعت القبائل الإفريقية التي كانت تقيم على حافة الصحراء وتشغل بالتجارة أو الرعى أن تظهر باستقلالها الذاتي ، وأن تضع لنفسها أسسا اجتماعية وعسكرية سليمة . كما أن اقتناءها الخيل والإبل أتاح لها أن تبسط سلطانها العسكري على الزنوج الذين يشتغلون بالزراعة ، فاستطاعت أن تقيم دولها فوق إقليم المراعى (Savanna) شمالي إقليم الغابات . وهذه الإمبراطوريات



خريطة رقم ٣٣

ولايات السودان الغربي ومستهل القرن الحادي عشر الميلادي

كانت متسعة الرقعة في أول أمرها ، ولكنها سرعان ما سقطت بأسرع مما قامت . وكانت الشعوب المغلوبة على أمرها تحتفظ بلغاتها الخاصة وبعاداتها ، ولم يكن يجمع بينها وبين هذه القبائل الغازية إلا وحدة الخضوع لسيد واحد . ولم تحاول واحدة من هذه الإمبراطوريات أن توحد بين هذه الشعوب ، بل كان همها كله منصرفاً إلى الإبقاء على حكمها العسكري وإلى جمع الضرائب .

وهذه الإمبراطوريات السودانية كانت تستطيع المحافظة على وحدتها طالما احتفظ الفاتحون بقوتهم العسكرية : ولكن الروح الحربي سرعان ما كان يضعفه ثمرات النصر والاستقرار واقتناء الثروات والتزوج بالجوارى والإماء . وسرعان ما تضعف هذه الدولة وتصبح فريسة لقبائل أخرى غازية تقلد القبائل السابقة في فتوحها وفي نظمها .

وكانت إدارة هذه الإمبراطوريات الواسعة تتوقف على بقاء القوة الحربية ، إذ يستطيع الزعيم أن يتغلب على صعوبة المواصلات ، وأن يكسب دولته لونا من ألوان الوحدة السياسية والاجتماعية . ولكن إذا خلفه زعيم آخر أقل منه قوة ، لم يستطع أن يحافظ على هذه الوحدة ، وبذلك تضعف الدولة وتنحل وتنفرد . وكان أمر الولايات البعيدة يوكل إلى طائفة من العمال يتصرفون فيها كما يشاءون ، ماداموا يدفعون الجزية إلى الأمير . وفي بعض الأحيان يستبقى زعماء الشعوب المغلوبة نفوذهم القديم . وكان الأمير يولى بعض القواد على بعض الأقاليم على سبيل المكافأة . وهؤلاء القواد لا يضمرون الاخلاص الكامل لأولياء أمورهم ، بل كثيراً ما كانوا يشورون عليهم ويؤسسون لأنفسهم ملكا ، منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية وانصراف الأمير عن شئون البلاد . وكلما طال العهد بهذه الإمبراطوريات ، فسد نظامها الإداري وغدا غير صالح لمواجهة الأحوال ، وأصبح الولاة والعمال أكثر نهما في جمع الثروات والانغماس في الملذات .

وأقدم هذه الامبراطوريات مملكة غانة ، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن غيرها من الممالك السودانية ، لأن السبب في تكوينها لم يكن سبباً عسكرياً ولذلك بقيت زمناً طويلاً . ويرجع السبب في قيام هذه المملكة إلى أنه حول القرن الثاني الميلادي خرجت جماعة من سكان شمال إفريقيا واستقر بها المقام بين شعوب الماندى (بسكون النون) الزنجية وخصوصاً بين شعوب السوننكى (بكسر النون الأولى وسكون النون الثانية) وهؤلاء المغاربة لا يعرف أصلهم على وجه التحقيق . ولكن يبدو أنهم تسربوا إلى هذه البلاد تسرباً سلمياً ، ولم يغزوها غزواً . وفي القرن الرابع الميلادي حكم هؤلاء المهاجرون زنوج هذه المناطق وكوّنوا أسرة حاكمة ظلت تحكم في مدينة أوكور (Aukur) حتى نهاية القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) . وقد سقطت هذه الأسرة في سنة ٧٧٠ م حين ثار عليهم حكام السوننكى وظلوا يحكمون غانة حتى سقطت دولتهم في سنة ١٢٤٠ م .

وقد اختلطت دماء سكان غانة البيض بدماء السوننكى عن طريق التزاوج . وهاجر هؤلاء البيض بعد سقوط دولتهم إلى بلاد التكرور (Tekrur) التي تمتد في شمالي السنغال إلى منطقة « فوتا » . وتوطنها شعوب ثلاثة هم : التوكولور (Tucolor) ، وكانوا يكونون الطبقة الحاكمة ، والولوف (Woloff) والسيرير ، وقد أصبح هؤلاء البيض إلى طبقة التوكولور . واستطاعوا بذلك أن يسيطروا على الأحوال السياسية في هذه البلاد حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي حين استطاع التوكولور أن يتخلصوا منهم . وفي هذا الوقت كان هؤلاء البيض قد أصبحوا إفريقيين شكلاً وموضوعاً . وهم يسمون الآن « الفلاني » (Fulani) .

ويبدو أن سلطة ملوك غانة من السوننكى كانت أقوى من سلطة من سبقهم ؛ فقد أخذوا يوسعون رقعة بلادهم حتى بلغت أوج عزها في مستهل (٧ م — انتشار الإسلام) .

القرن الحادى عشر الميلادى ، فبلغت « تمبكتو » فى الشرق ، ومنابع النيجر فى الجنوب الشرقى ، ومنابع السنغال فى الجنوب والجنوب الغربى ، وحدود التكرور فى الغرب . أما حدود هذه المملكة وهى فى أوج قوتها فإنه يصعب تحديدها . ولكن يمكن أن يقال إنها تقع إلى الجنوب من منازل القبائل للمغربية . ويظهر أن كلمة غانة هى فى الأصل اللقب الذى كان يحمله ملوك هذه البلاد ، ثم توسعوا فى معناه فشملت كلامن الامبراطورية والعاصمة . وقد خربت مدينة غانة سنة ١٢٤٠ م ، ولا تزال أطلالها باقية حتى اليوم .

وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى . وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم فى التجارة السودانية من الذهب والرقيق ، وأن يبادلوها بالسلع التى تحملها القوافل من المغرب الأقصى ، وهى ملح الطعام والنحاس والفواكه المجففة . ويوجد الذهب فى بلاد تسمى ونقاره (Wangara) ، وكانت تقع خارج حدود مملكة غانة . وكانت شعوب الماندنجو يستخرجون الذهب من هذه الجهات ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى المطلوبة من غانة . ويتم التبادل بطريقة تسمى التبادل الصامت (Dumb Barter) . ذلك أن تجار غانة يضمون متاجرهم على شاطئ أحد الأنهار ، ثم يختفون عن الأنظار ، فيتقدم أصحاب التبر إلى هذا المكان ويضعون بجوار هذه السلع قيمتها تبرا ، ثم ينسحبون . فيظهر أهل غانة من مخابثهم ، فإذا رضوا بكمية الذهب أخذوها ، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى حتى تزداد الكمية . وكانت هذه الطريقة فى المبادلة شائعة فى القارة الإفريقية فى العصور الوسطى .

وكانت تجارة الذهب تلعب دوراً هاماً فى اقتصاديات العصور الوسطى ؛ فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربى أوروبا . وفى الوقت الحاضر يستخرج الإفريقيون من هذه المناجم ١٤٠.٠٠٠ أوقية فى السنة . وقد تمتعت غانة فى ظل

ملوكها من السوننكي بحكومة مستقرة وأمن مستتب مدة قرنين من الزمان ،
وازدهرت تجارة الذهب وطبقت شهرة غانة الآفاق ، وجاءها كثيرون من مسلمي
إفريقية ، فاستقروا فيها وزاولوا التجارة أو الاشتغال في الوظائف ، وبنوا لأنفسهم
مدينة من الحجر بعيدة عن المدينة الوطنية المبنية من الطين والقش .

ولم تكن العلاقة بين مملكة غانة وبين جيرانها من البربر على شيء من
الصفاء . فكثيراً ما كانت تقوم المنازعات بين زعماء السوننكي وبين قبائل
لمتونة وجدالة ، (بضم الجيم) ، وكانت ديارهم تصاقبها من الشمال ، ويحاول كل
منها أن يعتدي على أرض الآخر . ففي سنة ٩٩٩م استولت قبيلة لمتونة على
مدينة أودغشت ، وهي مدينة من مدن غانة ، أخذت مكائنها التجارية عن
طريق منافسة مدن غانة منافسة خطيرة ، إلا أن ملوك هذه البلاد فتحوا هذه
المدينة واستولوا عليها . وكان هذا من الأسباب التي وحدثت بين لمتونة وجدالة
لمقاومة خطر ملوك السوننكي . وقد اعتنق زعماء لمتونة وجدالة الإسلام على
مذهب الإمام مالك . واستطاع عبد الله بن ياسين فقيه لمتونة أن ينشئ رباطاً
في جزيرة عند مصب السنغال وأن ينشر حركة الجهاد في سبيل الله . وكان
للجهاد في زعمه غرضان : أولها فتح بلاد السودان ونحويل أهلها إلى الإسلام ،
وثانيهما ، فرض مذهب الإمام مالك^(١) على شعوب إفريقية الشمالية . ولم

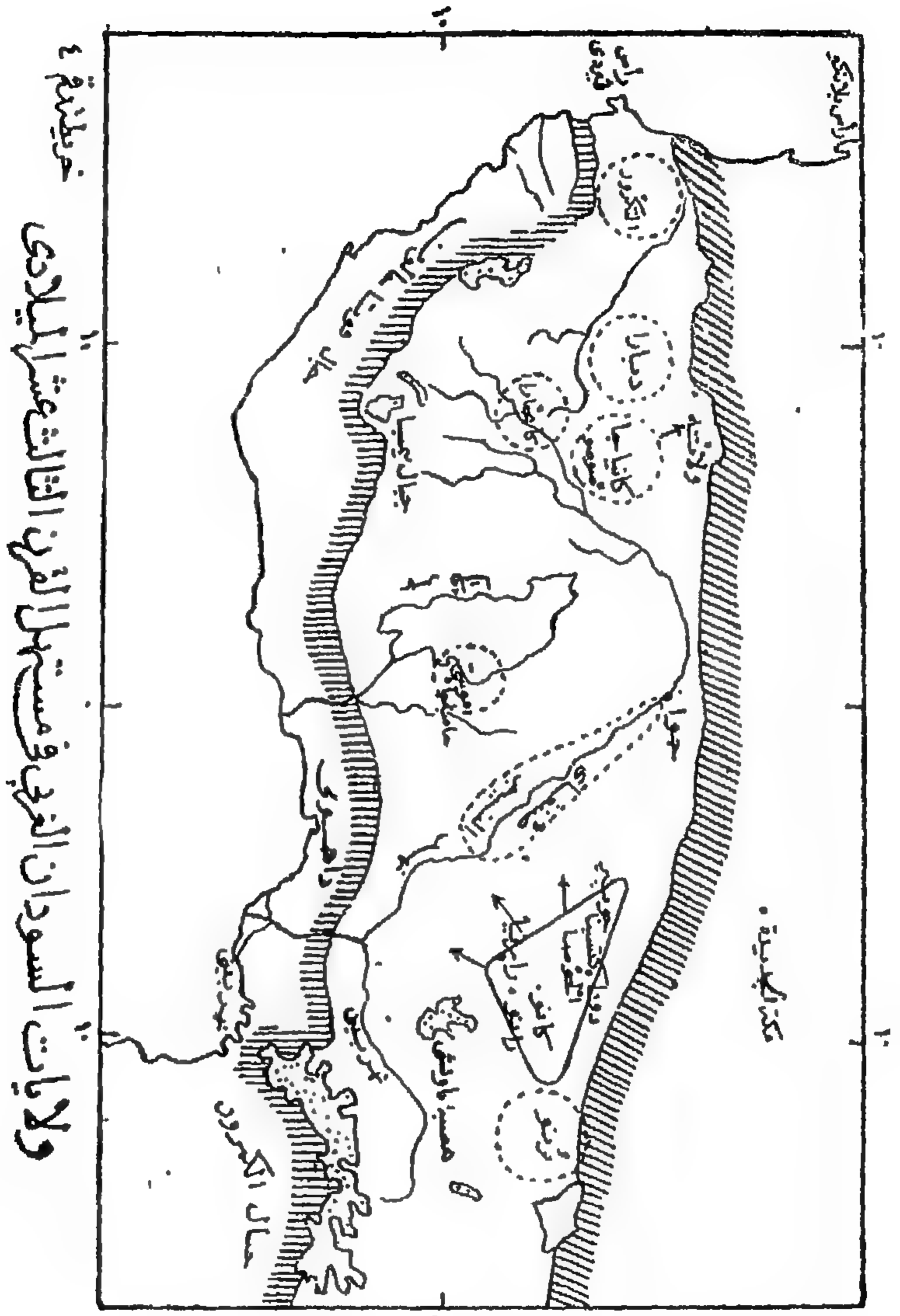
(١) أدى اختلاف أئمة الفقه في فهم النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها إلى تعدد
المذاهب . واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي : مذهب مالك لإمام أهل الحجاز ، ومذهب أبي
حنيفة لإمام أهل العراق ، ومذهب الشافعي ، وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز ، ثم جعل
مذهبه وسطاً بين الطريقتين ، ومذهب أحمد بن حنبل ، واختص هو وأصحابه بالمذهب الحنبلي
الذي يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه (مقدمة ابن خلدون
ص ٣٩١ — ٣٩٢) . ومن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك ، يحيى بن يحيى اللبثي في الأندلس ،
وكان من قبيلة المصامدة من البربر . وقد أخذ العلم عن مالك ، وروى عنه كتابه «الموطأ» ،
وبروايته انتشرت في المغرب والأندلس . (المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٢ — ٣٣٤) .
أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٩ (الطبعة السابعة) .

يستطع ملوك المرابطين أن يقضوا على مملكة غانة التي حالت دون تقدمهم صوب الجنوب . لذلك اضطروا إلى فتح المغرب والتقدم صوب الشمال . إلا أن هذه المملكة سقطت سنة ١٠٧٦ م على يد أبي بكر بن عمر زعيم المرابطين . واستطاع خليفته يوسف بن تاشفين أن يفتح بلاد المغرب ، ثم بلاد الأندلس ، وأن يقضى على أغلب مملكة السوننكي ، حتى إنه لم يبق منها إلا منطقة « أوكار » و « باسيكونوا »^(١) .

مملكة صوصو في كانياجا

قام الفلانيون المهاجرون من بلاد التكرور بدور بارز في تكوين الطبقة الحاكمة التي ساعدت على استقلال كانياجا وقيام إمبراطورية جديدة عرفت باسم إمبراطورية صوصو غربى إقليم مالى .

وقبل نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ضمت مدينة ديارا (Diara) إلى هذه الإمبراطورية . وفى سنة ١٢٠٣ م ضم أحد ملوك صوصو بلاد غانة إلى إمبراطوريته . ولكن النصر الذى أحرزه هذا الملك لم يدم طويلا . فقد هاجر المسلمون من غانة ، وأسسوا مركزاً تجارياً جديداً فى مدينة « ولاته » (Walata) . وقد تشجع هذا الملك بهذا النصر ، فهاجم مملكة الماندينجو فى الجنوب ، ولكنه هزم آخر الأمر ومات حول سنة ١٢٣٥ م ، واستولى الماندينجو على بلاده ، وعاد أغلب أهل صوصو إلى بلاد « التكرور » وأسسوا أسرة حكمت هذه البلاد حتى سنة ١٣٥٠ م تقريبا حيث تغلب عليها شعب « الولوف » .



مملكة مالي^(١)

تقع مالي بين بلاد برنو شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً وجبال البربر شمالاً .
وينقسم أهلها قسمين : أحدهما يسكن المدن ، والثاني رحّل يتنقلون في البوادي .
وتعد مملكة مالي أعظم ممالك السودان الإسلامية ، وتشتمل على خمسة أقاليم ،
كل إقليم منها عبارة عن مملكة مستقلة تجتمع حول صاحب مالي . ويسميه
أهل مصر في العصور الوسطى سلطان التكرور ، ولكنه يعرف باسم سلطان
مالي . وهذه الأقاليم الخمسة هي :

١ — مالي ويتوسط أقاليم هذه المملكة وقاعدتها بَنّجِي (بفتح الباء
وسكون النون) .

٢ — صوصو ويقع إلى الغرب من مالي .

٣ — غانة ويقع غربي إقليم صوصو ويمتد إلى المحيط الأطلسي ، وبه
مناجم الذهب ، ويسير إليه المغاربة من سبجلماسة يخترقون القفار والمفاوز . وقد
أسلم أهل هذا الإقليم في صدر الإسلام .

٤ — كَوْكَوْ^(٢) ويقع شرقي إقليم مالي وقاعدته كوكو ، وبينها وبين
مدينة غانة القديمة مسيرة شهر ونصف شهر .

٥ — تـكـرـور^(٣) ويقع شرقي إقليم كوكو وقاعدته مدينة تـكـرـور .
ولباس عامة أهله الصوف ولباس خاصتهم القطن ، وطعامهم الذرة والألبان
والسمك ، ويحمل إليهم تجار المغرب الأقعصى الصدف والنحاس والخرز ،
ويحملون منه التمر^(٤) .

(١) بفتح الميم وتشديد اللام وتعرف عند العامة ببلاد التكرور .

(٢) بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو الثانية .

(٣) بفتح التاء وسكون الكاف وضم الواو .

(٤) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٢ .

ولا يعرف إلا القليل من نشأة مملكة مالى على الرغم من أنها تعد من أقوى وأعظم دول السودان الغربى ومن أوفرها غنى . وكل ما يعرف عنها أنه فى نحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى اعتنق ملوك الماندنجو فى كانجابا (Kangaba) الإسلام . وفى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بدءوا يوسعون مملكتهم فى الجنوب والجنوب الشرقى . وقد أثار قيام هذه المملكة عداء ملك صوصو الذى بدأ يعمل على القضاء على هذا الملك الجديد . وكادت جهود ملك صوصو وفق أول الأمر تكفل بالنجاح للقضاء على مملكة الماندنجو ، وكاد أكثر أهلها يدخلون فى طاعته .

ولما آل الملك إلى ساندياتا فى سنة ١٢٣٠ م ، استطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة إمبراطورية عظيمة هى إمبراطورية مالى . وكلمة « مالى » هذه مرادفة لكلمة ماندنجو ومعناها : المتكلمون بلغة المالى ويسمون باللغة الفلانية « مالى » ، وبلغة البربر ملية (Melit) ، وباللغة العربية « مليل » ، وبلغة الحوصا « وانجارا » . وقد استهل ساندياتا حكمه بإنشاء جيش قوى اعتمد عليه فى توطيد ملكه ، واستطاع فى سنة ١٢٣٥ م أن يحل الهزيمة بملك صوصو وأن يضم إليه بلاده كلها .

أما بلاد غانة فقد أفل نجمها بتغلب أهل صوصو المجاورين لهم عليها . ثم استولى ساندياتا ملك مالى على البقية الباقية من ملك غانة بعد رحيل المسلمين عنها سنة ١٢٤٠ م . ونقل فى هذه السنة العاصمة التى كانت بعيدة عن مركز الدولة إلى نيامى (Niamey) (وأحيانا تسمى مالى) جنوبى نهر النيجر .

وقد احتلت مالى مكان غانة كأغنى مركز تجارى فى غربى السودان ، وبدأ التجار قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى يفدون إليها من شمالى إفريقيا و يقيمون فيها . ولم يشترك ساندياتا فى معارك حربية بعد سنة ١٢٤٠ م . على أن

قواده الذين دربهم على أساليب القتال وأصلوا الفتح والغزو . وفي خلال الخمس عشرة السنة التي بقيت من حكمه وفي عهد خليفته منسى^(١) ، (ومعناه السلطان) أولى (١٢٥٥ — ١٢٧٠ م) ، استولى هؤلاء القواد على منطقة وأنجارا الغنية بمناجم الذهب ، كما استولوا على مدينتي بامبوك وبندو (ولم تكونا جزءاً من من إمبراطوريتي غانة وصوصو) : وبين سنتي ١٢٧٠ — ١٣٠٧ م ولي عرش مالي أكثر من سبعة ملوك لم يشتهر منهم إلا سَكوتنا^(٢) (١٢٨٥ — ١٣٠٠ م) الذي اتسعت رقعة البلاد في عهده .

وقد بلغت إمبراطورية مالي أوج قوتها وراثتها في عهد منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٣٢ م) ، الذي استطاع قواده أن يفتحوا ولايته وتمبكتو (Tumbuktu) ، وأن يضموا جُوا (Goa) في أواسط النيجر وفي عهده امتدت رقعة مملكته من بلاد التكرور غرباً إلى دُندى شرقاً ، ومن ولايته في الصحراء إلى مرتفعات فوتاجالون جنوباً . ولم تنج من أطماعه في السودان الغربي سوى مدينة جني (Jenne) التجارية ومملكة موسى (Mossi) المستقلة . وكانت القوافل الآتية من مراکش وبرقة ومصر تزور مالي بانتظام . وكان لمنسى موسى سفراء في مدينة فاس . وكان أسلافه يحجون بيت الله الحرام كل عام . ولسكن زيارة منسى موسى للأراضي المقدسة كان لها دوى كبير في مصر وبلاد العرب . فقد كانت حاشيته تضم خمسمائة عبد . وقيل إنه أخذ معه خمسين ألف أوقية من الذهب وزع أكثرها على الناس هدايا وصدقات . ولما عاد إلى بلاده أحضر معه طائفة من مشاهير العلماء أقاموا في مالي وتمبكتو . ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو إسحاق الساحلي أو السهلي من أهل غرناطة ببلاد

(١) بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهملة على ما ورد في رحلة ابن بطوطة

ج ٢ ص ١٨٤ .

(٢) بفتح السين .

الأندلس . وقد مات بممبكتو ؛ وإليه يرجع الفضل في إدخال فن البناء بالآجر في غربي السودان . وقد بنى مسجداً عظيماً في جوا ومسجداً آخر في ممبكتو بز غيره من المساجد كمرکز ثقافي وتجاري ، كما بنى قصر منسى موسى^(١) .

ويذكر ابن بطوطة^(٢) عن كرم منسى موسى أنه أعطى أبا إسحاق الساحلي أربعة آلاف مثقال من الذهب في يوم واحد وأعطى غيره ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد . وقد قيل إن رجلاً من أهل تلمسان أعطى موسى سبعة مثاقيل وثلاث مثقال وهو صبي ، ثم جاء إليه هذا الرجل وهو سلطان ، فعرفه وقربه إليه . « وقال الأمراء : وما جزاء من فعل ما فعله من الخير ؟ فقالوا الحسنه بعشر أمثالها ، فأعطاه سبعين مثقالاً ، فأعطاه سبعمائة مثقال وكسوة وعبيداً وخدماء » .

وقد تنقل ابن بطوطة في بلاد مالي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) (١٣٥٣ م) وزار بلاط منسى سليمان ، واتصل بأمراء دولته وفقهائها ، ولكنه ندد ببخل هذا السلطان وتقصيره في ضيافته وضيافته هديته إليه . هل أن هذا السلطان عاد فأمر بإزالة ابن بطوطة داراً خاصة وقرر له نفقة تجرى عليه . ولما حل اليوم السابع والعشرون من شهر رمضان ، وزع السلطان على القاضي والخطيب والفقهاء أموالاً يسمونها الزكاة ، وأعطى ابن بطوطة ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلاثاً من الذهب ، ثم أعطاه عند سفره مائة مثقال من الذهب .

وقد وصف هذا الرحالة قصر السلطان وطبقاته المفشاة بصفايح الذهب والفضة أو بصفايح الفضة المذهبة على الأصح ، وذكر أنه إذا جلس بالقبسة ، رفعت الستور ، وضربت الطبول . ونفخت الأبواق المصنوعة من أنياب الفيلة . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلثمائة من العبيد يحمل بعضهم القسي ، وبعضهم

(١) Fage, History of West Africa, pp. 24 - 26.

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

يحمل الرماح والدرق ، ويقفون على ميمنة السلطان وميسرته ، ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ، ومعهما كبشان يقال إنها تنفع من العين . ثم يأخذ الأمراء والخطيب والفقهاء أماكنهم . ومن أراد أن يكلم السلطان تقدم إلى رجل وأسر إليه بما يريد أن يقوله ، فيتقدم هذا الرجل إلى رجل آخر يتولى نقل هذا الحديث إلى السلطان .

كذلك وصف ابن بطوطة جلوس سلطان مالى على مصطبة تحت شجرة ذات ثلاث درجات يسمونها البنّجى^(١) . وتفرش هذه المصطبة بالحرير ، وتوضع عليها الوسائد ، وترفع عليها قبة من الحرير يعلوها طائر من ذهب على شكل البازي ، ثم يخرج السلطان يحمل قوسه بيده وكفائته (خعبته) بين كتفيه ، وعلى رأسه شاسية من ذهب مشدودة بمصابة من ذهب . ويرتدى جبة حمراء ، وبين يديه المغنون ، وخلفه نحو ثلثمائة يحملون السلاح ، فإذا جلس السلطان ضربت الطبول ونفخت الأبواق ، والتف حوله العبيد والأمراء على النحو الذى يجلس عليه فى قصره^(٢) .

وإذا أقبل العيد ارتدى الناس الثياب البيض ، وعلى رؤوسهم الطيالسة ، وخرجوا إلى المصلى القريب من قصر السلطان ، ثم يخرج السلطان ويأخذ الناس فى التهليل والتكبير . وإذا أقيمت الخطبة وأقيمت الصلاة نزل الخطيب وجلس بين يدى السلطان ، وأشاد بفضائل العيد ، وأثنى على السلطان وحث على وجوب طاعته ، فينقل أحدهم كلام الخطيب إلى الناس : ثم يجلس السلطان بعد عصر يوم العيد على عادته أيام الجلوس ، ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يطردون الذباب عنه . ثم يأتى أحد الأمراء بنساء السلطان الأربع وجواريه ،

(١) بفتح الباء الأولى وسكون النون وكسر الباء الثانية .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٦ .

مرتديات الملابس الجميلة ، وعلى رؤوسهن عصابة الذهب والفضة . ويعتني هذا الأمير بشعر يمدح فيه السلطان ويشيد بما أحرزه من نصر في غزواته ويمجد أعماله ويشيد بما آثره ويشترك النساء والجواري في الغناء ، ويلعبن بالقسي ، ويساعدن ثلاثون من الفلمان الذين يضربون الطبول . ثم يأتي الصبيان فيلعبون ألعابا بديعة تنقسم بالخفة والرشاقة ويلعبون بالسيوف . ثم يوزع عليهم السلطان مثاقيل الذهب على حسب مراتبهم . ثم ينشد الشعراء قصائدهم ، وهي نوع من الوعظ وسرد سير الملوك الذين سبقوا السلطان وما قاموا به من أعمال الخير ، جرياً على التقاليد التي استمرت بعد تحولهم إلى الإسلام^(١) .

وأهل مالي أكثر زنوج إفريقية رقيقاً وأشدّهم ذكاء . ويمتدح الرحالة المحدثون صناعاتهم ومهارتهم وأمانتهم ونظافة قراهم وشدة تمسكهم بالإسلام^(٢) . وقد ذكر ابن بطوطة أنهم يشتهرون ببسط العدل واستتباب الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان^(٣) ولو كان القناطير المقنطرة . إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم على الصلاة ، والتزامهم إياها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ولباسهم الثياب البيض يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحد منهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة : ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم . وهم يعملون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه^(٤) .

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٥ .

(٣) يعني بذلك الوافدين على بلادهم من بلاد المغرب .

(٤) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٠٠ .

وقد ذكر القلقشندي^(١) أن السحر يكثر بين أهل مالي . حتى أنهم يعتقدون أنه يؤدي إلى قتل بعض الناس ، وأن السلطان يحكم على القاتل بالقصاص ويحكم بقتل الساحر . ويكثر بينهم مرض التوم ، ومن عاداتهم أن من عطس في مجلس السلطان ضرب ضرباً مؤلماً . وإذا اضطر أحدهم إلى العطاس انبطح على الأرض وعطس حتى لا يعلم أحد به ، ومن عاداتهم أيضاً أنه لا يدخل أحد دار السلطان منتعلاً ، ومن لم يخلع نعليه قصداً أو سهواً كان جزاؤه القتل . ومن عادة السلطان أنه لا يكتب بيده شيئاً في الغالب بل يعهد بذلك إلى الكتاب . وقد قدر عدد عسكره بمائة ألف ، منهم نحو عشرة آلاف فارس ، وسائر عسكره من الرجال . ويشبه زى أهل مالي زى المغاربة ، ويلبس فرسانهم أساور من ذهب . ومن علت مرتبته في الفروسية لبس معها أطواقاً من ذهب ، فإن علت مرتبته لبس مع ذلك خلاخل من ذهب ، وإن علت مرتبته فوق ذلك لبس سراويل متسعة ضيقة الأكمام متسعة من أسفل . وإذا أنعم الملك على أحدهم أو شكره على فعل ، تمرغ المنعم عليه بين يديه في التراب حتى يصل إلى المكان الذي يجلس فيه الملك ، فيأخذ غلمان المنعم عليه أو بعض أصحابه من رماد قد أعد في نهاية مجلس السلطان فيذر في رأس المنعم عليه . ثم يعود ويتمرغ بين يدي السلطان . ويتعامل أهل مالي بالودع الذي يجلبه التجار فيكون مصدر ربح كبير لهم . وهم يتقايضون بالأطعمة والذهب الكثير في بلادهم . وقد اضمحلت مملكة مالي بعد منسى موسى ، فاستقلت جُوا ، واستولت قبائل الطوارق على أروان (بفتح الراء) وولاته وتمبكتو ، واستولى الولوف على المناطق الغربية ، واستولى الموصي (بكسر السين مع التشديد) على المناطق الجنوبية وقد بلغ ضعف هذه المملكة غايته في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ .

حين استنجدوا بالبرتغاليين الذين كونوا لهم مستعمرة على ساحل إفريقيا الغربية .
وفي منتصف القرن السابع عشر أصبحت مملكة مالي مجرد دولة صغيرة في كانباجايا
كما كانت من قبل^(١) .

مملكة صُنْغاي في جُوا

وحول منتصف القرن السابع الميلادي بدأ بعض قبائل لَمُطَة (بفتح
اللام والطاء وسكون النون) المغربية الوثنية تحرز نفوذاً سياسياً على الزراع من
صُنْغاي الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة دِنْدِي (بكسر
الدالين^(٢)) . واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى أسرة ديا
(Dia) ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ١٣٢٥ م . وقد اتخذوا كوكيا حاضرة
لهم . ولا يعرف موقعها بالضبط ، وإنما يمكن أن يقال إنها تقع في المنطقة الشمالية
الغربية من حدود نيجيريا الحالية . وقد نمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانة
وتونس وبرقة ومصر عن طريق « تاد مكة » (أى مكة الجديدة) الذي يعد
مركزاً هاماً لطرق القوافل . وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد في
تحول هؤلاء الملوك إلى الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق
شمالى إفريقيا ، وإن كان كثير من رعاياهم قد ظلوا على وثنتهم . وفي ذلك
الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد على مقربة من طرق القوافل الرئيسى : إلى
مدينة جُوا (بضم الجيم) عند منحني نهر النيجر . وقد أصبحت من أهم
مراكز التجارة في السودان الغربى ، وهى تشبه مدينة غانة بالنسبة إلى البلاد
الواقعة في أعالي النيجر .

(١) Fage, History of Western Africa, pp. 26—27.

(٢) للوقوف على منشأ هذه المملكة ودخول الإسلام فيها في القرن السابع الميلادي ،
راجع السعدى : تاريخ السودان (طبعة باريس ١٨٩٨) ص ٣٣ وما يليها . سير توماس
أربولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٦٩ .

وكانت جوا والبلاد التابعة لها تؤلف جزءاً من إمبراطورية مالي بين سنتي ١٢٣٥ و ١٣٣٥ م . وفي هذه السنة الأخيرة تحرر ملوك « ديا » واستردوا استقلالهم ، واتخذوا لقب « سُنِّي » أو « السُّنِّي » . وكانت بلادهم حتى ذلك الوقت لا تتجاوز وادي النيجر جنوبي جُوا ، إلا أن رقعتها أخذت تتسع في عهد سُنِّي علي (١٤٦٤ — ١٤٩٢ م) ، الذي جمع من بين رعاياه جيشاً سار على رأسه إلى الغرب . وفي سنة ١٤٦٨ كتب إليه أهل تمبكتو يلتمسون مساعدته على الطوارق الوثنيين ، فاتخذ من ذلك فرصة للإغارة على هذه المدينة . وبعد ذلك بخمس سنوات استولى سُنِّي علي مدينة « جِسْنِي » (بكسر الجيم والنون مع التشديد) .

وكانت الدماء البربرية في أسرة السُنِّي لا تزال قليلة . وكان سُنِّي علي مشغولاً بمشروعاته السياسية منصرفاً عن شئون دينه ، فضلاً عما عرف به من القسوة ، حتى إن الفقهاء والعلماء فروا في عهده من مدينته تمبكتو واعتصموا بمدينة ولاته . وبعد وفاته انتقل العرش إلى أحد قواده من السوننكي . وكان يدين بعهائد المذهب السني ، وقد تقلد حكم هذه البلاد وأطلق على نفسه اسم « اسكيا » (بفتح الألف مع الهمزة وسكون السين وكسر الكاف) « محمد الأول » وقد نظم شئون البلاد واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء كما نظم الجيش ، واستغل ثروة سلفه في النهوض بالشئون الدينية ، وحج بيت الله في مكة سنة ١٤٩٥ م . وكان سفر محمد يفوق ما عرف عن منسى موسى في الأبهة والكرم ، واستردت تمبكتو مكائنها كمركز للدراسات الإسلامية . ولما عاد اسكيا محمد الأول من مكة سنة ١٤٩٧ م ، قام بعدة حملات لتوسيع رقعة بلاده ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه الماندينجو والفلاني في الغرب والطوارق البربر في الشمال والموتى في الجنوب ، والحوصا في الشرق . ولم تقف في وجهه إلا إمارات

موتى الموحدة أما فى الغرب فكانت مملكة مالى قد اضمحل شأنها ، قامتد إمارات صُنغاي إلى حدود التكرور ، وفى الشمال والشمال الشرقى استولى هؤلاء الملوك على مدينتى تغزة (بفتح التاء وكسر الغين) وأجديس من البربر ، وفى الشرق غزوا بلاد الحوصا وأرغموا أهلها على دفع الجزية .

وقد استطاع أسكيا محمد الأول أن ينشر الأمن والسلام فى جميع ربوع مملكته الشاسعة الأرجاء . ولكن حكمه آذن بالزوال فى سنة ١٥٢٨ م حين أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده . وظل القواد والمغامرون يتنافسون من أجل السيطرة على الجيش والحكومة . إلا أن أسكيا إسحاق الأول (١٥٣٩ — ١٥٤٩ م) استطاع أن يعيد الأمن إلى نصابه وأن يقضى على منافسيه . ثم خلفه داود الذى عين أنصاره فى الوظائف الهامة . وقد سار إسحاق وداود على نهج سلفهما فى نشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانهم وبعد وفاة داود (١٥٨٢ م) أثرت المنازعات التى قامت على العرش تأثيراً سيئاً على مملكة صُنغاي . فقد كان سلاطين المغرب منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح فى تغزة وإلى السيطرة على تجارتهم مع السودان . وظل ملوك صُنغاي يصدون سلاطين المغرب حتى سنة ١٥٨٥ م حيث انقسمت البلاد على نفسها ، فاتخذ المغاربة من ذلك فرصة لتحقيق أطماعهم . وقد استغل أحمد المنصور الذهبى سلطان المغرب الذى انتصر على البرتغاليين فى موقعة القصر الكبير ضعف صُنغاي للاستيلاء عليها ، فسير جيشاً عبر الصحراء ليضع يده على مناجم الذهب ، وفى سنة ١٥٩٠ سارت حملة تتألف من أربعة آلاف جندي ، وبعض الأوربيين وأسرى المسيحيين المسلحين بالبنادق التى لم تعرف إلا فى بلاد « بُرنو » وقد حلت الهزيمة بجند إسحاق الثانى وتمزق جيشه ، وهرب أهل جُوا عبر النيجر إلى غير رجعة^(١) .

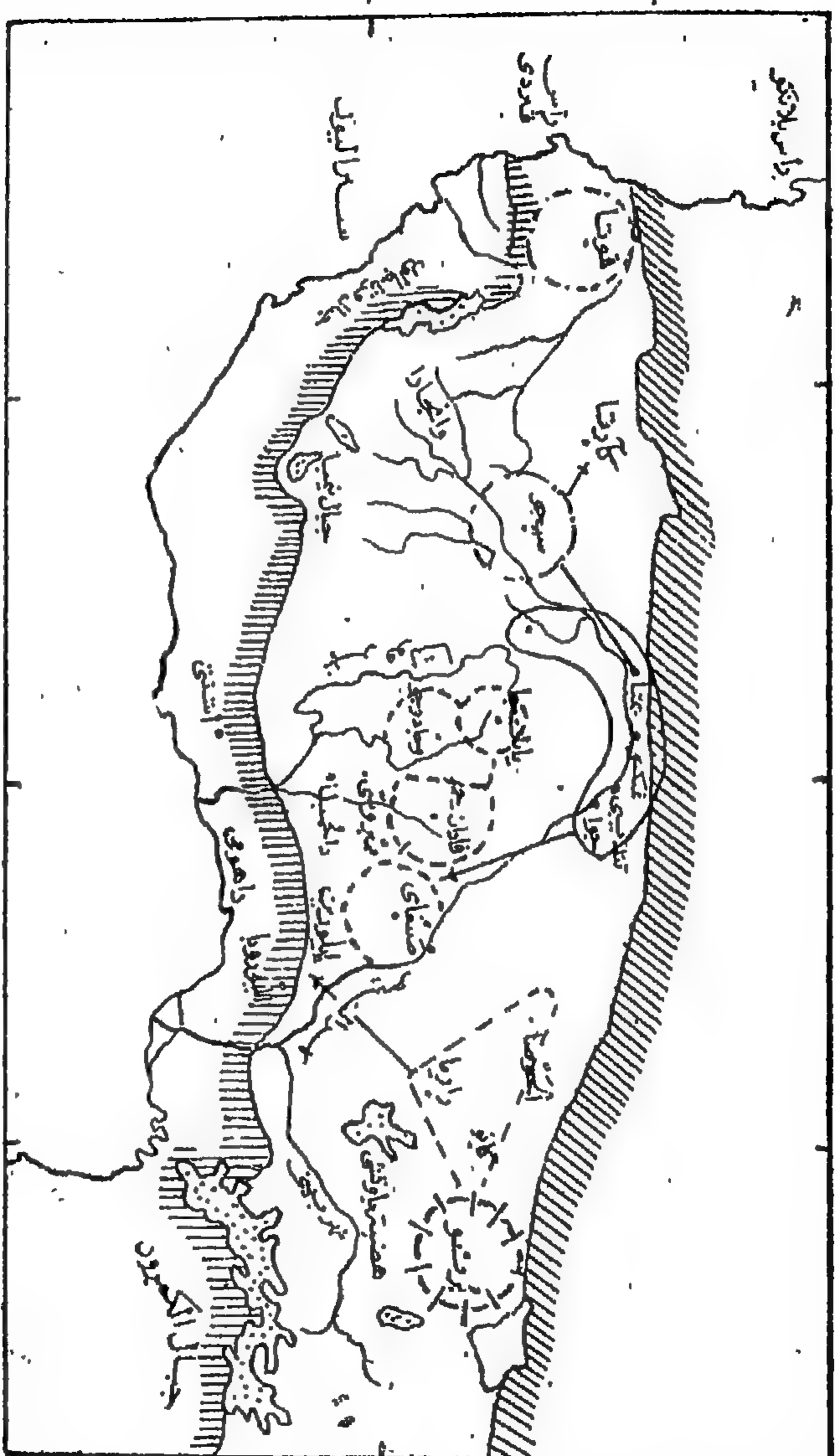
ولم تفلح جهود إسحاق وخلفائه في وقف تقدم الجيش المغربي ، ووقفت حدود مملكته عند بلاد دِنْدَى . وكانت موقعة تونديبي فاصلة في تاريخ مملكة صُنْغَاي . ولكن هذه الواقعة لم تكن نصراً للمغرب إلا من الناحية العسكرية ، إذ أنهم لم يحققوا الأغراض التي قاتلوا من أجلها وهي السيطرة على مناجم الذهب في غرب إفريقيا . فقد اكتشفوا أن ثروة صُنْغَاي لم تكن نتيجة امتلاكهم لمناجم الذهب ، وإنما كانت نتيجة لسيطرتهم على تجارتهم مع مواطن إنتاجه في وانجارا و بُندوكو (بضم الباء وسكون النون) ، وأسنتي (بفتح السين وسكون النون) وهي تجارة لا تزدهر إلا في ظل السلام والأمن الذي نجح ملوك صُنْغَاي في إقامته في غرب السودان ، كما أن إخفاق الحملات المغربية في القضاء على ملوك صُنْغَاي في دِنْدَى قد أظهر ضعف الجيش المغربي وقلة مقاومته للأمراض الاستوائية ، وعجزه عن الوقوف في وجه الزنوج الذين كانوا يدافعون عن بلادهم ويتمسكون بالغابات . لذلك أخفق المغاربة في الاستيلاء على مناجم الذهب في داخل الغابات في الوقت الذي تفرق فيه جيش صُنْغَاي الذي لم يعد قادراً على حفظ الأمن ، فتفرقت أوصال مملكتهم ، وقامت الثورات في بلادهم ، فقام الفلاني والبيمارا والطوارق ينهبون ويسلبون ويخربون . وكان الجيش المغربي قليل العدد لا يستطيع أن يسيطر على أرجاء البلاد كافة ، ولم يستطع إلا السيطرة على جُؤا وتمبكتو وجنّ السني واستخدمها للإغارة كقواعد عسكرية منها على مايلها . وهكذا أخفق المغاربة في حفظ الأمن والنظام في أقاليم السودان العربي ، في الوقت الذي بدأ فيه الأوروبيون ينزلون على سواحل إفريقية الغربية ويطعمون في مناجم الذهب .

ولم يكن في استطاعة السلطان المغربي أن يرسل قوات كالتى أرسلها في سنة ١٥٩٠ ، وإن كان قد شرع في إرسال الإمدادات والقواد حتى بلغ مجموع ما أرسله منها بين سنتي ١٥٩٠ — ١٦١٨ م . ما يقرب من ٢٣٠٠٠ لم يعد منهم أحد (م ٨ — انتشار الإسلام)

وكن دخله من هذه البلاد فير قليل ، فكانت تمبكتو وجوا تدفعان له الجزية ولكن هذا المال كان أقل مما كان يتوقعه ليبر هذه الجهود العسكرية الضخمة . وكان فتح السودان بأمر المنصور المراكشي الذي لم يكن جمهور التجار على رأيه بل كانوا يعتقدون أن موارده وإن عظمت لا تنفي بتجارة المغرب مع السودان التي لا بد لها أن تقل شيئاً فشيئاً ، وقد صدق ظن هؤلاء التجار بعد وفاة المنصور حين عدلوا عن مشروع فتح بلاد السودان (١٦١٨ م) .

وقد ظلت فلول الجيش المغربي في هذه البلاد حتى سنة ١٧٨٠ . وكانت صفوف هذا الجيش تنظم كثيراً من الجند الزوج . وكان الضباط يولون أولادهم ، وكانوا من المولدين الذين كونوا طبقة تسمى «أرما» (Arma) ، وكانت هذه الطبقة تختار ولايتها وتدعى القبلية لسلطان المغرب . وكانت تمبكتو مقر هذه الولاية ، وقد اتخذ بعض القواد مراكز لهم في جوا وبنبا وجيني . وكان هم الباشوات منصرفاً إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الجزية . على أن سلطانهم قد ضعف تدريجياً ، لأنه كان يعتمد على الجيش الذي كان يعزلهما إذا شاء ، حتى لقد بلغ عدد من تولى منهم بين سنتي ١٦٦٠ و ١٧٥٠ م ١٢٨ باشا . كما أن قوة الجيش قد أخذت تضعف هي أيضاً ، فلم يستطع أن يحمي البلاد أو يحمي أهلها ، واضطر الباشوات منذ سنة ١٦٧٠ م إلى دفع الجزية إلى الحكام الوثنيين . وقد بدأ القواد في جوا وبنبا وجيني يخالفون تعليمات تمبكتو ويحتفظون باستقلالهم المحلي . وفي سنة ١٧٨٠ م لم يعد الجيش ينتخب باشوات جدداً ، إنما كان القواد يعينون أنفسهم ، ثم انتقلت السلطة إلى حكام البهارا على ما سيأتي^(١) .

(1) Foge, History of West Africa, pp. 30 - 32



خزینہ رقم ۱

ولايات السودان الغربي في القرن السابع عشر الميلادي

شعب الحوصا - شمالي نيجيريا

وينتشر شعب الحوصا في شمالي نيجيريا ولا سيما في مقاطعات سُكُتو (بضم السين والسكاف) ، وكانو ، وزاريا ، وباوتشي . وقد تأثرت هذه القبائل بمؤثرات زنجية . وكان يظن إلى عهد قريب أن قبائل الحوصا تمثل جنسا قائما بذاته ، ولكن قد تبين أن الحوصا اصطلاح لغوي يطلق على جميع الشعوب التي تتكلم بهذه اللغة . وليس ثمة جنس يمكن أن يسمى بجنس الحوصا . كما أن لغة الحوصا منتشرة على نطاق واسع في غربي إفريقيا ، فهي ال *lingua franca* ، أي لغة المعاملات التجارية والمالية . وبما يؤسف له أن الفاتحين من الفلاني قد قضوا على كل الوثائق التاريخية المسجلة التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة تاريخ هذه الشعوب . ويمكن أن يقال إنه كانت هناك سبع إمارات قامت في قـت مبكر وكانت تابعة للحوصا هي إمارات : كانو ، ورانو ، وزاريا ، ودُورا بضم الدال ، وجوير ، وكُفسينا (بفتح الكاف وسكون القاء) ، وزامفارا .

وكانت قبائل الحوصا تدين بالوثنية قبل أن تتحول في القرن الثالث عشر الميلادي إلى الإسلام الذي انتشر انتشاراً واسعاً وترك أثراً بعيداً في حياة هذه القبائل الاجتماعية والدينية ، وقد نشأ بينها نظام للحكم مستمد من تعاليم الإسلام ، كما نشأ نظام مالي دقيق ونظام قضائي يقوم على تطبيق الشريعة الإسلامية في دقة وفهم . ويحكم كلا من هذه الإمارات ملك أو أمير يعاونه بعض الوزراء الذين يقومون بأعمال الوزراء في العصور الوسطى . وتستمد كل إمارة اسمها من اسم المدينة الرئيسة فيها . ويحيط بكل من هذه المدن سور كبير مبني باللبن ، وخندق متسع يجري فيه الماء للدفاع عنها وقت الخطر . وكانت القبائل تعتمد بهذه المدن إذا ما تعرضت لأي هجوم عليها .

وكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى وإن كان قد قام بينها نوع من التحالف . وكانت الحروب الأهلية تبتاح هذه الإمارات في بعض الأحيان . وإلى إمارة « زازيا » يرجع الفضل في نشر الإسلام في أواسط نيجيريا ، على حين كانت إمارة « كانو » تنشر هذا الدين في منطقة « بُرنو » في الشرق . وكثيراً ما كانت إمارات الحوصا تتعرض لغارات شعب البرنو . ففي سنة ١٥١٣ م مثلاً غزا هذا الشعب بلاد الحوصا واحتل إمارات كتسينا وزازيا وكانو . وأصبحت بلاد الحوصا ميداناً للتنافس بين قوتين عظيمتين هما : قوة البرنو وقوة الكبي ، وكلاهما كان يعمل على بسط نفوذه على غربي السودان كله . وبما ساعد هذه الإمارات على البقاء أن شعب الحوصا شعب يميل إلى التجارة ، والتجار عادة يتعاونون تعاوناً سلمياً مع قوى العدو . وهذه الحقيقة هي التي أتاحت لإمارة كتسينا أن تبقى برغم إخضاع « بُرنو » لها ، وأن تسترد مكائنها القديمة كمركز من مراكز الثقافة الإسلامية .

أما إمارة جويبر فقد خضعت للقبائل الصحراوية ، ولكن بعد أن استطاعت أن تتحرر من ربقتها بدأت تحاول إخضاع إمارات الحوصا الأخرى . وفي منتصف القرن الثامن عشر أخضعت إمارة زامفارا وأصبحت أعظم إمارات الحوصا جميعاً ، على أن أمراءها كانوا يدينون بالوثنية . وكان الإسلام قد أخذ يضمحل في هذه البلاد حتى أتيح له أن يسترد قوته من جديد على يد شعب الفلاني بزعامة عثمان دان فوديو .

وقد بدأت بلاد الحوصا وهي في عز قوتها وسؤددتها تتعرض لهجرات سلمية كانت ذات أثر بعيد في تاريخها ، وهي هجرات شعب الفلاني الذي يرجع أنه استقر في بلاد التكرور على نهر الجيبيا حول القرن التاسع الميلادي . ويقول « سير ألان بيرنز » إن علماء الأجناس اختلفوا في أصل هذا الشعب :

فبعضهم يردده إلى أصل هندي أو يهودي أو فينيقي . ويذهب بعض هؤلاء العلماء إلى أنهم من أصل مصري ، وأنهم يشبهون صور المصريين المنقوشة على القبور من عهد المكسوس . ويكاد هؤلاء الباحثون يتفقون على أمر واحد ، هو أن هؤلاء القوم جاءوا من صعيد مصر ، وأنهم هاجروا غربا عن طريق بلاد المغرب ، ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسي ، فاستقر بعضهم هناك ، ومضى بعضهم الآخر قدما حتى بلاد السنغال ، ثم أخذوا في القرن الثالث عشر يهاجرون شرقا ويتدفقون إلى شمالي نيجيريا . وكان بعض هؤلاء المهاجرين ينزحون إلى سكنى المدن ويختلطون بسكانها من الحوصا ، ويتزوجون منهم ، ويعتقدون الإسلام . وسرعان ما سيطروا على المدن . وهؤلاء يسمون فلاني جدا (Fulani Gidda) أى الفلاني المَهْجَنُونَ أو المختلطون . أما القسم الآخر من هذا الشعب فقد عاش بمزول لا يختلط بالحوصا ، يعيش عيشة البداوة ويحتفظ بعقيدته الوثنية وبدمه نقيا . وهؤلاء يسمون « كاو فلاني » ، أى الفلاني رعاة البقر . وهم يمثلون هذا الشعب أحسن تمثيل : تقاطيع دقيقة ، وشعر مسترسل ، وقامة طويلة . وقد خضع هؤلاء للسلطات المحلية في بلاد الحوصا قرونا طويلة .

ت وكانت قبائل الفلاني حتى ذلك الوقت تتألف من عدة قبائل صغيرة متباعدة ومستعمرات من الرعاة والزراعيين في مختلف بقاع السودان . وقد دلت هذه القبائل بالإسلام في وقت مبكر . ويتحدث « فرايسيس روبر » الذي زار موطنهم على نهر الجبيا سنة ١٧٣١ م عنهم فيقول إنهم ينتشرون على نهر الجبيا ، وإنهم يشبهون العرب ، ومعظمهم يتكلم العربية لأنهم يتعلمونها في مدارسهم ، ولهم لغة غير مهذبة تسمى « فولى » . وكانوا إذا أساء إليهم أحد الحكام الذين يقيمون في بلادهم ، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين . ولهم رؤساء

من أنفسهم يحكمونهم حكما معتدلا . والفلاّنى على جانب كبير من النشاط والاقتصاد . فهم يزرعون القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم ويبيعونه بسعر معتدل . وهم يشتهرون بالكرم : فإذا علموا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقاً اجتمع الفلاّنيون وحرروه .

ولوفرة القمح عند الفلاّنى لا يدعون أى واحد منهم يقاسى الحاجة ، بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساون بينهم وبين الآخرين . وكلما يستولى الغضب على نفوسهم أو يسب أحد منهم الآخر ، ويرجع ذلك إلى انتشار الرخاء فى البلاد . وهم يُعرفون بشجاعتهم ومهارتهم فى استعمال الأسلحة ، ومنها القوس والنشاب ، ويستخدمون البنادق فى بعض الأحيان . وأهل هذه البلاد مسلمون مخلصون لدينهم ، يندر أن يشرب أحدهم الخمر أو أى مشروب أقوى من الماء^(١) .

الشيخ عثمان دان فوديو — السلطان بللو

وحول نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ظهر من بين فقهاء الفلاّنى^(٢) (بضم الفاء) الشيخ «عثمان دان فوديو» . وقد اشتهر بأنه مصلح دينى وداع محارب . وقد رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وتأثر بمبادئ الوهابيين ، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم قبور الأولياء ، وحارب شرب الخمر وفساد الخلق . واستطاع بما عرف عنه من ورع وتقوى أن يوحد هذه الجماعات المنفصلة المتناثرة فى شتى أقاليم الحوصا ، وجعل منهم جماعة قوية . وتمتع بنفوذ

(١) Francis Moore, travels in the Inland Parts of Africa (١)
pp. 75—77.

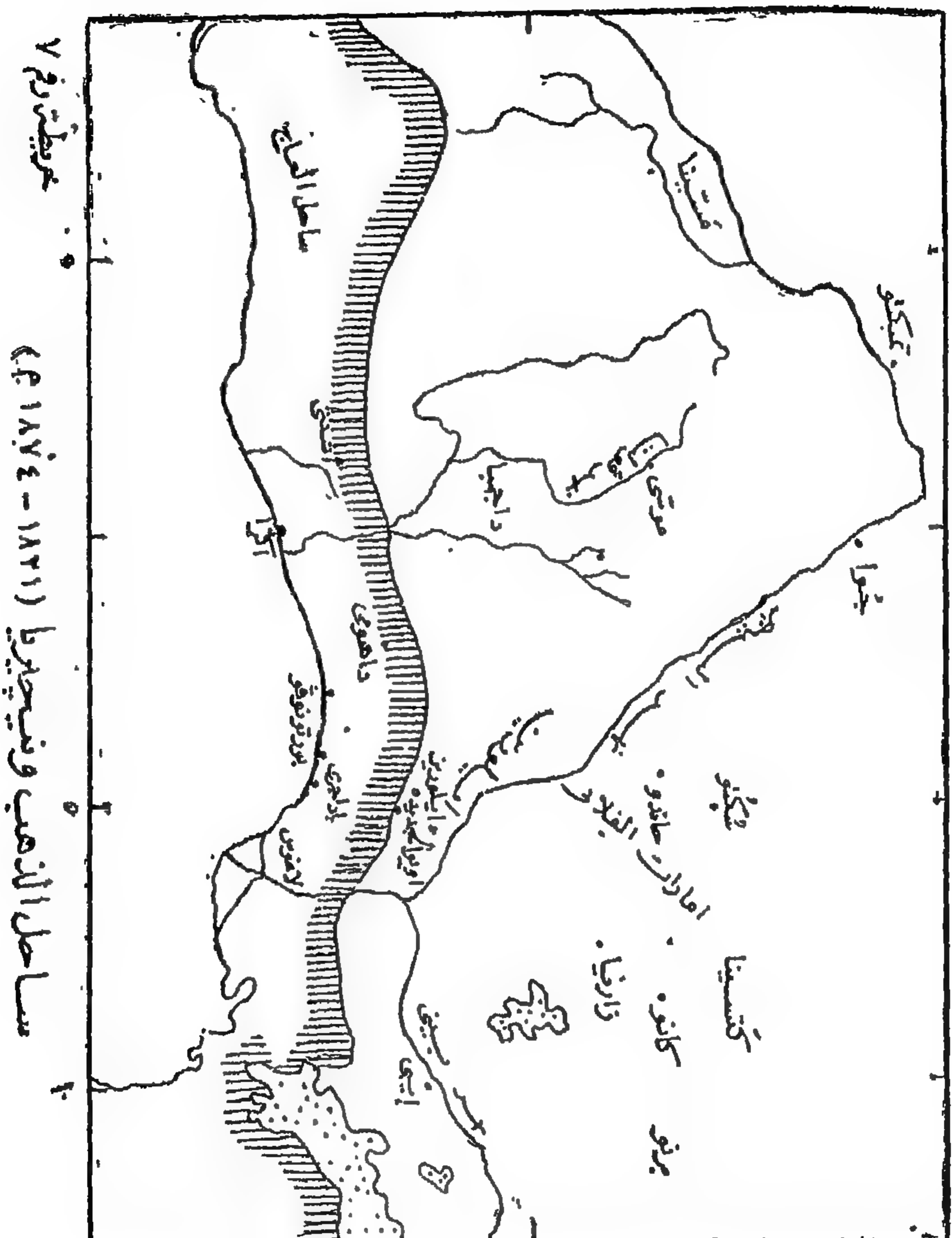
راجع سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة س ٢٧٤ .

(٢) أو الفلى « بكسر الفاء مفردا پول » اسم أطلقه هذا الشعب على نفسه ، ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة ، أشهرها فلا وفلاّنى .

كبير حتى بين الملوك الوثنيين في البلاد . وفي سنة ١٨٠٢ حدث شقاق بينه وبين مملكة « جويير » ، وكانت لا تزال على الوثنية ، وقد بسطت نفوذها على أقصى شمالي بلاد الحوصا . وقد حاول ملك جويير أن يعوق ازدياد قوة الفلاني في بلاده . وحدث أنه اضطهد أحد الرعايا المسلمين ، فتدخل عثمان دان فوديو في الأمر لدفع هذا الأذى ، فغضب ملك جويير وبعث في طلب عثمان . فلما رفض الحضور بعث الجند لإحضاره ، فثار أنصار عثمان ، وجاء أتباعه من الفلاني والحوصا من كل فج يباركون حركته وينتظمون في سلك دعوته ، وبايعوه بإمامة المسلمين في بلاده ، وطلبوا إليه أن يفتح هذه البلاد وأن ينشر الإسلام فيها . فأعلن عثمان الجهاد ، وعقد اللواء لأربعة عشر من أصحابه ، وطلب إليهم أن يقاتلوا في سبيل الله ورسوله . وتلقب عثمان بلقب « ساركين مُسلماني » (Sarkin Musulmani) ، أى أمير المؤمنين ، واستقر في سكتو (بضم السين والكاف) ، وأخذ ينظم فتوحه^(١) .

ولكن هذا الجهاد لم يكن موجهاً نحو الوثنيين وحدهم ، إنما كان موجهاً نحو المسلمين العابثين بدينهم . فكان هذا أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر . وعلى الرغم من أن بلاد « برنو » كانت بلاداً إسلامية ، هاجمها شيعة عثمان دان فوديو في سنة ١٨٠٨ م . وبين سنتي ١٨٠٤ و ١٨١٠ م سقطت ولايات الحوصا الإسلامية واحدة تلو أخرى في يد عثمان دان فوديو . ولما تم لعثمان النصر ترك أمور الدولة لأخيه عبد الله وابنه بللو ، وقسم البلاد بينهما ، وظل يبشر بالإسلام ويفقه الناس في الدين حتى توفي سنة ١٨١٧ م في مدينة سكتو قاعدة دولته . وما زال قبره في سكتو مثابةً تعظمها جموع كثيرة من الزائرين . وقد اتخذ عبد الله أخو عثمان مدينة جُنْدُو (بضم الجيم وسكون النون وضم الدال) مقراً

(١) Fage, History of West Africa, pp.34—35.



خریشتی رقم ۷

مساحل الذهب و فیجیریا (۱۸۲۱ - ۱۸۷۴ م. ق.)

للمسكة إلى أن توفي عثمان فاعترف بابنه سلطاناً على المسلمين^(١).

وكان عصر السلطان بللو حافلاً بالفتن والاضطرابات والحروب الأهلية مع القبائل التي رفضت الخضوع لسلطانه ، ولم تستقر الأمور إلا قبيل وفاته . واستمر أصحاب الألوية الأربعة عشر وأحفادهم يقدمون فروض الطاعة لسلطان سكتو ، وأصبحت الإمبراطورية الفلانية تتكون من سبع المقاطعات التي كانت تتألف منها مملكة الحوصا القديمة . وقد زار بللو الرحالة الإنجليزي الملازم كلاپرتون (Lieutenant Clapperton) في سنة ١٨٢٤ م . ولما أزمع الرحيل سلمه هذا الملك رسالة بعث بها إلى ملك إنجلترا يحميه فيها على حسن معاملة الرعايا المسلمين . وقد خلف بللو ، ابنه أبو بكر عتيق الذي ظلت سلالة تتوارث عرش سكتو حتى العصر الحاضر متخذة لقب أمير المسلمين .

وليس من شك في أن أمراء الفلاني قد أداروا دفة البلاد في مقدرة ومهارة ونشروا لواء العدل . ولكن نفوذ هؤلاء الأمراء أخذ يضمف وتطرق الفساد إلى جسم الدولة ، فلم يعد الأمراء رجال زهد وتقشف كما كان أسلافهم من قبل ، بل انغمسوا في الترف وتمسكهم الطمع ولا سيما أمير « كانو » ، وبدءوا يقلدون الزعماء الوثنيين المجاورين لهم ، وأغفلوا تعاليم عثمان دان فوديو . وكان من أثر ذلك أن خرج كثير من الوثنيين عن طاعتهم ، واضمحلت ملكهم في الوقت الذي بدأ فيه البريطانيون يدخلون البلاد في القرن التاسع عشر . ولكن برغم هذا نستطيع أن نقول إن الفلاني استمروا يحكمون هذه البلاد حكماً صالحاً قرابة قرن من الزمان ، فنشروا الإسلام ودانت لهم قبائل شمال نيجيريا كلها .

(١) Sir Alan Burns, History of Nigeria, p. 46.

ولما استقام لملوك الغلاني أمر بلاد الحوصا ، وجدوا في البلاد نظماً إدارية صالحة احتفظوا بها ، فلم يغيروا كثيراً من نظم الضرائب التي سارت على وفق النظم الإسلامية المستمدة من تعاليم القرآن : فضريبة الزكاة كانت تدفع لبيت المال . وهناك ضريبة العشر ، وثمة ضريبة ثالثة تفرض على الماشية تسمى « جانجالي » ، وضريبة أخرى تضرب على الأراضي الزراعية وهي الخراج ، وتسمى بلغة الحوصا « كوزدين كاسا » ، وضريبة أخرى تسمى الجزية تفرض على الوثنيين الذين يرفضون الدخول في الإسلام وتسمى « جاندو » ، وضريبة على أرباب الحرف والصناعات ، وضريبة على الخمر . إلا أن أغرب هذه الضرائب ضريبة تسمى « جيزورا » أو الهدية ، وهي تقضى بأن يقدم كل مرءوس هدية لرئيسه ، ثم تتوالى هذه الهدايا حتى تصل إلى السلطان ، وتقدم في المناسبات ولا سيما في الأعياد . وكان أمراء المقاطعات يدفعون هذه الضريبة لأُمير المسلمين في مدينة سكتو .

وهنا نلاحظ أن عبارة أمير المسلمين كانت لقباً لسلطين المرابطين ، كما نلاحظ أن مذهب شعب الغلاني هو مذهب مالك ، وهو مذهب المرابطين أيضاً ، مما يحمل على الظن أن شعب النيجر بصفة عامة قد تأثر بالمرابطين الذين قاموا بالدهوة الإسلامية في حوض النيجر .

نرى في القضاء أول الأمر مستقلاً عن السلطة التنفيذية . ويطبق القضاء الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك . وكانوا يطبقون النظم الإسلامية إذا لم تتعارض مع نصوص القرآن والسنة . ويشتهر القضاة المسلمون في هذه البلاد بالدقة والتبحر في العلم وفهم القوانين التي يطبقونها . ولديهم مكثبات حافلة بالمولفات الفقهية . وولاية العرش لا تنتقل مباشرة من الأب إلى الابن مما يحمل على الظن أن الحكم في هذه البلاد يسير على الأصل الديني وهو مبدأ الشورى .

ويساعد الملك أو الأمير الوزير ، ويسمى بلغة الخوصا « وزيرى » ، ويسمى صاحب بيت المال « مآجى » ، ويسمى صاحب الشرطة « ساركين دوجارى »^(١).

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الدعوة الإسلامية في أفريقية الغربية قد تأصلت جذورها ونمت وترعرعت وآتت أكلها على أيدي المعلمين والدعاة والتجار ، حتى إننا لنجد مماثل ما تزال آخذة بالشرعية الإسلامية الفراء ليس في الأحوال الشخصية فحسب ، بل في نظمها السياسية والمدنية والاجتماعية التي تتفق مع القرآن والسنة ، فهم يجمعون الزكاة الإسلامية ويفرضون الجزية على غير المسلم في نظام إسلامي دقيق يسير على مذهب الإمام مالت رضى الله عنه ، وقد بلغ من حرصهم على تنفيذ أحكام الدين الخفيف أن الحكم في نيجيريا يسير على مبدأ الشورى الذي قرره القرآن في قوله تعالى في سورة الشورى (٤٢ : ٣٨) (وأمرهم شورى بينهم) وقوله تعالى في سورة آل عمران (١٥٩ : ٣) (وشاورهم في الأمر) .

ومما تقدم نخلص إلى أن المسلمين في أفريقية الغربية يتمتعون بحضارة إسلامية خالصة ونظام إسلامي للحكم مما لا نراه في كثير من الدول الإسلامية الراقية .

شعب اليوروبا — جنوب غربى نيجيريا

حينما عرف الأوروبيون بلاد نيجيريا الداخلية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، كانت المناطق للكشوفة منها وطنًا لشعوب زنجية أو مغربية الأصل اعتنقت الإسلام وأسست إمارات قوية متحضرة . ومن هذه الشعوب شعب اليوروبا (Yoruba) في نيجيريا الجنوبية . ومن المرجح أن

(١) Burns, pp. 47—50.
Fage, pp. 115, 146—148.

أصول مملكة اليوروبا ترجع إلى المدة التي تقع بين سنتي ٦٠٠ و ١٠٠٠ م^(١).

ويدعى شعب اليوروبا أنهم جاءوا من مكة . ولكن هذا القول لا يدل على أنهم جاءوا من مكة فعلا ، وإنما يدل على أنهم جاءوا من الشرق . وهناك رأى آخر يقول أصحابه إنهم من صعيد مصر بدليل أن طريقتهم في الدفن تشبه طريقة قدماء المصريين . وهناك رأى ثالث يقول أصحابه بأنهم ينسبون إلى الكنعانيين وأنهم من قبائل نمرود . ويقال إنهم جاءوا إلى غربي إفريقيا بعد أن طردهم يعرب بن قحطان من بلاد العرب ، فهاجروا من موطنهم الأصلي ، واتجهوا نحو غرب إفريقيا ، وأخذوا يتقدمون في سيرهم حتى وصلوا إلى مدينة ياربا (Yarba) وكانوا إذا نزلوا إقليما تركوا فيه فريقا منهم ؛ ولهذا يدعى اليوروبا أن كل قبائل السودان قد انحدرت منهم . ومهما يكن من أمر فإن الدراسات الجنسية (الإثنوغرافية) أثبتت أنهم لم يكونوا من أصل زنجي ، وإنما اختلطوا بالدماء الزنجية على نطاق واسع .

وقد أسس اليوروبا ملكا امتد من مصب النيجر شرقا حتى بلاد داهومي غربا . وكان يطلق على ملكهم اسم « ألافين » . وقد شق الإسلام طريقه إليهم من الشمال على يد الفلاني الذين استقروا في بلاد الخوصا . ويروى أن أحد ملوك اليوروبا (واسمه « أفونجا ») أرسل في طلب أحد الفقهاء المسلمين ليستقر في بلاطه . وسرعان ما أخذ كثيرون من الخوصا يفتدون إلى الجنوب ، فاستخدمهم هذا الملك في جيشه واعتمد عليهم في فتوحاته . ولما أحس أنهم قد غلبوه على أمره أراد إقصاءهم فقتلوه . وقد استطاع ذلك الفقيه أن يؤسس ملكه في « إيلورين » (Ilorin) وأن ينشر الإسلام فيها ، وأصبحت إمارة فلانية تدين بالطاعة لسلطان سكتو . وبدأ هؤلاء الفلاني يتوسعون في بلاد اليوروبا

ويفتحون كثيراً من مدنها . وبلغ من قوتهم أنهم استقدعوا ملك البلاد وأرغموه على اعتقاد الإسلام . ولما هاج شعب اليوروبا وأراد هذا الملك مقاومتهم أوقعوا به الهزيمة . وبذلك استقر نفوذ الفُلاني بين شعب اليوروبا . وعلى الرغم من أن الإسلام والمسيحية انتشرا بين اليوروبا لا يزال كثير منهم على الوثنية وقد قيل إن آلهتهم بلغوا ٤٠١ إلهًا ، وبعضهم يعبد المحيطات أو الصخور أو الأشجار العالية أو الجبال^(١) .

ويظهر أن مملكة اليوروبا بلغت درجة عالية من الثراء والثقافة . فقد بلغت قوة ولاية « أويو » (Oyo) أوج عزها حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ، وامتد نفوذها غربا إلى داهومي التي دفعت الجزية إلى ملك اليوروبا . وقد امتد نفوذ ملك اليوروبا عن طريق الحروب التي كانوا يشنونها في فصل الجفاف عادة . وإذا لم يحرز القائد اليوروبي النصر جرد من ألقاب الشرف ، وتوقعوا منه أن يبادر إلى الانتحار حتى لا يُرى وجهه في « أويو » . وقد أسس بعض القواد الذين لم يحرزوا النصر على الشعوب الخارجة عن نطاق نفوذ اليوروبا مستعمرات بين أهالي هذه الشعوب ، وآثر غيرهم من القواد المنتصرين أن يؤسسوا ولايات صغيرة بدلا من عودتهم إلى مناصبهم الأصلية وتبعيتهم لبلاط « أويو » . وقد دبت الغيرة إلى قلوب بعض الرعايا والحكام لاشتداد قبضة « الألفين » (الملك) وموظفي « أويو » الذين نعموا بالثروات التي تدفقت على الحاضرة من الأعمال التجارية والحربية التي اشتركوا فيها . وفي مستهل القرن التاسع عشر أخذ حكام الولايات يتحدّون سلطة الملك ويعلنون استقلالهم ، على حين رفضت الولايات التي كانت تؤدي الجزية الاعتراف بسلطان هذا الملك . ولذلك أصبح أهالي الأجزاء العليا لدولته ، وولاية « إيلورين » بوجه خاص ، من رعايا أمراء

الفلاني في شمالي نيجيريا ، ودخل حكام الجنوب في سلسلة من الحروب الطاحنة استمرت نحواً من قرن مما أثر في قوة اليوروبا تأثيراً سيئاً ، وتعرضت ثغور لاغوس^(١) ، وباداجري ، وأزدرا (بسكون الرء الأولى) وهى پورتو نوفو (أى الميناء الحديثة) لغارات الأوربيين طلباً للرقيق .

ولم تلبث هذه البلاد أن دخلت تحت الحكم البريطانى وتحت تأثير البعوث المسيحية . ففي سنة ٨٨٨ م خشى البريطانيون تدخل الفرنسيين فى شئون بلاد اليوروبا وغيرها من البلاد المجاورة ، فحثوا ملك « أويو » أو « الألافين » أن يبرم معهم معاهدة تقضى بدخول بلاده تحت الحماية البريطانية . وفى سنة ١٨٩٥ أثار ملك « أويو » المتاعب فى وجه البريطانيين بعد أن شعر بضياغ نفوذه بازدياد قوة البريطانيين الذين أرسلوا إليه حملة حربية اضطرتة إلى التسليم . وفى هذه السنة نفسها أصبحت جميع محميات اليوروبا تحت إشراف حاكم لاغوس ، ولم يعد يقف فى طريق تقدم التجارة البريطانية فى نيجيريا إلا عداء أمير « إيلورين »^(٢) .

وفى القرن العشرين استقطاع مسلمو الحوصا الذين يدين بعضهم بعقائد الطريقة التجانية أن ينفذوا إلى القبائل الوثنية فى نيجيريا الجنوبية حيث نشروا الإسلام فى مملكة اليوروبا . وكانت غالبية المسلمين فى الفترة التى سبقت الاحتلال البريطانى تقيم فى مدن كبيرة تكتنفها الأسوار ، ولكنهم أصبحوا الآن بحيث يستطيعون الاستقرار فى القرى على مقربة من أعمالهم الزراعية . وبذلك أخذ نفوذ الإسلام يزداد فى هذه البلاد ، وفى مملكة « إيجيبو » (Ijebu) فى نيجيريا الجنوبية لم يدخل الإسلام إلا فى سنة ١٨٩٣ ، حين شاهد أحد الرحالة بلدة بها عشرون مسجداً وأخرى بها اثنا عشر مسجداً . وقد انتشر

(١) يقول « فيدج » إن مدينة لاغوس أصبحت فيما بعد أقوى ولايات اليوروبا نفوذاً .

(٢) Fage, pp. 160—161.

الإسلام حديثاً بسرعة في كل مكان على طول ضفتي النيجر الجنوبية بوجه خاص ، حتى لقد أصبح من النادر أن تجد قرية وثنية بأسفل إادّه (Eddah) ، وهي مدينة على نهر النيجر جنوبي الحدود الشمالية لنيجيريا الشمالية^(١).

ويشبه قيام وسقوط بينين (Benin) التي دخلت تحت حوزة « أويو » قيام وسقوط أويو نفسها . فقد بدأت هذه الأسرة تؤسس نفوذها عن طريق الفتوح والغارات التي كانت تشنها طلباً للرقيق . ثم استقلت بينين عن سلطان ملك اليوروبا ، ولسكنها واصلت اعترافها بنفوذ إيفي (Efe) الروحي والثقافي . ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر أصبحت بينين مركزاً هاماً ، كما أصبحت الطريق التجاري الرئيسي بين بلاد اليوروبا والأوروبيين . وكانت صادراتها الرئيسية : القماش الأزرق اللون المنسوج من القطن والرقيق ، والفلفل ، والخرز المصنوع من المرجان الذي كان شائع الاستعمال على ساحل الذهب . أما الرقيق فقد انتشرت أسواقه في ساحل الذهب أولاً ، ثم في الجزائر البرتغالية في خليج غينا ، وأخيراً في أمريكا^(٢).

مملكة بُرنو شرقى نيجيريا

تقع بلاد برنو إلى الشرق من بلاد الحوصا ، وقد قامت فيها إمبراطورية عظيمة بسطت نفوذها على الصحراء الكبرى وعلى جزء من السودان . وأهم قبائل برنو قبيلة « كانورى » ، ويبلغ تعداد سكانها ١٥٠٠٠٠٠ وهي خليط من الدماء العربية والحامية والزنجية استقرت في بلاد برنو منذ قرون طويلة . وكانت « برنو » إحدى مقاطعات إمبراطورية « السكّانم » .

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٢) Page, pp. 88—92.

وفي سنة ١٨٤٩ م ظهرت مملكة برنو على خريطة برتغالية على أنها مملكة كبيرة . وفي القرن السادس عشر استطاعت أن تقف في وجه دولة كيجي بكسر الكاف والباء المشددة (Kebbi) التي استقلت عن مملكة « صُنغاي » . وكان جيش برنو في ذلك الوقت مسلحاً بالبنادق التركية ، وإلى هذا السلاح يعزى تفوق برنو واتساع رقعتها الذي بلغ أقصى مداه . على أن هذه المملكة لم تلبث أن انحلت كما انحلت غيرها من الإمبراطورية السودانية من قبل . وكانت مملكة برنو على هذا الحال من الضعف حين أعلن « عثمان دان فوديو » الجهاد على بلاد الحوصا ، وأخذت جيوشه في سنة ١٨٠٨ م تغزو بلاد برنو على الرغم من أنها كانت قد تحولت إلى الإسلام ، ولما حلت الهزيمة بجيش برنو فر ملكها وأخذت بلاده في الضعف ، إلى أن قيص الله لها رجلاً يسمى محمد السكاني الذي ولد في مدينة فزان من أب عربي وأم كانمية .

وقد أعلن محمد السكاني الجهاد على هؤلاء الفاتحين وانضمت إليه طائفة من أتباعه المتحمسين ، وهزم الفلانيين في موقعة فاصلة ، وأتخذ بلاد برنو ، وانضوى الناس تحت لوائه ورفض العرش الذي عرض عليه ، وأعاد الملك القديم إلى عرشه ، وظل هو يشغل بالعلم ، وإن كان في الواقع السيد المطاع في البلاد . وقد أصبحت « كوكا » التي بناها في سنة ١٨١٤ الحاضرة الحقيقية للبلاد . وقد زار محمد السكاني اثنان من الرحالة الإنجليز هما : دنهام (Denham) وكلاپرتون (Clapperton) بين سنتي ١٨٢٢ ، ١٨٢٤ ، وقد وصفا أحوال هذه البلاد في عهده وصفا دقيقا .

ثم أخذت مملكة برنو في الضعف من جديد ، ودخل الجيش المصري بقيادة « العبد راجح » مولى الزبير باشا بلاد « برنو » التي ظلت تابعة لمصر حتى قامت ثورة المهدي ، فحلت الهزيمة بجيش راجح ، ولكنه دخل بلاد برنو (م ٩ — انتشار الإسلام)

مرة أخرى ، وظل يحكم هذه البلاد إلى سنة ١٩٠٠ حين دخل الفرنسيون السودان الغربي وهزموا راجح وقضوا على حكمه . وقد طبقت النظم الإسلامية في بلاد برنوكا طبقت في بلاد الحوصا من قبل ، وإن كانت قد استخدمت ضرائب جديدة مثل ضريبة « هاكو بينيرام » أي ضريبة الدخل^(١).

مملكة الكانم ، شمال شرقي بحيرة شاد

كذلك تطرق النفوذ الإسلامي من مصر حتى دخل مملكة كانم أو الكانم (بفتح الكاف وكسر النون) ، وتقع إلى الشمال الشرقي لبحيرة شاد . وبعد أن اعتقد أهلها الإسلام في القرن الحادى عشر ، أصبحت الكانم دولة ذات أهمية كبيرة ، وبسطة سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة . ويقال إن أول ملوك كانم من المسلمين تولى الحكم حول نهاية القرن الحادى عشر أو في النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلادى^(٢). وقد ذكر أبو عبيد الله البكرى الجغرافى الأندلسى الذى عاش في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أن مملكة كانم كانت في عصره تمتد حتى نهر النيجر غربا ، وأنها كانت تضم جزءا من بلاد الحوصا . وقد استعان أهل كانم بالحفصيين في تونس ، واستطاعوا أن يفتحوا الصحراء كلها في نهاية القرن الثانى عشر الميلادى . وفي سنة ١٢٣٧ م ، زارت سفارة كانمية بلاد تونس . وقد تضاعفت قوة هذه البلاد في مئة السنة التالية ، ولكن الضعف قد تطرق إليها قبل نهاية القرن الرابع عشر الميلادى بعد أن أغارت عليها قبائل « البولالا » ، ثم استعادت قوتها مرة أخرى ، وبسطة نفوذها غربا حتى بلغت بلاد الحوصا . وقد اضطر عمر بن إدريس ملك كانم إلى نقل قاعدة بلاده

(١) Burns, History of Nigeria. pp. 50 - 51.

(٢) سيرتوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧١ ،

إلى غربي بحيرة شاد وأقام في بلاد برنو، وقد أصبح اسم مملكة كانم معروفاً بها منذ ذلك الحين^(١).

ويتعامل أهل كانم بالقماش الذي ينسجونه في بلادهم ويطلقون عليه اسم دَندى، ويبلغ طول الثوب منه عشرة أذرع أو أكثر. كما يتعاملون بالودع والخرز وقطع النحاس والورق على أساس تسعيرها بالقماش. وقد انتحل الكانميون مذهب الإمام مالك، فبنوا مدرسة للمالكية اتخذوها مركزاً للثقافة الإسلامية. ويتلثم جندهم، وهم لا يرون ملكهم إلا في يوم العيد، ولا يكلمه أحد إلا من وراء حجاب^(٢).

إمارات موسى — داجنبا^(٣)

ترجع الإمارات الخمس التي تقع اليوم بين نهر الفولتا (Volta) وانحناء النيجر إلى أصل مشترك، ونقف على هذه الحقيقة من أخبار أهلها التي يتناقضونها على ألسنتهم. ويمكن أن يستخلص من هذه الأخبار أن حوض نهر الفولتا الأعلى كانت تقطنه جماعات زنجية مستقرة تتكلم لغة تسمى لغة الغور (Gur)، وإن كان بعضها يتكلم لغة « الماندى ». وهذه الجماعات الزنجية قد تم الاستيلاء عليها في القرن الثالث عشر أو الخامس عشر الميلادي على يد طائفة من الفاتحين جاءت من الشمال الشرقي وأسست إمارات موسى — داجنبا. والرواية تسميهم بالرجال الحمر، وتعني بهم المولدين (بفتح اللام مع التشديد)، وتقول إنهم جاءوا من منطقة بحيرة شاد عن طريق زامفارا إحدى إمارات الحوصا السبع. ويبدو أن هؤلاء الفزاة كانوا يؤلفون فرعا من طبقة حاكمة تعيش قرب هذه

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة ص ٢٧٢.

(٢) انقلاشندي : صبح الأمتي ج ٥ ص ٢٨٠ — ٢٨١.

(٣) موسى بكسر السين مع التشديد وداجنبا بضم الجيم وسكون الميم.

البحيرة ، وأن هذه الطبقة كانت تريد أن تفر من الغارات البربرية في القرن العاشر الميلادي ، وتمخضت عن قيام إمارات الحوصا . ويبدو أن هؤلاء اللاجئين لم يجاوزوا زامفارا . ولكن نفوذ الحوصا سرعان ما انتشر في زامفارا ، ولم يطق اللاجئين على ذلك صبرا ، وإن كانوا قد تعلموا الكثير من نظمهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فاقتنوا الخيل وجندوا طائفة من الفرسان . إلا أنهم اضطروا إلى الهجرة نحو الجنوب الغربي ؛ فعبروا نهر النيجر ونزلوا في بلاد الغور .

ولم يكن للغور عهد بركوب الخيل ، فلم يستطيعوا مقاومة الغزاة الذين مضوا في تقدمهم غرباً حتى وصلوا إلى الحدود الشرقية للشعوب التي تتكلم بلغة الماندى . وقد أصهر هؤلاء الغزاة إلى المتكلمين بلغة الماندى ، وعاملوا الغور كما يعامل الرقيق ، وكانوا يتجرون فيهم مع بلاد المغرب . ولكن الغور كان أكثر عدداً واستطاعوا مع الزمن أن يؤثروا في الفاتحين الذين أخذوا عنهم لغتهم ودينهم .

وكانت أول إمارة أسسها الغزاة تقع إلى الشمال من مدينة مامبروسي (Mamprussi) الحالية ، وهي أولى هذه الإمارات . وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر استطاعت طائفة من الخيالة أن تمنع في تقدمها صوب الشمال فتهاجم المدن التجارية الواقعة على نهر النيجر وتتخطاها . وتدل الأخبار أن بلاد مَسِينَا (بفتح الميم وكسر السين مع التشديد) الغنية قد اجتاحت ، وأن مدينة تمبكتو قد نهبت في سنة ١٣٣٨ م . ثم قامت طائفة أخرى بغارة ثانية على شعب « البنكا » سنة ١٤٣٣ ، على أن هذه الغارة لم يكتب لها النجاح . وقد تلتها غارة أخرى (١٤٧٧ — ١٤٨٣ م) ، فحال ملك مَسِينَا دون تقدمهم صوب الشمال ، واستطاع هؤلاء القوم أن ينظموا من الشعوب التي فتحوا بلادها ثلاث إمارات كبرى ، كما أخذوا يوسعون رقعتها نحو الجنوب والجنوب الغربي . فقامت إمارة داجُنيا .

وبهذه الطريقة استطاعت إمارات موسي - داجنيا أن تحتل منطقة الحشائش (Savanna) الواسعة الواقعة بين منطقة الغابات ومنحني نهر النيجر . وقد أفاد أهل هذه الإمارات من تجارة الرقيق ونبات الكولا والذهب . ولكن أمراء صُنغاي ظلوا حتى القرن السابع عشر يحولون بينهم وبين الاستيلاء على هذه الأسواق . وعلى الرغم من ضغط صُنغاي في الشمال والأشقي في الجنوب ، استطاعت هذه الإمارات أن تعيش طويلا ، وكانت من أكثر الإمارات استقراراً وأطولها بقاء . ولما جاء الأوربيون في نهاية القرن التاسع عشر وجدوا هذه الإمارات على حالها ، فوجدوا سلسلة الملوك قد تعاقبت عليها منذ خمسمائة سنة . ويرجع ذلك إلى أن هؤلاء الحكام قد نجحوا في فرض عبادة الأجداد الذين أصبح الناس يقدسونهم . إلا أن طائفة من الشعوب الأصلية قد أفلحت في أن تحتفظ بدمها القديم ، لأنها فرت من الغزاة ، ولجأت إلى منطقة صخرية كثيرة الغياض^(١) .

مملكة البمبارا^(٢) - في سيجو وكارتا

وننتقل الآن إلى الكلام على مملكة البمبارا فنقول إن نابليون الثالث بعد أن اعتلى عرش فرنسا سنة ١٨٤٨ ، أعلنت حكومته عن رغبتها في اتباع سياسة التوسع في تجارة السفن ونشر النفوذ الفرنسي على طول النهر إلى داخل البلاد . وفي أوائل القرن التاسع عشر كان الجزء الغربي من السودان إلى الغرب من مملكة الحوصا ينقسم إلى أربع إمارات هي من الغرب إلى الشرق : إمارة فوتالون (أو التكرور) ، إمارة كارتا ، إمارة سيجو ، إمارة مسينا . وكانت إمارة سيجو وكارتا أقوى هذه الإمارات ، وكانت الإمارة الأولى

(١) Fage, pp. 36—38.

(٢) بفتح الباء وسكون الميم .

في وادي النيجر ووادي باني جنوبي مدينة كانجبابا غرباً حتى تمبكتو شرقاً .
وقد امتدت أطرافها شمالاً حتى الصحراء . أما الإمارة الثانية ، وهي كآرتا ،
فقد كانت تحدد بإمارة سيجو من ناحية الغرب وتمثل البلاد الواقعة بين الصحراء
وحوض السنغال الأعلى .

والشعب الغالب على هاتين الإمارتين هو شعب الببارا ، وهم يتكلمون
بلغة الماندى . وقد أوغلوا شرقاً في حوض النيجر وحوض باني منذ القرن الثالث
عشر الميلادي تقريباً . وكانوا في الأصل ينتمون إلى إمبراطورية مالي . ولكن
بعد أن هزم ملوكها على أيدي « الأسكياس » ، بدأت إمارة صغيرة من شعب
الببارا تظهر في منطقة سيجو واستطاعت في القرن السابع عشر أن تستقل عن
مملكة مالي وعن إمارة تمبكتو الغربية التي كان يحكمها باشوات مراكش .
وبين سنتي ١٦٦٠ — ١٧١٠ م أصبحت هذه الإمارة الصغيرة في عهد أحد ملوكها
دولة كبيرة منظمة غاية التنظيم ، تدفع لها مدينة تمبكتو الجزية . وقد رفض قسم
من شعب الببارا أن يعترف بهذا الملك وترك بلاده وهاجر صوب الشمال الغربي
وأسس مملكة كآرتا . وقد تنافست هاتان المملكتان وقامت بينهما حروب
طوال القرن الثامن عشر ، ولكن الغلبة كانت لمملكة سيجو التي دفعت
منافستها كآرتا تدريجياً صوب الغرب .

ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي استقرت طائفة من رعاة الفلاني بين
الزنج المشتغلين بالزراعة في منطقة مسينا ، وكانوا يتكلمون بلغة الماندى .
وتحتل بلاد مسينا هذه الجزيرة الحصبة الواسعة التي تروىها مياه النيجر
ورافده باني جنوبي مدينة جني (بكسر الجيم والنون مع التشديد) . وقد ظل
وضع هؤلاء الفلاني في هذه البلاد شاذاً حتى القرن التاسع عشر ، فقد كانوا
يعيشون بعيدين عن الماندينجو : لهم زعمائهم الذين يقولون أمرهم . ويسمون

« دياڤو » (بضم اللام مع التشديد) (Diaïlo) . ولكن هؤلاء الزعماء لم يكونوا مستقلين إذ كانوا يعترفون بسلطان ملوك مالى ، ثم بباشوات تمبكتو ، ثم بملوك البمبارا فى سيجو .

وكان هؤلاء الفلانيون وزعمائهم وسادتهم من البمبارا وثنين ، إلا أن كثيرين منهم بدءوا فى العقد الأول من القرن التاسع عشر يدخلون فى الإسلام ، وذلك بتأثير أحمد لوبو . وهو من أصل فلانى ، ولد فى مسينا ، واشترك فى جيش عثمان دان فوديو فى فتح بلاد الحوصا . ومن ثم قامت حركة دينية انتشرت أثرها حتى هددت سلطان زعيم « دياڤو » . وقد استنجد هؤلاء الفلانيون بملوك البمبارا فى سيجو للقضاء على المسلمين . غير أن المسلمين قضوا عليهم وهزموا جيش سيجو ، واستطاعوا حول سنة ١٨١٠ م أن يؤسسوا مملكة إسلامية حكمت بلاد مسينا كلها .

أما مملكة فوتا ، إلى الجنوب من حوض السنغال الأدنى ، فهى حفيذة مملكة التكرور القديمة التى تغطى نفوذها قبل غزوات البربر حوض السنغال ، فبلغ بلاد موريتانيا التى تكوّن الجزء الجنوبى من بلاد المغرب . وتاريخ هذه البلاد غريب الأطوار . فقد كان يحكمها بعض المهاجرين البيض من غانة أحياناً ، ويحكمها بعض المهاجرين من « كانياجا » أحياناً أخرى ، وأحياناً يحكمها الولوف ثم الفلانى . وكانت فوتا الموطن الأصيل لشعب الفلانى ، ومنها خرجوا وانتشروا صوب الشرق إلى بلاد الحوصا . وكان سكانها الأصليون — كما ذكرنا — من شعب التوكولور ، وهم بقايا المرابطين ، ويمتتون بصلة القرابة إلى « الولوف » و « السيرير » وقد تأثروا بموجات الهجرة المتعاقبة وبالإسلام ، وانتهى بهم الأمر إلى أن تعلموا لغة الفلانى . ولكنهم كانوا يختلفون عن الفلانى ، فقد أسلموا منذ عهد بعيد وأسهموا

منذ البداية في حركة المرابطين التي بدأت عند مصب السنغال . وفي القرن الخامس عشر الميلادي كونوا أمرة تولت الحكم وطبقت مذاهب السنة المتشددة .

الحاج عمر — عُمر وكبا

وفي سنة ١٨٣٨ م ظهر من بين أفراد البيت الحاكم في « فوتا » رجل قام بدور خطير في تاريخ السودان الغربي ، وهو الحاج عمر الذي قام بحركة وحدت السودان من بلاد فوتا إلى تمبكتو تحت سلطانه . وقد ترك هذه البلاد بين سنتي ١٨٢٠ و ١٨٣٨ لحج بيت الله في مكة ، حيث اعتنق مذهب التجانية وبويع بزعامه هذا المذهب في غربي السودان . وقد زار مكة كما زار مصر وبلاد برنوسكتو . وكانت تربطه بأمرأه هذه البلاد صلات المودة والإخاء ، وتأثر بما وجدته فيها من نظم طبقها في فتوحه . ولما عاد الحاج عمر من الحج استقر في « فوتا جالون » حيث أسس رباطاً للعبادة أصبح مركزاً للثقافة الإسلامية والنشاط التجاري ، وانضوى تحت لوائه نفر آمنوا برسالته ووهبوا أنفسهم للإسلام وتسليحوا بالأسلحة الحديثة التي اشتروها من التجار الأوربيين . وفي سنة ١٨٤٨ م كانت قوة الحاج عمر قد نمت نمواً أزعج المسلمين في إمارة فوتا ، واضطر إلى السير صوب دينجويريه (Dinguiray) ، وأعلن الجهاد على الإمارات الوثنية في بلاد السودان .

وقد استهل الحاج عمر هذا الجهاد بغزو بلاد كآرتا التي دانت له بالطاعة في سنة ١٨٥٤ م . ثم عمل على التعاون مع ولاية مسينا لمهاجمة إمارة سيجو . ولكن ملك مسينا رفض أن يجيبه إلى طلبه ، فاتجه الحاج عمر صوب الغرب وأغار على مدينة « خَسُو » (بفتح الخاء والسين مع التشديد) ، ثم على جَلَمَ (بفتح الجيم واللام) ، وهي إمارة قامت في حوض السنغال الأوسط . غير أن نشاط الفرنسيين في هذه الجهات بين سنتي ١٨٥٧ و ١٨٥٩ أوقف تقدم الحاج عمر

في هذه البلاد ، فاتجه نحو الشرق ، ففتح مملكتي سيجو (١٨٦١) ، ومسينا (١٨٦٢) ، ثم استولت قواته على تُمبكتو (١٨٦٣) .

ولم تكن إمارة الببارا في كآرتا هي الإمارة الوحيدة التي قاومت هذا الفاتح ووقفت في سبيله ، وانتهى أمرها بالهزيمة . وكان هم الحاج عمر كله منصرفا إلى نشر الإسلام ، وإن كان بعض أتباعه قد طمعوا في الغنيمة . غير أن الأطماع الدينية والديوية قد أثارت بعض الشعوب في وجه هذا الفاتح . فقد ثارت إمارة الببارا في سيجو وإمارة الفلاني في مسينا ، وانتهى الأمر بمقتله سنة ١٨٦٤ م . وقد بدت مملكة الحاج عمر بعد موته على وشك الزوال ؛ فقد ولى أولاده وبنى أخيه الولايات ، وقامت الثورات في وجههم ، كما فرق التنافس بينهم ، غير أن ابنه أحمدو (من بنت سلطان سُكُتو) ادعى الزعامة على منافسيه ، وقامت حروب كثيرة أساءت إلى السكان ونشرت الخراب في ولايات كثيرة ، وأصبح أحمدو مكروها من الرعية ، في الوقت الذي بدأ فيه الفرنسيون يتقدمون إلى بلاده ، وانتهى الأمر بهزيمة ووفاته سنة ١٨٩٨ .

وكانت إمبراطورية «التوكولور» التي أسسها الحاج عمر آخر الإمبراطوريات الكبرى في السودان الغربي التي أسستها طائفة من الغزاة المغامرين المسلحين . وبعد هزيمة أحمدو ، وجد الفرنسيون الطريق أمامهم ممهدا لاحتلال البلاد التي كانت تدين بالطاعة للحاج عمر ، وانتهى الأمر بنشر النفوذ الفرنسي في هذه البلاد سنة ١٨٩٨ م . ولم يقف أمام الفرنسيين غير سموري (بفتح السين وضم الميم) ملك الماندينجو الذي قاوم التقدم الفرنسي زهاء ست عشرة سنة (١٨٨٢ — ١٨٩٨ م)^(١) .

وفي أوائل القرن العشرين حاول أحد المرابطين ويدعى عُمرُو (بضم العين وفتح الميم وضم الراء) كبا (بفتح الكاف) (Umaru Kapa) أن يحول

(١) Fage, History of West Africa, pp. 144 — 149.

النجار إلى الإسلام ، فأخفق في محاولته . وقد أسس عمرو جمعية لإخوان دينية جديدة كانت على صلة بالقادرية . فلما أخفق في جذب أبناء دينه وجه اهتمامه إلى النجار الوثنيين ، وحاول أن يحولهم إلى الإسلام ويضمهم إلى جماعته . ويظهر أن عمرو كان في طريقه إلى النجاح . وكان قد حول إلى الإسلام من قبل قرية وثنية في ولاية سنسندنج (Sansanding) ، حين طرد رئيس الولاية هذا الداعي إلى خارج حدود ولايته ، وأمر الذين دخلوا حديثاً في الإسلام من النجار أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة^(١) .

وحيثما كان الزواج بين أمثال هذه الأجناس وبين غيرهم كالعرب والبربر الذين أكثروا من هذا الزواج ، كان اندماجها في المسلمين يسير سيرا متتظماً . أضف إلى ذلك ما كان هنالك من نشاط ملحوظ في الدعوة قامت به قبائل الفلاني والحوصا والماندنجو التي امتازت بمحاستها في سبيل دينها ، مما ساعد على نمو المجتمع الإسلامي لولا تلك الحروب الطاحنة التي جعلت كل دويلة إسلامية تقضى على الأخرى . وقد أدى ذلك إلى قيام قبيلة مالي على أنقاض غانة في القرن الثالث عشر الميلادي ، وتحطيم صنغاي لغانة في أوائل القرن السادس عشر ، وتخريب صنغاي بعد ذلك بقرن على أيدي العرب . وقد دالت هذه الدول الإسلامية بسبب المذابح الكثيرة التي تميزت بها الحروب في السودان ، واستردت الوثنية كثيراً من مكائنها التي كانت قد فقدتها . وكما كانت الحال في المسيحية كذلك كانت في العالم الإسلامي ، إذ كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة في الدعوة ، ورضى المسلمون في بعض أجزاء السودان أن يتركوا الوثنية التي كانت تحيط بهم دون أن يمتد إليها أي نشاط في نشر تعاليم الإسلام^(٢) .

(١) Delafosse. Les Confréries musulmanes et Le maraboutisme dans les pays du Sénégal et du Niger No. 4, Paris, 1911.

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٢ .

الباب الرابع

الدول الإسلامية

في شرق القارة الإفريقية

مملكة النوبة ودنقلة

ذكرنا في الباب الأول عند كلامنا على الطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقيا ، أن نهر النيل كان الطريق التجارى للعرب منذ عصور بعيدة على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية في طريقهم فاتحين أو مهاجرين ، كما ذكرنا أن العرب قد حاولوا بعد فتح مصر فتح بلاد النوبة في عهد خلافة عمر ابن الخطاب ، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها ، وعقدوا مع أهلها صلحا كان أشبه بمعاهدة اقتصادية . وكان هذا أول اتصال رسمى بين العرب وشمالي السودان . غير أن أهل النوبة لم يحافظوا على الصلح ، ونقضوا ما كان بينهم وبين المسلمين من عهد ، فسارت جيوش النوبيين إلى صعيد مصر ، فغربوا وأفسدوا ، فغزاهم والى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٣١ هـ ، وتغلب عليهم ، وخرب دنقلة ، وكانت - كما يقول المسعودى^(١) : « دار مملكة النوبة ، بينها وبين أسوان أربعون يوما » . ولم ير ملك النوبة بدا من طلب الصلح ، وكُتب بين المسلمين عهد يقوم على التسامح الدينى وحسن الجوار^(٢) وكان هذا الصلح عبارة عن هدنة أو معاهدة عدم اعتداء ، تقوم على تبادل المنافع الاقتصادية بين البلدين : فمصر تمد النوبة بالحبوب والثياب والخيل ، والنوبة

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٠٠ .

تمد مصر بالماشية والرقيق الذي كان يستخدم في فلاحة الأرض لينصرف المسلمون للجهاد . ومما جاء في هذا العهد بعد البسملة :

« عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، لعظيم النوبة وجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة ، من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة ، أن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الدمة ، أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله ، وأمان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، أن لا نحاربكم ولا نغصب لكم حرباً ولا نفزركم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد ، حتى يخرج عنكم . وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين ، حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستولوا عليه ، ولا تمنعوا منه ، ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاوره ، إلى أن ينصرف عنكم . وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصلياً . وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمه . وعليكم في كل سنة ثلاث مئة وستون رأساً ، تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب ، يكون فيها ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ، ولا عجوز ، ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والي أسوان . وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ، ولا منعه عنكم ، من حد علوة إلى أرض أسوان . فإن أنتم آوئتم عبداً لمسلم ، أو قتلتم مسلماً أو معاهداً ، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، أو منعتم شيئاً من الثلاث مئة رأس والستين رأساً ، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . علينا بذلك عهد الله وميثاقه ودمته ،

وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح ، وذمة الحواريين ، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم ، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك . كتبه عمرو بن شَرْخَبِيل سنة إحدى وثلاثين^(١) .

وإن الناظر إلى هذا العهد ليقف على سياسة المسلمين بإزاء النوبيين ، وكيف خیرهم المسلمون بين الإسلام والبقاء على دينهم ، وأعطوهم العهود والمواثيق على ألا يتعرضوا لهم « إلا إذا آذوا مسلماً أو ذمياً ، أو تعرضوا للمسجد الذى بناه المسلمون فى دنقلة بسوء ، أو اعتدوا على المسلمين أو أغاروا على أرض مصر ، أو عدلوا عن إرسال ما تعهدوا بإرساله من الرقيق . كما يقضى هذا العهد بأن يتعهد النوبيون المسجد الذى بناه المسلمون بالكنس والإضاءة ، وأن يولوه ما هو خلیق بدور العبادة من احترام ، وألا يحولوا دون إقامة المسلمين الصلاة فيه ، مما يدل على اهتمام المسلمين بإقامة الشعائر الإسلامية فى السودان . وكانت الكنيسة النوبية إذ ذاك تعترف بسيادة بطرقي الإسكندرية واليعقوبى عليها ، ولما تسرب الانحلال إلى الكنيسة المصرية تسرب بدوره إلى الكنيسة النوبية .

يقول المقرئى^(٢) : « تجمع لعبد الله بن سعد بن أبى مرَح فى انصرافه من النوبة على شاطئ النيل ، البُجَّة (أو البُجاة) ، فسأل عن شأنهم ، فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون إليه ، فهان عليه أمرهم ، فنفذ وتركهم ، فلم يكن لهم عقد ولا صلح . وكان أول من هادنهم عبید الله بن الحَبَّاب (بفتح الحاء وسكون الباء) السُّولى » ، فى أواخر القرن الأول الهجرى . وكان

(١) المقرئى : ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) خطط (ج ١ ص ١٩٥) نقلاً عن ابن عبد الحكم .

البجة يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر ، كما انتشروا في بلاد النوبة وغيرها ، ولا سيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر في الأراضى الممتدة بين دنقلة وأسوان تقريباً .

وبهذا يكون العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجة اتصالاً متعاضداً ومروراً وانتقالاً ، وأن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرق السودان واستقروا في أرض الجزيرة . ويبدو أن العرب اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالبجة في القرن الثامن الميلادي عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادى النيل ، وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليهم تجاراً واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مفاوز الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين . ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم . فهذه كلها ملائسات ومناسبات مهدت أول الأمر للعرب سبيل الاختلاط بالبجة في شرق السودان ، وكانت من العوامل التي ساعدت على تعريب هذه المنطقة .

غير أن البجة لم يحافظوا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع عبيد الله ابن الحبش ، فكثرت غاراتهم على جهات أسوان ، واشتد إيذاؤهم للمسلمين فيها ، فرفع أمرهم إلى الخليفة المأمون العباسي (٢١٦ / ٨٣١) ، فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد بينهما وبين كَثُون (بفتح الكاف وضم النون مع التشديد) بن عبد العزيز زعيم البجة . ومن أهم شروط هذا العهد التي تبين لنا مدى اتصال العرب بمنطقة شرق السودان :

١ — أن تكون بلاد البجة من حدود أسوان إلى حد ما بين دَهْلَك (بفتح الدال واللام وسكون الهاء) وباضع ملسكا للخليفة ، وأن يكون البجة

ورئيسهم عبيداً له ، على أن يكون كنون ملكاً على البجة . وهذه أول مرة تكون فيها منطقة السودان ملكاً لخليقة ، فقد كانت المناطق المعروفة للعرب يومئذ مستقلة قائمة بذاتها ير بطها عهد بأمر المؤمنين أو بولاته .

٢ — أن يؤدي ملك البجة الخراج أو « البقط^(١) » (بفتح الباء وسكون القاف) كل عام على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار .

٣ — أن يحترم البجة الإسلام وألا يذكره بسوء ولا يعينوا أحداً على أهل الإسلام .

٤ — ألا يمنعوا أحداً من المسلمين الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً .

• — ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مقيماً مجتازاً أو حاجاً ، فهو آمن حتى ينزح من بلادهم . وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين كانوا يذهبون إلى شرق السودان للتجارة أو للإقامة أو المرور ، أو للحج ، وهي في مجموعها مما تدعو إلى الاستقرار أو البقاء في تلك المنطقة .

(١) قال المقرئ (خطوط ج ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠) : « البقط ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ضريبة عليهم فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي إما من قولهم في الأرض بقط من بقل وعشب أي لينة من مرعى ، فيكون معناه على هذا نبذة من المال ، أو يكون من قولهم إن في بي تميم بقطاً من ربيعة أي فرقة أو قطعة ، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه . ومنه بقط الأرض فرقة منها ، وبقط الشيء فرقة : والبقط أن تعطى الحبة على الثلث أو الربع ، والبقط أيضاً ماسقط من التمر إذا قطع ... فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة . وكان يؤخذ منهم قرية يقال لها القصر ، مسافتها من أسوان خمسة أميال ... وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص . ولعل معنى بقط «هد (Pact) . وقد أورد المقرئ (خطوط ج ١ ص ٢٠١) ما كان يدفعه أهل النوبة للمسلمين ، وهي ٣٦٠ رأساً من الغنم ، ليبيت المال ، ولوالى مصر أربعون رأساً ، ويدفع المسلمون ألف إردب من القمح وثلاث مئة إردب أخرى لرسول ملك النوبة ، وكذلك من الشعير ، عدا فرسين ومائة ثوب وأربعة أثواب من القباطى هذا أنواع أخرى من الأثواب » .

٦ — إذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال^(١) .

وتدل هذه الشروط على أن العرب المسلمين كانوا يترددون على شرق السودان تجاراً ومقيمين ومجتازين وحجاجاً ، وأن من البجة من أسلم ، وأن المسلمين بها مساجد معمورة في أكثر من بلد ، وأن عمال الخليفة كانوا يغشونها لقبض الجزية . فهذه المنطقة إذن أسبق مناطق السودان إلى الدخول تحت لواء الإسلام ، وأهلها أول من أسلم ودخل في هذا الدين قبل أن يسلم أهل شمالي السودان .

وكان هناك اتصال بين ملك النوبة والخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) بسبب العهد الذي أبرم بين النوبة والمسلمين . فقد أرسلت السفراء ليجددوا هذا العهد ، وزار ملك النوبة قاعدة مصر حيث قوبل بمظاهر الاحترام والتكريم وعاد إلى بلاده يحمل الهدايا . وفي عهد الخليفة المتوكل نقض البجة هذا العهد ، وامتنعوا عن أداء الجزية التي كانت مقررة عليهم ، وتعرضوا لمن كان في مناجم الذهب من العمال والحفارين ، وامتدت غاراتهم على أعالي الصعيد ، ونهبوا بعض المدن المصرية كإسنا وأسوان . ولما علم الخليفة بذلك ، شاور كبار رجال دولته ، فذكروا له أن أهالي هذه البلاد يقيمون في مناطق وعرة بعيدة عن العمران ، وأن الوصول إليها شاق مرهق ، كما بينوا له أن بين هذه البلاد وبين البلاد الإسلامية (أى وادى النيل من الناحية الشرقية حيث إقليم أسوان) مسيرة شهر في أراضٍ مقفرة وجبال وعرة ، وبرارى موحشة ومقاويز معطشة ، وطرق يتعذر فيها الحصول على المساء . وأضافوا أن هذه الحملة تستغرق وقتاً لا يقل عن شهر يتزود فيه الجيش بما

(١) القرينى : (خطوط ج ١ ص ١٩٥-١٩٦) .

يحتاج إليه من الماء والأقوات والعلوفات ، وإلا تعرض جنده للهلاك ، وأخذهم البجعة من كل جانب بمعونة أهل الحبشة الذين كثيراً ما مددوا إليهم يد المساعدة من قبل .

وقد أثارت هذه الأنباء مخاوف الخليفة . ولكن أحد قواده أظهر استعداداً لمحاربة البجعة ، وجهزت الحملة بما تحتاج إليه من أسلحة ومؤن . وسار الجيش عن طريق البحر الأحمر حتى وصل إلى عيذاب ، وسار هو وجيشه مقتحماً البراري الموحشة ، وأوغل في بلاد البجعة حتى جاوز مناجم الذهب وبلغ قلاع البجعة ، فخرج إليه ملكهم « على بابا » في جيش أضخم بكثير من جيش القمي (القائد العباسي) ، وهم على إبل فره^(١) تشبه المهارى^(٢) ، فتحاربوا أياماً ، ولم يصدّقهم على بابا القتال لتطاول الأيام وتقفى أزواد المسلمين . وعلوفاتهم ، فبأخذهم بغير حرب . فأقبلت المراكب التي فيها الأقوات في البحر ، ففرق القمي ما فيها على أصحابه ، فأتسعوا . فلما رأى على بابا ذلك قصدهم فاقتتلوا قتالاً شديداً . وكانت إبلهم زعزعة^(٣) تنفر من كل شيء . فلما رأى القمي ذلك جمع كل جرس في عسكريه وجعلها في أعناق خيله ، ثم حمل على البجعة ، فنفرت إبلهم من أصوات الأجراس ، ومرت على الجبال والأودية . وتبعهم المسلمون وهم يقتلون ويأسرون عدداً كبيراً منهم حتى أدركهم الليل ، فرجعوا إلى معسكرهم ، ولم يقدر القمي على إحصاء القتلى لكثرتهم . فطلب على بابا الأمان ، فأمنه القمي على أن يؤدي ما عليه ، فحمل إليه الخراج عن المدة التي منعها ، وهي أربع سنين ، وعاد إلى مصر ثم إلى بغداد ومعه على بابا . فلقى الخليفة في مدينة سامرا حاضرة الدولة العباسية آنذاك ، فرحب به وخلع عليه وولاه حماية الطريق في بلاده .

(١) الفاره : الضخم .

(٢) جمع مهريّة : نسبة إلى مهرة .

(٣) تنفر من كل شيء .

فهذه المناسبة الحربية التي حملت المسلمين على محاربة البجة مكنتهم في أرضهم وأقرت حقوقهم وحملت البجة على احترام العهد الذي قطعوه على أنفسهم . ومن الثابت أن العرب وخاصة ربيعة وجهينة ، قد كثر عددهم في أرض السودان واختلطوا بالبجة . وللبجة أثر كبير في إقليم أسوان حتى وقتنا هذا ، فإن قبائل العبابدة والبشارية والمليكاب والميدندوه المنتشرين في الأراضى الممتدة من أسوان إلى بلاد السودان ليسوا سوى قبائل البجة أو البجاة .

وكان تدفق العرب على مصر والسودان متمشياً مع الأحداث التاريخية في البلاد العربية . فلما نجح أحمد بن طولون في تأسيس الدولة الطولونية في مصر سنة ٨٦٨ م (١٠٥٤ هـ) ، كانت هذه الخطوة فاتحة عهد جديد في تاريخ مصر ، فلم يعد يحكمها ولاية من العرب ، بل أصبح يحكمها ولاية من الترك المنافسين للعرب . فالعهد الجديد الذي يرجع إلى عهد الخليفة المعتمد العباسى ، ذلك العهد الذي أقصى العرب عن مكاتهم المرموقة ، أثار في نفوسهم الامتعاض والتذمر ، وأخذوا في الهجرة جنوباً وغرباً ، أى إلى بلاد السودان وبلاد المغرب تخلصاً من قبضة الأعاجم .

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة وهى مرحلة التسليم التى أعقبت الظروف الحربية . ثم تلتها الخطوة الجريئة الأخيرة من عهد ابن طولون حتى عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية ، والقضاء على مملكة النوبة فى الشمال والجنوب . أما ابن طولون فقد سار واليه عبد الرحمن العمرى ليؤدب النوبة فى الشمال . وكان معظم رجاله من ربيعة وجهينة . فانتصر العرب على النوبة . وولوا وجوههم شطر البجة ، وكانوا يؤذون من فى المناجم من المسلمين ؛ فأخضعوهم ، وترك العمرى وراءه من بنى ربيعة وجهينة من أقاموا أكثروا العماره حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب

التي تحمل من القلزم (وهي مدينة السويس الحالية ، إلى عيذاب على البحر الأحمر .
فلما كان القرن الحادى عشر الميلادى ، وبلاد النوبة لاتزال على المسيحية ،
ظهرت بين أسوان وحاضرة النوبة العليا إمارة عربية يحكمها نخذ من ربيعة
استقروا على مقربة من أسوان واختلطوا بالنوبيين عن طريق الزواج ؛ وذهبت
منهم جماعة شرقاً إلى البجة ، واختلطوا بهم أيضاً حتى تكونت منهم إمارة
أولاد الكنز .

كانت المناوشات قائمة بين ولاية مصر وبين النوبة والبجة الذين اشتبكوا
مع الأيوبيين كما اشتبكوا مع المماليك البحرية في القرن الثالث عشر الميلادى حين
جلس على عرش النوبة ملك يسمى « شكندة » (بضم الشين والكاف
وسكون النون) كان يؤدى لسلطان مصر الجزية ويؤدى له فروض الطاعة .
فثار عليه خاله « داود » في سنة ١٢٧٥ م وانتزع الملك من يده ، وامتنع عن دفع
الجزية لسلطان مصر ، وجاوز حدود مملكته ، فمات بشفرة عيذاب ، وأغار على بعض
القرى المصرية حتى قربت جيوشه من مدينة أسوان . وقد سارت إليه الجيوش
المصرية فلم تدركه ولكنها قبضت على فرسانه .

وقد قصد الملك الخلع مصر واستنجد بسلطانها الظاهر بيبرس ، فأعد
جيشين كشيخين ولاهما اثنين من أمهر قواده . وفي خارج مدينة دنقلة حلت
الهزيمة بداود ، ولكنّه عبر النيل ، وأعيد شكندة إلى عرشه ، وتعهد بأن يؤدى
الجزية إلى سلطان مصر^(١) . وعرض القائدان المصريان على أهل النوبة الإسلام
أو الجزية ، فاخترأوا الجزية ، وكتبوا نسخة من اليمين حلف عليها الملك ، ونسخة
أخرى من هذا اليمين حلفت عليها الرعية . وهالك نص هذه الشروط التى حلف
عليها شكندة ملك النوبة :

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٠٢ .

« والله والله والله ، وحقّ الثالث المقدس ، والإنجيل الطاهر ، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور ، والمعمودية والأنبياء والرسل الحواريين والقديسين والشهداء والأبرار ، ألاّ أجدّد المسيح كما جحد يودس ، وأقول فيه ما تقول اليهود أنتى أخلصت نيتى وطويّتى من وقتى هذا وساعتى هذه ، لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه . وإننى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته . وإننى مادمت نائبه لا أقطع ما قرّر فى كل سنة تمضى ، وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصّل لمن تقدّم من ملوك بالنوبة ، وأن يكون النصف من المتحصّل لمولانا السلطان . . . والنصف الآخر رصداً لعارة البلاد ، وحفظها من عدو يطرقها ، وأن يكون على فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة ، ومن الزرافات ثلاثة ، ومن إناث الفهود خمسة ، ومن الصّهب الجياد (الخيل) مائة ، ومن الأبقار الجيدة أربعمائة رأس . وإننى أقرّر على كل نفر من الرعية التى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً . وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه (كذا) شككدة ولأمه وأقاربه ، ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور ، أحمله إلى الأبواب العالية . وإننى لا أترك شيئاً منه ، قلّ ولا جَلّ ، ولا أخفيه ، ولا أمكن أحداً من إخفائه . ومتى خرجت من شىء مما قرّر على أعلاه كنت بريئاً من المسيح ، ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دينى النصرانية ، وأصلى لغير الشرق ، وأكفر بالصليب ، وأعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود . ثم إننى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً . ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته إلى الأبواب العالية . وإننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقته . وإننى لا أنفرد بشىء من الأشياء ، وإننى عبد مولانا السلطان عزّ نصره وغرّس صنائعه ، وسيفه المنصور . وأنا ولى من والاه ، وعدو من عاداه . والله على ما أقول وكيل وشهيد . »

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي كان الإسلام قد تسرب إلى مدن النوبة السفلى ، وكان للزواج بين العرب والنوبيين أثر في إسلام الأخيرين ، حتى أصبح صاحب دنقلة من رعايا صاحب مصر ، وجعل يخطب على منابر بلاده « لخليفة العصر وصاحب مصر » : فلما كانت سنة ١٣١٩ م زالت مملكة النوبة من الوجود ، وأصبح ملوك النوبة الأعيب في أيدي القبائل العربية .

ويظهر أن المملكة النوبية المسيحية قد صارت ، كما يقول سيرتوماس أرنولد^(١) ، إلى الزوال ، لظهور الانقسامات الداخلية من ناحية ، وهجمات القبائل العربية والإفريقية التي كانت تغير على حدود هذه المملكة من ناحية أخرى ، وأخيراً لقيام دولة الفونج القوية في القرن الخامس عشر .

ومنذ ذلك الوقت تدفقت موجات من العرب ، ولا سيما عرب جبهينة ، إلى داخل السودان حتى بلاد الحبشة ودارفور . وفي سنة ١٣٨٥ م أخذ نفوذ بني السكّز يمتد حتى منطقة عيذاب ، وبلغ من شدة تأثيرهم ببلاد النوبة ، أنهم احتفظوا باللهجة النوبية حتى بعد أن اعتنق أهل النوبة الدين الإسلامي^(٢) في القرن الثالث عشر الميلادي .

وفي سنة ١٥١٧ م هزم السلطان سليم الأول المماليك البرجية في مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية عثمانية ، ومد قواده نفوذ الأتراك العثمانيين حتى الشلال الثالث ، وبسطوا السيادة العثمانية على شعب الشكوت (بضم السين مع التشديد) والمحس (بفتح الميم والحاء) (قبائل نوبية) سنة ١٥٢٠ م ، وأقاموا حاميات عثمانية في أسوان وإبريم . وكانت هذه الحاميات من أهل البوسنة يقودهم قواد من الأتراك يسمون كُشافا . ومن الغريب أن هؤلاء

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٩٩ .

(٢) Trimingham, Islam in the Sudan, p. 83.

الناس تزوجوا من النوبيين ، وسلّلتهم يسميها السودانيون إلى الآن « الغز » . وظل هذا النسل يحكم بلاد النوبة زهاء ثلاثة قرون ، وما زال بعض البرابرة إلى اليوم يدعون انتسابهم إلى الغز . ولم يكن للحكومة المركزية سلطان فيما وراء أسوان ، وخصوصاً حين استطاعت قبائل هواارة المغربية أن تسيطر على صعيد مصر في القرن الثامن عشر . وقد استقل « الغز » تماماً ، وإن كانوا قد اعتادوا أن يرسلوا إلى القاهرة ضريبة سنوية من العبيد والبلح الإبري ، واستطاع ثاني هؤلاء الكشاف أن يصد غزوة الفونج سنة ١٥٣٠ م عند بلدة الخنك (بفتح الحاء والنون) فلم يعودوا إلى غزو النوبة من بعدها . ولما فتح محمد علي بلاد السودان في سنة ١٨٢٠ م ، كانت السلطة في بلاد النوبة يتقاسمها ثلاثة إخوة من الكشاف يسميهم Burchardt في كتابه : Travels in Nubia : « حكام النوبة » .

وفي بلاد دنقلة جنوبى منطقة نفوذ الكشاف ، انقسمت بلاد النوبة إلى إمارات صغيرة على كل منها ملك صغير (مَك) (بفتح الميم) يدين بالطاعة لملوك الفونج ، والمنطقة الشمالية من دنقلة كانت خاضعة لقبيلة مغربية هى قبيلة الجوابرة ، وهم فرع من الزناتية كان الغز قد طردوهم إلى هذه البلاد . وإلى الجنوب من منازل الجوابرة قبائل البديرية وتنتشر مضاربهم حتى الشائقية .

وقد أصبح الدناقلة والجمليون أعظم تجار العبيد في بلاد السودان . ولم يكن الطريق الرئيسى لهذه التجارة في ذلك الوقت عبر أسوان ، إنما كان عن طريق شندى وسواكن . وكان العبيد - وخصوصاً الأطفال منهم - يبحثون من دار فتيت (بفتح الفاء والفاء وسكون الياء) ومن بلاد دارفور ، وكانوا يتجنبون المرور في بلاد النوبة ، لأن القبائل النوبية كانت تقاوم هذه التجارة .

مملكة الفونج في سنار

انتشر الإسلام في شرق السودان في القرن الرابع عشر الميلادي . إذ أن سقوط المملكة المسيحية في دنقلة (أو مَقْرَة - بفتح الميم وضم القاف وفتح الراء مع التشديد) فتح الطريق أمام النفوذ الإسلامي من الشمال ، وذلك بسبب تدفق القبائل البدوية ومسيرها مع مجرى النيل عبر إقليم دنقلة . كما أن تجار النوبة كانوا ينفذون حتى بلاد نيجيريا ، على حين كانت التأثيرات الآتية من غربي السودان تنفذ إلى الشرق . واتصلت بُرنو ووداي بدارفور وكردفان . ولكن نشر الإسلام بين الشعوب الوثنية كان يرجع إلى قبائل الغرب أكثر منه إلى قبائل الشرق . ولا ريب أن التيار الآتي من الشرق يلتقي بالتيار الآتي من الغرب . لكن هذا التيار لم يستطع أن يجاوز سنار جنوباً ، لأنه على الرغم من أن مملكتي دنقلة وعُلوة (بضم اللام وسكون اللام وفتح الواو) قد دخلتا في الإسلام ، كان التقدم صوب الجنوب الشرقي يقف بسبب نفوذ أهل الحبشة ، وكان التقدم صوب الجنوب يقف بسبب مناهضة الشعوب الزنجية في السودان .

وبقراءة ما ذكره للقريزي^(١) ، نقلا عن ابن سليم الأسواني مؤرخ النوبة ، نستطيع أن نقول إنه كانت هناك سياسة إسلامية مرسومة لنشر الإسلام بين الشعوب الوثنية في القرن الخامس عشر الميلادي . فقد التقى ابن سليم في بلاط مَقْرَة بأحد الوثنيين في النوبة . وقد سأله عن دينه : فقال : « ربّي وربك الله ، ورب الملك ، ورب الناس كلهم واحد . وهو في السماء وحده . وقال له : إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة ، صعدوا الجبل ودعوا الله فيجأبون للوقت ، وتُقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا » . فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط رسولا

(١) خطاط ج ١ ص ١٩٣ .

فيهم ، ذكر له ابن سليم بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وما أيدوا به من المعجزات ، فقال : « إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ، وقد صدقتهم إن كانوا فعلوا » .

وهذا يدل على ما كان يبذله الدعاة المسلمون من محاولة لنشر الإسلام بين الشعوب الوثنية . وهنا ينبغي أن نشير إلى أن نشر الإسلام في إفريقية كان يتم على أيدي الإفريقيين أنفسهم ، والهاميين منهم بوجه خاص ، كما أن ممالك السودان الأوسط كلها (مثل ممالك وداي ويزنو ودارفور) قد أسسها بعض الفقهاء الهاميين المتبحرين في العلوم الإسلامية الذين جاءوا إلى هذه البلاد للتجارة ونشر الإسلام . وبذلك كان الإسلام ، كما يقول « ترمنجهام » ، إفريقية في إفريقية .

ويعد نشر الفرق الصوفية ، مثل القادرية والشاذلية ، أهم ما تركه الفقهاء الهجازيون الذين نشروا خلوات الفرق الصوفية التي ساعدت على انتشار الإسلام بعد الفتح المصري للسودان سنة ١٨٢١ م . كما انتشرت الدعوة إلى هذا الدين في ظل المهديّة التي عملت على نشره بين القبائل الزنجرية في حوض النيل . ويرى « ترمنجهام^(١) » أن تجارة الرقيق وحركة التجنيد في الجيش من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام .

أما عن تدفق القبائل العربية جنوبى بلاد النوبة فقد استقر بعضها في هذه البلاد ، ولم تكن بلاد النوبة مما يغريهم بالبقاء ، لأنها لا تستطيع أن تعمل عدداً كبيراً من البدو . كما أن الصحراء الشرقية كان يسكنها شعب محارب هو شعب البجة وبعض القبائل الغربية التي نزحت إليها منذ وقت بعيد . لذلك سار هؤلاء مع النيل حتى وصلوا إلى إقليم المراعي ، ثم اتجهوا نحو الجنوب الغربى ، أى نحو كردفان ،

(١) Islam In the Sudan, pp. 98 - 104.

وإلى الجنوب الشرقى نحو عطبرة والنيل الأزرق في البطانة^(١) ثم في الجزيرة . كما اتجه بعض الجماعات القبلية التي يمثلها الآن شعب السكبايش إلى المنطقة الصحراوية الغربية التي كان ينزلها البدو من قبائل التَّبُو (بكسر التاء مع التشديد وضم الباء مع التشديد) (Tibbu) . كما وجدت هذه القبائل في إقليم كردفان مراعى صالحة لتربية الإبل ، وبدأت تختلط بالشعب الزنجي الذي يسكن كردفان الآن ، على حين نجد أن القبائل التي استقرت في منطقة الجزيرة قد اختلطت مع الفونج . فقد استقر بنو عبد اللات (عبد الله) في منطقة « قَرِي » (بكسر القاف وكسر الراء مع التشديد) ، واستقر الخوالة عند بلدة عواطب والسكابوشية ، واستقر الجعليون عند شندى . أما الرُّفاعة (بضم الراء مع التشديد) فقد اخترقوا منطقة الجزيرة وخضعوا للمملكة الفونج .

وأما القبائل العربية التي يمثلها شعب البقارة (بفتح الباء والقاف مع التشديد) الآن فقد دخلت السودان عن طريق وادي النيل ، ثم غربوا متجاوزين دنقلة حتى دخلوا البلاد التي كان يطلق عليها اسم السودان الفرنسي ، واستقر بعضهم في منطقة دارفور ؛ ولم تكن هذه القبائل أو العشائر كبيرة العدد . أما القبائل الكبرى مثل الحَمَر (بضم الحاء وفتح الميم) والسكبايش ، فقد تكونت في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر حين انضمت إليها بعض الجماعات المتفرقة . وليس من شك في أن هذه القبائل لقيت معارضة في طريق تقدمها وأنها عقدت معاهدات مع ملوك الزنوج الأقوياء في الجنوب ، ولكن طبائعهم البدوية وقدرتهم على التزاوج قد مكنتهم من الانتشار في البلاد . وسرعان ما استقر بعضهم في هذا الجزء وأخذوا يندمجون في الأهالي الأصليين . وقد اتجهت القبائل

(١) بضم الميم بقرب الخرطوم وهي مساحة فسيحة تشغل نحو أربعة ملايين فدان لا ينقصها

الحامية النوبية (كالجعليين) فى الوقت نفسه نحو الجنوب والجنوب الغربى ،
أى إلى إقليم كردفان . وهذه الحركة تعتبر حركة عربية برغم أن العرب الحقيقيين
فيها كانوا أقلية . ومن القبائل التى اتجهت إلى كردفان الجوامعة (وهم ينتسبون
إلى بنى تـجـامـع الهـلـالـيـن) والبـدـيرـية ، والشـوـيـحات . وقد تأثرت هذه القبائل
وهى فى بلاد النوبة ببعض المؤثرات الزنـجـية . وفى القرن الثامن عشر ،
كان البديرية لا يزالون يتكلمون الرطانة البربرية . كما أن بعض هذه القبائل
التي اتجهت نحو الجنوب والغرب كان ذا تأثيرات نوبية - فونجية ولنتكلم الآن
على مملكة الفونج فى سنار .

اختلف الباحثون فى أصل الفونج ؛ فقليل منهم من سلالة عربية أموية
هربت من وجه العباسيين ، وإلـهـم جاءوا من الحبشة أولاً ثم إلى السودان
الشرقى حيث تصاهروا مع ملوك السودان . وقيل إلهـم جاءوا من مملكة بُرنو
غربى بحيرة شاد وجنوبى الصحراء الغربية . وسرعان ماظهر نفوذ الفونج بين
الوثنيين الزوج وهم الشلُك (أو الشلوك) (بكسر الشين مع التشديد) ،
الذين كانوا يعبدون الأشجار ويقيمون على الضفة الغربية للنيل الأبيض عند خط
عرض ١٣° تقريباً .

وقد تأسست مملكة الفونج فى سنار ، وتعرف فى بلاد السودان باسم
السلطنة السوداء (أو السلطنة الزرقاء بمباراة أصح ، لوقوعها على النيل الأزرق
الذى يسمى عادة باسم النيل الأزرق) على أيدي جماعة من المغيرين الذين تحالفوا
مع السكان الأصليين فى أرض الجزيرة ، (ويطلق عليهم الفونج اسم هـج)
ضـد القبائل العربية التى تدفقت على هذه البلاد . وقد آلت سيادة الفونج على كل
من هؤلاء السكان الأصليين والعرب . ويظهر أن كلمة «فونج» اصطلاح سياى
يدل على السيادة فى سنار وغيرها ، لا على أى جنس أو ثقافة .

اتسع ملك الفونج من القرن السادس عشر إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر . وتضم تلك الفترة الممالك الإسلامية التي قامت في مناطق متفرقة من السودان . ومن أهم هذه الممالك :

١ — مملكة الفونج (١٥٠٥ — ١٨٢٠ م) التي قامت في بلاد النوبة بعد زوال المسيحية عنها .

٢ — سلطنة دارفور (١٦٣٧ — ١٨٧٥ م) التي قامت في أطراف السودان الغربية ، وكانت تضارع مملكة فونج في العظمة .

٣ — مملكة تغلى (بفتح القاء) التي قامت سنة ١٥٣٠ م وسط جبال تغلى في الشمال الشرقى من منطقة جبال النوبة غربى السودان . وكانت أقل من هاتين المملكتين في القوة والعظمة ، برغم ما بذله ملوكها من جهود في نشر الإسلام والعروبة عن طريق الزواج مع أهالى البلاد وتشجيع القبائل العربية على الهجرة إليها من السودان .

وقد مد الفونج فتوحهم بين سنتى ١٤٩٩ ، ١٥٣٠ م من الجنوب حتى بلاد الحبشة ، وأسسوا ولاية سنار القوية ^(١) . وكان أول ملوك الفونج « عمارة دونقس » (بسكون النون وفتح القاف) (١٥٠٤ — ١٥٣٤ م) . وهو الذى أسس مملكة الفونج وبنى مدينة سنار سنة ١٥٠٥ م . وقد حارب العرب بزعامة « العبدلات » (عبد الله) الذى أسس أسرة حكمت بلاد النوبة ، وانتصر عليه في موقعة « أريجي » ، وكان عمارة قد عينه نائبا عنه في حكم جميع القبائل العربية في وادى النيل . وكان الفونج ورعاياهم من غير العرب على الوثنية . وقد قيل إن عمارة قد تحول إلى الإسلام لأسباب سياسية . فقد ذكر المؤرخون أن السلطان سليمان العثمانى بعد أن فتح مصر سنة ١٥١٧ م ، أرسل حملة إلى بلاد النوبة

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٠١

(١٥٢٠ م) ، وأسس قواعد حربية في سواكن ومصوع ، وهدد بلاد البجة والحبشة ، ودعا عمارة إلى الدخول في طاعته . وقد استولى الفزع على نفس عمارة وخشى أن تكون إغارات السلطان سليم تهديداً لمملكته ، فبعث إليه برسالة يقول فيها : « إني لا أعلم ما الذي يملك على حربي وامتلاك بلادى ، فإن كان لتأييد دين الإسلام ، فإنى وأهل مملكتى عرب مسلمون ، ندين بدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان لغرض مادى ، فاعلم أن أكثر مملكتى عرب بادية ، وقد هاجروا إلى هذه البلاد في طلب الرزق ، ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية »^(١) .

وقد قيل إن عمارة أرسل إلى السلطان سليم مع هذا الكتاب كتاب أنساب قبائل العرب في مملكته ، وقد جمعه له الإمام السمرقندى أحد علماء سنار . فلما وصل هذان الكتابان إلى السلطان سليم أعجبه ما فيهما وعدل عن حرب سنار . وقيل إنه أخذ كتاب الأنساب إلى الأستانة ، وهو لا يزال في خزانة كتبها إلى اليوم^(٢) .

وقد ذكر « ترمينجهام »^(٣) . أن هذه القصة بعيدة عن الصحة ، لأنه بعد أن استولى جند سليم الفزع على بلاد النوبة حتى الشلال الثالث ، نازعهم الفونج وأرسلوا إليهم حملة باءت بالإخفاق ، ولم يحاول الفونج أن يشتبكوا في أعمال حربية مع الفزع .

وقد قيل إن الفونج شجعوا بعض رجال الدين من المسلمين على زيارة مملكتهم والاستقرار فيها . وإلى هؤلاء يرجع الفضل في تحول القبائل الوثنية في أرض الجزيرة إلى الإسلام .

(١) نعيم شقير ، تاريخ السودان القديم والحديث (طبعة القاهرة) ج ٢ ص ٧٤

(٢) نعيم شقير . أنظر الدكتور عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٤٣ وما يليها .

(٣) Islam in the Sudan, p. 85

وقد امتدت رقعة مملكة الفونج في الوقت الذي بلغت فيه أوج عزها وراثتها في عهد « بادي الثاني أبو دقن » (بكسر الدال وسكون القاف) (١٦٤٢ - ١٦٧٧ م) من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق ، ومن البحر الأحمر إلى كردفان . على أن هذه البلاد لم تكن تربطها وحدة ولم يكن لها نظام مشترك للحكم ، اللهم إلا إذا استثنينا الأراضي الممتدة بين النيل والنيل الأزرق التي كانت تخضع لحكم سنار مباشرة . ذلك لأن الفونج كانوا قد أقروا ملوك الولايات في حكم بلادهم ماداموا يدفعون إليهم الجزية ، وسمحوا لهم بتطبيق النظم التي كان معمولاً بها في بلادهم .

وإذا مات أحد هؤلاء الملوك عين ملك سنار خلفاً له وفرض عليه الجزية وخلع عليه « طاقية ذات قرنين » (وتشبه القرنين) ، والعمامة ، والسيف ، وأحياناً سلسلة ذهبية ، ثم يناديه بلقب « مك » (بفتح الميم) ويباركه ، فيقبل الملك يد الملك ويدعوه . ثم يأمر الملك بضرب الفتحاس (وهو طبل القبيلة) (إيذاناً بتنصيبه على عرش بلاده . وكان لكل مك وزير ، ويتمتع أقارب الملك (ويطلق عليهم الأرايب ومفردها أرباب) أيضاً بنفوذ كبير^(١) .

وقد انتهت سيادة الفونج باستيلاء محمد بن أبي لكيك كشمور^(٢) (توفي سنة ٧٧٦ م) على السلطة . وكان محمد ينتمي أصلاً إلى الهمج الذين فتح الفونج بلادهم . وقد هزم الأحباش سنة ١٧٧٤ م وجمع شتات الفونج بعد أن حلت بهم الهزيمة في كردفان وحول هزيمتهم نصراً . ثم عاد إلى سنار وخلع الملك « بادي الرابع » ونصب على العرش ملكاً آخر أصبح العوبة في يده ، وتقلد الوزارة التي أصبحت وراثية في بيته . ثم بدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية

(١) ترمينجهام . 86 - 88 pp.

(٢) بفتح الكاف وسكون التاء .

تزيد في انحلال الأسرة المالكة حتى غزا الأتراك العثمانيون بلادهم ، فسلموا إليهم دون قتال .

وقد استقل بنو عبد اللات عن سنار منذ سنة ١٧٧٠ م ، لازدياد نفوذ قبيلة الشائقية التي تنتمى إلى البجة ، والتي سكنت الأراضى التي تحيط بالنيل جنوبى دنقلة إلى الشلال الرابع . وقد آلت السيادة إلى هؤلاء الشائقية منذ نهاية القرن السابع عشر . وكان الشائقية من رعايا أسرة عبد اللات ، ولكنهم لم يلبثوا أن نالوا استقلالهم واجتاحوا البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ عبد اللات ، وامتنعوا عن دفع الجزية إليهم . ثم امتد نفوذهم في نهاية هذا القرن إلى ملتي النيل الأزرق .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ضعف نفوذ الشائقية في الشمال ، بعد أن هرب المماليك من مذبحة القلعة المشهورة التي أوقع بهم فيها محمد على ، وقتل كثيراً منهم سنة ١٨١١ م . وقد استقر هؤلاء المماليك في دنقلة وطردها الشائقية من معقلهم في مراغة (وهى دنقلة الجديدة) . وتفاقم العداء بين الشائقية والمماليك حتى فتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠ ، فقر هؤلاء المماليك جنوباً واختفوا من وجه التاريخ . وقد اتحدت الشائقية وحاربوا الغزاة بشجاعة ، ولكنهم انهزموا أمام الجيش المصرى الذى تفوق عليهم فى السلاح ، واضطروا إلى الاندماج فى صفوف الغزاة جنوداً غير نظاميين . ولما فتح محمد على بلاد السودان سنة ١٨٢٠ م كان نفوذ الفوج إسمياً ، إذ لم يكذب يبعدى الشاطىء الأيمن من النيل نفسه ، أى من بلاد الجزيرة إلى بلاد الحبشة ^(١) .

وقد أظهر الفوج نشاطاً عظيماً فى نشر الدعوة الإسلامية . وكانت هذه ذات طابع سلمى ، إذ قلما استخدمت وسائل العنف والإرهاب فى حمل القبائل

(١) ترمنجهام 89 - 88 pp.

الوثنية على قبول الإسلام ، وإنما كانت هذه القبائل تدخل في هذا الدين عن طريق الحجة والإقناع . وكان للدعاة الذين وفدوا من الحجاز والمغرب ومصر والعراق واشتركوا مع الدعاة الوطنيين أثر بعيد في نشر الإسلام في مملكة سنار كما كان لتبادل التجارة بين الحجاز والسودان أثر ملحوظ في نشر هذه الدعوة . وكان بعض السودانيين إذا غادروا بلادهم لحج بيت الله في مكة يشجعون علماء الحجاز على الرحيل إلى بلاد الفونج لنشر الإسلام فيها ، كما كان كثير من السودانيين يتلقون العلم في مكة والمدينة المنورة وبلاد المغرب ومصر ، ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا الدين والثقافة الإسلامية . وقد تمتع هؤلاء العلماء بنفوذ كبير في عهد الفونج^(١) ولنتقل الآن إلى الكلام على مملكة دارفور .

مملكة دارفور

إن بلاد دارفور عبارة عن هضبة تفتش فيها المراعى وتتخللها بعض المرتفعات ولا سيما جبل مرة (بفتح الميم والراء مع التشديد) ويتألف سكانها من العنصر الزنجي أو العنصر الحامى . وفي تاريخ لا يمكن تحقيقه بالضبط قبل القرن الثانى عشر الميلادى دخل بلاد دارفور شعب أسود هو شعب « الداو » . وقد جاء من الشرق ، وسيطر على البلاد وأسس ملكا فيها . وفي القرن الرابع عشر الميلادى دخل هذه البلاد عنصر مغربى من تونس يتمثل في شعب التنجور (Tunjor)^(٢) وإذا كان هؤلاء مغاربة ، فلا يبعد أنهم تركوا بلادهم هربا من بنى هلال في شمالى إفريقيا .

وقد اخترق هؤلاء المهاجرون بلاد « بُرنو » و « وداى » حتى وصلوا

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمه ص ٢٨٣ .

الدكتور عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية في السودان ص ٥٤ — ٥٦ .

(٢) بفتح التاء مع التشديد .

إلى دارفور ، ثم جاء غيرهم من الشرق^(١) . وسرعان ما سيطر هؤلاء المهاجرون على بلاد دارفور ، واختلطوا بالسكان الأصليين ، ونتج عن ذلك جنس مختلط بين الداجو والتنجور يسمى شعب الفور . وقد نشر التنجور سلطانهم على منطقة وداي في الغرب ، وحالوا دون انتشار الإسلام في هذه المنطقة . وظل تاريخهم غامضاً حتى القرن الخامس عشر حين سقط آخر ملوكهم ، واسمه « دليل بحر » . وكانت دارفور أكثر اتصالاً بوسط السودان منها بشرقه . وكانت تخضع لقبائل التنجور الوثنية من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر .

وقد دخل الإسلام هذه البلاد مع شعب التنجور . ومن هذا الشعب رجل يدعى « أحمد المعقور » . وقد لقي حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثني الذي قرّبه إليه وعهد إليه بالإشراف على شئون بيته ، واستشاره في أمور دولته ، لأن خبرته بأساليب الحكم كانت أرقى من الأساليب التي كانت في دارفور . وبذلك استطاع أحمد أن يدخل عدة إصلاحات في الحكومة . ويقال إنه جذب بسياسته الرشيدة قلوب الزعماء المتمردين ، وقسم الأراضي بين الفقراء ليضع حداً للاغارات الداخلية ، وقوى في نفوسهم شعوراً بالرضا والطمأنينة لم يعهدوه من قبل . ولما لم يكن للملك وريث من الذكور ، زوج ابنته من أحمد وعينه خليفة له ، ولقي هذا التعيين قبولاً من الأهالي . وكان أحمد أول ملوك المسلمين في دارفور . واستمرت هذه الدولة الإسلامية إلى الوقت الحاضر . وقد اقترنت إصلاحات أحمد وأولاده من بعده بنشاط ملحوظ في نشر الدعوى ، ولو أنهم لم يبدوا مثل هذا النشاط مع جيرانهم الوثنيين . على أن دارفور لم تدخل في الإسلام حقاً إلا بجهود أحد ملوكها ، ويدعى « سليمان سولون » ، وهو أول من أسلم من ~~سكان~~ الفور الذين كانوا يعبدون الأصنام والأصنام^(٢) .

(١) لوتنجهم ص ٨٩ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

وقد فتح « سليمان سولون الممالك السهلية ، ووحدة القبائل ، وأسس أسرة بسطت نفوذها على دارفور وكردفان . وفي القرن الثامن عشر حفرت سلسلة من الآبار تمتد بين « الفاشر » ومرتفعات « كاجاه » . وكان لهذه الآبار أثر كبير في تسهيل طرق التجارة بين الشرق والغرب وفي ربط دارفور بمراكز الإسلام الشرقية التي تدفق منها إلى منطقة دارفور . وقد استقدم « سليمان سولون » الفقهاء ليعلموا الناس الإسلام ؛ وسار حفيده على نهجه وحاول أن يجعل من بلاده دولة إسلامية . كما جلب عناصر جديدة للبلاد من برنو وباغرمي ، وشجع التجارة وأسس المساجد والمدارس ، واستخدم الأسلحة النارية وأخذ الناس يدخلون في الإسلام أفواجا بسبب اتصالهم بالتجارة والفقهاء مع احتفاظهم ببعض بقايا المذهب الحيوي الذي يقدس الحيوانات . وقد ظل الحكم في أعقاب سليمان سولون حتى سنة ١٩١٦ .

ويذكر سير توماس أرنولد^(١) نقلا عن « وستمان »^(٢) أن قدم الإسلام لم ترسخ في البلاد الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد ، كوداي وباغرمي ، إلا في القرن السادس عشر . غير أن مملكة وداي التي أسسها عبد الكريم حول سنة ١٦١٢ م كانت المركز الرئيسي للنفوذ الإسلامي في ذلك الوقت ، ولم يدخل عامة باغرمي في الإسلام إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وكان اتصال أهالي دارفور بالغرب مع وداي وبرنو أكثر من اتصالهم بالشرق . وقد فقد ملوك دارفور منطقة كردفان بعد وفاة سليمان سولون ، ثم استردتها دارفور مرة أخرى حتى فتح المصريون السودان . وظلت دارفور القوة السكبري في السودان حتى اخترق محمد بك الدفتر دار هذه البلاد سنة ١٨٢١ م ؛ على أنه أرغم على الارتداد بسبب المقاومة العنيفة التي لقيها . وقد حاول سلاطين

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٢) The International Review of Missions, Vol. i. b, 628.

(م ١١ — انتشار الإسلام)

دارفور الاحتفاظ باستقلالهم بالتزام سياسة العزلة ، فمنعوا البيض من دخول بلادهم ،
ودفعوا الجزية لسلطين العثمانيين في القسطنطينية ، ولكن أمرهم انتهى بالخضوع
للحكم المصري . فقد تقدم الزير باشا من بحر الغزال إلى دارفور وقتل إبراهيم
آخر ملوكها سنة ١٨٧٤ م^(١) .

بلاد الحبشة

ترجع علاقة بلاد العرب بالحبشة التي كانت تدين بالمسيحية إلى العصر
الجاهلي ولا سيما بعد استيلاء الحبشة على بلاد اليمن . وقد فكر أبرهة الأشرم^(٢)
في بناء كنيسة في صنعاء لصرف الحجاج عن الكعبة إليها . فقد ذكر المؤرخون
أن أبرهة كتب إلى قيصر الروم وسأله العون ، فأرسل إليه الصناع وأمدّه
بالفسيفساء والرخام . فلما تم بناء هذه الكنيسة كتب أبرهة إلى النجاشي
أنه يريد أن يصرف حجاج العرب إلى هذه الكنيسة ويحوّل تجارة قريش
إلى صنعاء . وقد أثار ذلك حفيظة العرب ، فدخل بعضهم الكنيسة وعبث
بأثاثها وانتهك حرمتها ، فغضب أبرهة وأقسم ليهدم الكعبة ، وجرد جيشا عظيما
من أهل الحبشة سير أمامه الفيلة ويم شطر مكة ، فأرسل الله عليهم طيرا
من البحر أمثال الخطاطيف رمّت جند الأحباش بحجارة من سجيل ، فحلت بهم
الهمزيمة وأبيدوا عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا رجل عاد إلى بلاد اليمن وتحدث
بما صنع الله بأهل الحبشة الذين ورد ذكرهم في القرآن في سورة الفيل (١٠٥ :
١ - ٥) : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ،
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ

(١) ترمجهام : الإسلام في السودان 90 - 91, 102 pp.

(٢) لما تغلب أرياط على بلاد اليمن وحكمها من قبل النجاشي ، قامت المنافسة بينه وبين
أحد قواده أبرهة وتجاريا ، فقتل أرياط ، وجرح أبرهة وشرمت شفته ، فلقب « الأشرم » ،

ما كُول (١). وكان ذلك سنة ٥٧١ م ، وهي السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما اشتد تحدى قبيلة قريش في مكة للرسول وأجمعوا على التفتك به وبأتباعه ، فكر الرسول في هجرة المسلمين . لذلك اتجه الرسول إلى بلاد الحبشة لما كان يعرف في ملكها من العدل والتسامح وقال للمسلمين : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة » فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » . وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ؛ ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة ، سوى الصبيان . وقد أجمع مؤرخو العرب على أن النجاشي أكرم وفادة هؤلاء المهاجرين ، وأنهم آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، واستقر بعضهم فيها وعاد بعضهم الآخر إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى يثرب سنة ٦٢٢ م (٢) .

وفي السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) أرسل الرسول إلى الملوك والأمراء ومن بينهم النجاشي ، كتبوا يدعوهم فيها إلى الإسلام (٣) . وقد أكدت الرواية العربية أن النجاشي قد أسلم ، وأن صلة قد نشأت ودامت بينه وبين الرسول طوال حياته . وقد تكون هذه الرواية متأثرة بما أبداه النجاشي من حسن استقبال المهاجرين وإكرام وفادتهم ، وامتناعه عن تسليمهم إلى قريش ، حين بعثت إليه وفداً يطلب إليه ردهم إلى بلادهم . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي إلى المسلمين ، مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أنه كان مسلماً (٤) . وروى عن السيدة عائشة زوج الرسول أنها قالت : لما مات

(١) ابن هشام : سيرة النبي ج ١ ص ٥٣ — ٥٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة سنة ١٩٦٣) ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٣) الطبري ج ٣ ص ٨٩ .

(٤) ابن هشام : سيرة النبي ج ٣ ص ٣٦٣ .

النجاشي كان يتحدث أنه لا يزال على قبره نور . وهذا الحديث - إن صح -
يبين لنا مبلغ إعجاب المسلمين بالنجاشي^(١) .

على أن هذا كله لا يحملنا على القول بإسلام النجاشي ، ولا سيما أن جمهرة
المؤرخين يكادون يجمعون على أن الإسلام لم يظهر في بلاد الحبشة إلا بعد مدة
طويلة . يدل على ذلك ما رواه الطبري^(٢) وابن الأثير^(٣) من أن الحبشة « كانت
قد تطرفت طرفا من أطراف الإسلام^(٤) » في عهد عمر بن الخطاب ، فبعث إليهم
علقمة بن مجزز (بضم الميم وفتح الجيم وكسر الزاي مع التشديد) العلقمي
في البحر في نفر من المسلمين فأصيبوا ، فجعل عمر على نفسه^(٥) ألا يحمل في البحر
أحدا ، يعنى للغزو .

ومما يدل على أن الرسول طالب الناس جميعا بقبول الإسلام وأنه قصد
أن يكون ديننا عالميا ، قوله متنبئا أن بلالا « أول ثمار الحبشة » ، لأنه كان أول
من أسلم من أهل الحبشة ، كما قال إن سلمان « أول ثمار الفرس » لأنه كان أول
من أسلم من الفرس ، وأن صُهَيْبًا « أول ثمار الروم » لأنه كان أول من أسلم
من الروم . وهكذا صرح الرسول أن الإسلام ليس مقصورا على الجنس العربي .
يؤيد ذلك ما ورد في كثير من الآيات البينات^(٦) .

وكانت الكنيسة الحبشية تابعة لكنيسة الإسكندرية . وكان بطارقة
الحبشة يعتبرون بطارقة الإسكندرية خلفاء الحواريين أصحاب المسيح عليه السلام ،

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) ج ٤ ص ٢٣١ .

(٣) السكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) أي إنها أغارت على طرف من أطراف المسلمين .

(٥) أي عزم .

(٦) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٦٦ — ١٧٠ .

يعينون من قبلهم مطارنة من الأقباط اليعاقبة يباشرون شئون الشريعة في بلاد الحبشة ، وذلك بتفويض من حاكم مصر بناء على طلب النجاشي^(١) .

وقد تحول كثير من أهل الحبشة إلى الإسلام وبنوا ببلادهم المساجد لإقامة شعائرهم الدينية ، وظهر بين المسلمين كثير من العلماء والفقهاء والزهاد الذين يدينون بعقائد المذهب الحنفي ، وبعضهم يدين بعقائد المذهب الشيعي . وكانت الحبشة في العصور الوسطى تنقسم سبعة أقسام يحكم كلا منها ملك ؛ وهذه الأقسام هي :

١ -- وفات ، وتسميها العامة أوقات (بسكون الواو) وهي أوسع هذه الممالك . ومن أهم مدنها زَيْلَع (بفتح الزاي وسكون الياء وفتح اللام) ، وهي فُرْضة على البحر بإزاء عدن . وهي شديدة الحر ، وأغلب أهلها مسلمون ، ويتردد عليها التجار ، وبها مفاص للؤلؤ .

٢ -- دَوَارو (بفتح الدال) وتلى وفات .

٣ -- أرايىنى وتلى دوارو .

٤ -- هَذِيَة (بفتح الهاء وسكون الدال) جنوبي وفات ، ويعد ملكها أقوى ملوك الحبشة وأشدّهم بأساً برغم ضيق بلاده .

٥ -- شَرَحَا (بفتح الشين وسكون الراء) وتلى هَذِيَة .

٦ -- بالى وتلى شرحا ، وهي أكثر خصباً وأطيب مقاماً وأبرد هواء .

(١) كان للبطارقة أربعة كراسي : الأول للملكانيين برومة ، والثاني لليعاقبة بالإسكندرية ، والثالث بأنطاكية ، والرابع ببنت المقدس . وكان أهل الحبشة والنوبيون ومسيحيو السودان يتبعون كرسي الإسكندرية . وكان بطرق الاسكندرية يقوم بتولية ملوك الحبشة وعزلهم . وكان هذا البطرق يقلد المطارنة والقسيسين والشماسة وغيرهم من رجال الدين الذين يقيمون الطقوس الدينية في هذه البلاد (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ — ٣٢٣) . وقد أورد القلقشندي في (ج ٦ ص ٣٠٩ — ٣٢٢) أسماء البطارقة اليعاقبة إلى أيامه ، أي إلى سنة وفاته (١٤١٨ م) .

٧ — دارة (بفتح الراء) وتلى بالى ، وهى أققر المالك وأقلها خيلا ورجالا^(١) .

وكانت معاملات أهل الحبشة ثلاثة أنواع : منها المقايضة ، بمعنى أن تباع البقر بالغنم كما كانت الحال فى وفات ، ومنها ما هو بالدنانير وبالدرهم كما كانت الحال فى مصر والشام وغيرهما . ولم تكن هناك دار لضرب النقود ، بل كانوا يتعاملون بدنانير ودرهم مصر التى كان يحملها التجار . ومن النقود التى كانت مستعملة الحفـكـات ، (جمع حفكة بضم الحاء وسكون النون وفتح الكاف) ، وهى قطع من الحديد طولها طول الإبرة ، وعرضها ثلاثة أمثال عرض الإبرة ، ويتعاملون بها فى سائر الممالك . وقد اشتهرت هذه البلاد برخص الأسعار ، حتى كان حمل البقل من الحنفطة يباع بدرهم واحد ، أى بنحو أربعة قروش مصرية^(٢) .

ويتوارث ملوك هذه الأقسام الملك . على أن أحداً منهم لا يستطيع أن يستقل بالحكم إلا إذا نصبه سلطان « أمهرة » (أو أمحرا على ما ذكره مؤرخو العرب) . لذلك كان هؤلاء الملوك نوابا عن السلطان فى حكم ممالكهم . وقد وصف القلقشندى^(٣) هذه الممالك فقال : « وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغناء ، لضعف تركيب أهلها ، وقلة محصول بلادهم ، وتسلط الحطّى (بفتح الحاء وتشديد الطاء مع كسرهما) سلطان أمحرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين . وهم مع ذلك كلتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة » .

وكان هؤلاء الملوك يحملون إلى سلطان أمحرا كل سنة مما يجلب إليهم من القماش : الحرير والكتان من مصر واليمن والعراق . وكان الملك يلف حول رأسه عصاية من الحرير ، ويكشف وسط رأسه . كذلك كان الأمراء يعصّبون

(١) القلقشندى : صبح الأعشى (ج ٥ ص ٣٢٤ — ٣٢٩)

(٢) القلقشندى (ج ٥ ص ٣٣١) .

(٣) المصدر نفسه (ج ٥ ص ٣٣٢) .

رءوسهم بمصائب من القطن . ويلبس الفقهاء العائم ، ويلبس العامة كوفيات بيضاء ، ويتزر السلطان والجند بثياب غير مخيطة ، فيشد وسطه بثوب ويتزر بآخر . ويلبسون مع ذلك سراويل . ويقتصر غيرهم على شد الوسط والأتزار دون لبس السراويل . ويلبس الفقهاء وبعض رجال الدولة القمصان . وأغلب سلاحهم الحراب والنشاب^(١) .

ومن الممالك الإسلامية في بلاد الحبشة « دَهْلَك » (بفتح الدال وسكون الهاء وفتح اللام) ، وهي جزيرة في البحر الأحمر ، على طريق المسافر من عيذاب إلى اليمن . ومنها عَوَّان ، وهي على ساحل البحر الأحمر ، مقابل تهامة على خليج عدن ، ومَقْدَشُو^(٢) (أو مقدشيو)^(٣) على بحر الهند ، يجري بها نهر كبير يصب في المحيط الهندي على مقربة من مَقْدَشُو . وقد تغلب النجاشي على هذه الممالك بعد القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وخربها ، وقتل أهلها ، وحرق ما بها من المصاحف وأرغم أكثرهم على اعتقاد المسيحية . ولم يبق من هؤلاء الملوك تحت طاعة النجاشي سوى ابن سمار ، الذي تقابل بلاده جزيرة دَهْلَك^(٤) والسلطان سعد الدين صاحب زَيْلَع وما يليها . وقد خرج عن طاعة النجاشي ، وكانت بينهما حروب كانت النصر فيها حليف هذا السلطان .

وحول سنة ١٣٠٠ م شق أحد الدعاة المسلمين طريقه إلى بلاد الحبشة ليدعو أهلها إلى الإسلام ، وتمسكن من هداية مائتي ألف من المسلمين هاجم بهم ملك أمهرا ، واشتبك معه في كثير من المعارك . ويقول سير توماس أرنولد^(٥) :

(١) المصدر السابق (ج ٥ ص ٣٣٣ — ٣٣٤) .

(٢) بفتح الميم وسكون القاف وفتح الدال .

(٣) بضم الميم وفتح القاف وكسر الدال وسكون الشين .

(٤) Trimingham : Islam in Ethiopia, pp. 47,50.

(٥) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة (١٠١ — ١٠٢) .

« وفي نهاية هذا القرن انشغلت بلاد الحبشة بالحروب الداخلية التي صحبتها حالة من القلق والاضطراب ، ومهدت بذلك السبيل للقبائل العربية المختلفة التي استقرت على طول الساحل ، وطرد أهل الحبشة إلى المناطق الداخلية » .

على أن جماعات من العرب خضعت لملك الحبشة وعاشوا في مصوع في كنف الأحباش ، ودخل كثير منهم في خدمة الملك ، وكان يسند إلى بعضهم مناصب مهمة في الدولة . وكانت المناطق التي يسكنها المسلمون والتي تمتد من البحر الأحمر حتى سنار غربا وفي الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية تدفع الجزية لملك الحبشة ^(١) .

وكان التجار والدعاة المسلمون يفدون على هذه البلاد تقربا إلى زعماء الأحباش . وكان طبيعيا أن تكون لهذه العلاقات آثار اجتماعية حين يصهر أهل الحبشة إلى العرب أو يصهر العرب إليهم . وكان النفوذ التركي في ذلك الوقت قد بدأ يظهر في بلاد اليمن ومضيق باب المندب وشرقي إفريقيا ، حين أخذ البرتغاليون يتطلعون إلى محالفة أهل الحبشة للقضاء على النفوذ الإسلامي في البحر الأحمر . وكان الأتراك قد استولوا على زيلع وأنشثوا أسطولا قويا في البحر الأحمر ، وعملوا على القضاء على الحلف البرتغالي الحبشي ، فعقدوا محالفة مع إمارة « عدل » (بفتح العين وكسر الدال) الإسلامية القريبة من حدود الحبشة ، وأمدوا أميرها المستقل أحمد جران ^(٢) بالأسلحة النارية ، وحرصوه على غزو بلاد الحبشة . وقد انضم إلى جيشه الظافر الذي غزا هذه البلاد كثير من زعماء الحبشة وأتباعهم وأشرف مكة وكثير من المتطوعين العرب ^(٣) . وزحف

(١) عرب فقيه : فتوح الحبشة (باريس ١٨٩٧—١٩٠٩) ص ٢٧٥—٢٧٦ و٣١٩ و٣٢٤ .

(٢) هو الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي الملقب بجران (أي الأشول) . انظر : Trimingham, p. 85.

(٣) عرب فقيه ص ٢٨ و١٢٩ و٢٧٥ .

العدليون وحلفاؤهم على بلاد الحبشة وغزوا شعب الجَلَّا (بفتح الجيم واللام مع التشديد) وهرروا كسوم . واستمرت غزوة أحمد جران هذه خمس عشرة سنة (١٥٢٨ - ١٥٤٣ م) .

وكان لهذه الغزوة أثر بعيد في نشر الإسلام في بلاد الحبشة . يقول سير توماس أرنولد^(١) نقلا عن عرب فقيه^(٢) « وبمثل هذه الطريقة الآلية كان تحول كثير من الناس ، وخاصة زعماء المسلمين الذين كانوا قد دخلوا في خدمة ملك الحبشة ، وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم على أيدي جيش المسلمين الفاتح ، الفرصة لأن ينبذوا في الحال المسيحية ، وأن يخلعوا طاعتهم للملك المسيحي ، ويعلموا إسلامهم من جديد » .

وقد صادف الإسلام نجاحا كبيرا بين قبائل الجَلَّا الذين استوطنوا بلاد الحبشة . وينقسم هؤلاء المهاجرون إلى سبع قبائل تسمى « وَلُوجَا » (بفتح الواو وضم اللام مع التشديد) ، وهو اسم الجنس الذي ينتمون إليه . وأكثر المسلمين يقيمون في جنوبي الحبشة . وقد تحول بعض القبائل إلى الإسلام حول سنة ١٥٠٠ م ، وصادف هذا الدين نجاحا رائعا بين أهالي السهول ، وانتشر على أيدي دعاة في زى التجار . وقد لَقُوا ترحيبا حارا في بلاط الجَلَّا ، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية . وانتهر هؤلاء التجار فرصة رحلتهم إلى الساحل مرة في كل سنة أو سنتين لنشر الإسلام بين أهالي هذه البلاد ، حيث ظفر هذا الدين بدخول عدد كبير في مدة قصيرة . وقد أخفق المبشرون إخفاقا تاما ، على حين حقق الدعاة المسلمون نجاحا مستمرا وشقوا طريقهم نحو الجنوب^(٣) .

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٠٣ .

(٢) فتوح الحبشة ص ٣٤ - ٣٥ ، ١٢٠ - ١٢١ ، ١٨٢ - ١٨٣ ، ٢٢٤ ، ٣٢٧ .

(٣) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة (ص ٢٩١ - ٢٩٢) .

وكان تدفق النفوذ الإسلامي إلى بلاد الحبشة مشجعاً للعناصر العربية التي كانت تعيش هناك ظاهرة أو مستخفية . غير أن الملوك المسيحيين في الحبشة استطاعوا أن يستردوا نفوذهم منذ سنة ١٥٨٩ . على أن الاضطرابات التي أصابت مرافق البلاد في البقية الباقية من القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر والمنازعات التي قامت بين رجال الكنيسة قد مكنت الإسلام من الاستقرار والبقاء . وقد أثارت جهود المبشرين الكاثوليك ، وتدخل البرتغاليين في كل الشؤون المدنية والسياسية مقاومة مسيحيي الحبشة ، حتى إن بعض قوادهم قد أعلن صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على مخالفة البرتغاليين . وانتهت هذه الحركة القومية بطرد البرتغاليين حول سنة ١٦٣٢ م وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد^(١) . وقد استغل بعض قبائل الجلال هذه الفرصة فشقت طريقها إلى قلب البلاد ، حيث لا تزال الأماكن التي استوطنوها باقية إلى اليوم . ويذكر رحالة عاش في القرن السابع عشر أن المسلمين كانوا منبئين في جميع أنحاء بلاد الحبشة وأنهم يؤلفون ثلث سكان البلاد . ويقول سيرتوماس أرنولد إن عدد المسلمين قد زاد في القرن الذي يليه . على أن بعض هؤلاء المسلمين قد تظاهر بالتحول إلى المسيحية حتى يتمكنوا من الانضمام في سلك الأشراف . وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح هذا الدين بفضل ما أحرزه المسلمون من تفوق أدبي على أهالي الحبشة من المسيحيين^(٢) .

وقد أخذ الإسلام يشق طريقه إلى الحبشة ، لا عن طريق الفتح وحده بل عن طريق التجارة أيضاً . فقد أخذ التجار المسلمون يفدون على هذه البلاد ويدخلون الناس في الإسلام . كما وقد دعاة العرب بكثرة ، حتى قيل إنه كان يفد

(١) Trimingham, p. 77

(٢) سيرتوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة من ١٠٣ - ١٠٤ .

عدة مئات منهم في كل سنة ، ينتشرون في بلاد الصومال والحبشة للدعوة إلى هذا الدين . وكان أغلبهم من الحضارمة . إلا أن الفضل الأكبر في نشر الإسلام في الحبشة عن طريق التجارة إنما يرجع إلى طائفة من التجار المسلمين نشأت في مدينة قوص المصرية . وكانت هذه الطائفة تتألف من مهاجرين من أهل التكرور وبعض الهنود والعرب . وقد اتخذت لنفسها اسم الكارمية ، أو الكانمية ، نسبة إلى بلاد الكانم ، وأخذت تشتغل بتجارة التوابل . وسرعان ما عظم نفوذها وتضاعفت ثروتها وانضم إليها التجار المسلمون من جميع البلاد . وكان التجار الكارمية على جانب كبير من الورع والتقوى ، وقد جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجارة . وكان منهم فقهاء ومحدثون وقراء اتخذوا التجارة حرفة لهم . وقد دخل هؤلاء الكارمية بلاد الحبشة تحت ستار التجارة ، ووجدوا من الأمراء والحكام ترحيباً عظيماً بسبب نشاطهم الاقتصادي الجم ، واشتغالهم بتجارة الرقيق بمساعدة ملوك الحبشة أنفسهم . واتخذ هؤلاء الكارمية التجارة وسيلة لبث الدعوة إلى الإسلام ، وساعدهم على ذلك طول إقامتهم في البلاد واختلاطهم مع الأهليين ومعرفتهم بعاداتهم وتقاليدهم ، حتى أسلم على أيديهم كثير من أهل الحبشة . وعما ساعد على نجاح هؤلاء الدعاة أن الحبشة في القرن السابع عشر قد انقسمت إلى إمارات تسكاد تكون مستقلة لا هم لها إلا إثارة الخلافات المذهبية والحروب الطائفية . وكانت الطبقات الفقيرة من المسيحيين المحقرة من الرؤساء المثقلة بالضرائب أكثر الناس تحولا إلى الإسلام . هذا إلى ما كان ينعم به المسلمون من مكانة اجتماعية رفيعة وحرية موفورة وإقبال على التعليم منقطع النظير . وقد لاحظ الرحالة ريبيل (Ruppell) عند زيارته بلاد الحبشة أن الملوك كانوا إذا أرادوا أن يلتبسوا شخصاً تتوافر فيه الأمانة والثقة اختاروه من بين المسلمين ، لأنهم أكثر حيوية

ونشاطا في البلاد ، ولأنهم كانوا سادة التجار المسكين بعنان الحياة الاقتصادية في البلاد^(١).

على أن الإسلام قد أحرز تقدما بطيئا في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومع ذلك فإن ما اتصف به رجال الكنيسة من جمود وما قام بين الزعماء من منازعات قد فسح للبؤثرات الإسلامية المجال لتعمل في حرية واطمئنان . وعلى الرغم من محاولة الملوك المسيحيين عزل المسلمين وإقصائهم عن الوظائف الرئيسية في البلاد لم يتوقف انتشار الإسلام في الحبشة ، بل إنه تغلغل في صفوف الزعماء من أهل الحبشة أنفسهم . وكان أحد « رهوس » (نواب) الملك في القرن التاسع عشر ، واسمه « الرأس على » مثلاً حياً لتغلغل النفوذ الإسلامي بين الطبقة الممتازة . ففي أثناء حكمه تحول نصف أهالي الولايات الوسطى من بلاد الحبشة إلى الإسلام . وبرغم العداء الذي ساد بين الحبشة ومصر طوال القرن التاسع عشر والحروب التي قامت بينهما من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٨٢ بسبب الخلاف على الحدود ، ظل انتشار الإسلام يسير في طريقه المرسوم^(٢).

وبما ساعد على استقرار المسلمين في الحبشة أن مصر كفت عن مطامعها في شرق إفريقيا بعد عزل إسماعيل وثورة عرابي وظهور ثورة المهدي في السودان^(٣) . وقد بدأت المهديّة في السودان تهتم بنشر الدعوة إلى الإسلام في الحبشة واتخذت مدينة القلايات في شرق السودان مركزاً لنشر النفوذ الإسلامي في داخل الحبشة . وقد أحس أهل الحبشة بخطر هذه الدعوة على

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة (س ١٠٤ — ١٠٥) .

الدكتور عبدالحجيد عابدين : بين الحبشة والعرب (القاهرة ١٩٤٧) (ص ١٩٩ — ٢٠٣) .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة (س ١٠٥ — ١٠٦) .

(٣) Theobald, The Mahdiya, pp. 21, 138 .

المسيحية وحاولوا انتزاع مدينة القلابات والقضاء على نشاط الدعوة المهدية في البلاد. وقد أثار هذا العداء السخط على المسلمين في الحبشة وبدأت الدولة تشدد الفكر عليهم لتضعف من روح الدعوة الإسلامية. إلا أن جهودها ذهبت أدراج الرياح ولا سيما في عهد خليفة « منليك » (بكسر الميم والنون) الذي وطد سلطانه في جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الملك « جون » سنة ١٨٨٩ ، وعاد الدين المسيحي الدين الرسمي في ولاية « كافا » . ويقول سيرتوماس أرنولد^(١) . « ولكن هذه التدابير العسارية التي اتخذت لصالح المسيحية قد أخفقت في وقف نمو النفوذ الإسلامي في القرن التاسع عشر ، فقد أسلمت قبائل بأجمعها كانت يوما ما تدين بالمسيحية » .

ولما تولى « لييج إياسو »^(٢) حفيد منليك الحكم أنكر الدين المسيحي ، وادعى أنه من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وتزيا بزي المسلمين ، ونقش على العلم الحبشي : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بل إنه فكر في إعلان الجهاد والقضاء على المسيحيين ، وأعد جيشاً عظيماً لتنفيذ هذه الخطة ، وقرر في سنة ١٩١٦ « تبعية البلاد لتركيا في الشؤون الدينية » . وهنا تدخلت الدول الأوروبية وأرغمته على النزول عن العرش ، وعمل خلفاؤه على الحد من النفوذ الإسلامي^(٣) .

يرجع قيام الحبشة الحديثة إلى عهد الملك تيودور الذي نمت قوته تدريجياً حول سنة ١٨٤٠ . وبعد أربع عشر سنة استقطاع أن يعلن نفسه إمبراطوراً

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ١٠٧ .

راجع Cederquist, Islam and Christianity in Abyssinia, vol. ii. (1912) p. 153 et seq. Budge, A History of Ethiopia (2 vols. London, 1938), pp. 407 - 409.

Trimingham, p. 130. (٢)

Idem. (٣)

على الحبشة ، وإن لم يستطع أن يضم إليه مملكة « شوا » القوية . وكان من أثر سوء التفاهم الذى قام بين الحبشة وبريطانيا أن أرسلت بريطانيا فى سنة ١٨٦٧ حملة بقيادة روبرت ناير (Robert Napier) الذى حلت الهزيمة به فآثر الانتحار . ثم عادت القوات البريطانية فى مايو من السنة التالية . وفى سنة ١٨٧٠ اشترت إيطاليا ميناء عصب جنوبى مدخل البحر الأحمر ، ثم استولت على ميناء ييلول . وقد أثار استيلاء الإيطاليين على مصوع (١٨٨٥ م) سخط أهل الحبشة ، فهجموا على قوة إيطالية قوامها خمسمائة جندى قتلوا منهم أربعائة . وعند موت الملك يوحنا الرابع سنة ١٨٨٩ آلت الامبراطورية إلى حكم منليك الثانى ملك شوا . ثم قامت الحرب مع الإيطاليين الذين انتصروا أول الأمر ، ثم حلت بهم الهزيمة (١٨٩٦) ، واعترف باستقلال الحبشة فى أكتوبر من تلك السنة ، وأصبحت عضوا فى عصبة الأمم سنة ١٩٢٣ . وفى أغسطس سنة ١٩٣٥ قامت الحرب ثانية بين الحبشة وبين إيطاليا التى احتلت إديس أبابا فى مايو سنة ١٩٣٦ ، وفرّ الامبراطور هيلاسيلاسى إلى إنجلترا ، وأعلن ملك إيطاليا نفسه إمبراطورا على الحبشة . على أن هيلاسيلاسى دخل بلاده فى يناير سنة ١٩٤١ ، حيث بدأت القوات الحبشية والبريطانية الأعمال الحربية ضد القوات الإيطالية وأحلت بها الهزيمة ، وعاد هيلاسيلاسى إلى حاضرة ملكه^(١) .

الساحل الشرقى للقارة الإفريقية

ذكرنا فى الباب الأول أن استيطان العرب لإفريقية الشرقية كان فى العصور القديمة يمتد حتى سوفالا (فى موزمبيق) جنوبى نهر زمبيزي ، برغم ما قيل من أن استيطانهم الحقيقى يرجع إلى القرن الثامن الميلادى

(١) عن الصراع بين الأحباش والإيطاليين : أنظر . Trimingham, (op. cit), p. 137.

على أثر نفى الزيدية أتباع زيد بن علي ، وما قيل أيضاً من أن استيطانهم يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . وعلى كل حال فإنه مما لا ريب فيه أن هجرات العرب أخذت بعد ظهور الإسلام تتوالى على شرق القارة الإفريقية ، وبصفة مستمرة من نواحي عمان والبحرين والأحساء واليمن وجنزموت ، وأنهم انتشروا على طول الساحل الشرقي وبنو المدن العربية التي امتدت من خليج عدن إلى مدار الجدي ، في المنطقة التي أطلق عليها جغرافيو العرب اسم « بر الزنج » . ولم يلبث هؤلاء المهاجرون أن أوغلوا في أنحاء القارة الإفريقية المتاخمة للساحل ، فشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة ، وإلى أوغندة وتنجانيقا ، وإلى نياسالاند ، بل إلى أقصى القارة الإفريقية جنوباً حيث مستعمرة الرأس . « وكان سكان الساحل الشرقي من هذه القارة ، كما يقول سير توماس أرنولد^(١) ، وثيق الصلة بالأرض التي نشأ فيها الإسلام . وعلى الساحل الشرقي بنى العرب مدناً مهمة اتخذوها مراكز ل سفنهم ، مثل سوفالا وكنلوا وزنبار وممبسة ومالندي ، مما يدل على روح المغامرة والمهارة التي تميز بها بحارة عمان والخليج الفارسي » (العربي) .

ومما يكن من شيء فإن الاستعمار البرتغالي في شرق إفريقيا لم يترك أثراً يذكر ، ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى سوء المناخ ؛ فقد كان البرتغاليون غرباء عن البلاد ولم يبق حكمهم فيها إلا عن طريق القوة العسكرية . كما أنهم لم يحتلوا شرق إفريقيا كله وإنما أقاموا محطات قليلة لا يتجاوز عدد سكان كل منها مائة . على أنهم أدخلوا محاصيل جديدة مثل الذرة والأناناس ، ولو أن زراعة هذه المحاصيل كانت على نطاق ضيق . كما أنهم لم يزاووا أى نشاط تجارى بين إفريقيا وأوروبا . وكل ما تركه الاستعمار البرتغالي من أثر هو أنه أساء إلى

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة س ٢٨٦ .

العرب الذين استقروا في هذه البلاد ، وأن ضعفهم قد زاد على مرّ الزمن .
وقد ورث الفرنسيون والإنجليز النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي وانصرفوا إلى
سواحل شرق إفريقية بعد قليل ، وانتقل مسرح الحوادث إلى ميناء مسقط
الذي يعد من المراكز الاستراتيجية في المحيط الهندي^(١) والآن نأخذ في الكلام
على شرق إفريقية ، ثم على الصومال وزنبار .

ولنتقل الآن إلى الحديث عن الفتح البرتغالي لشرق القارة الإفريقية :

بعد استيلاء المسيحيين على غرناطة سنة ١٤٩٢ م ووقوف فتوحات
الأتراك العثمانيين عند أسوار فيينا ، بدأت أوروبا المسيحية تدخل في عصر جديد
من القوة وتتهيا لهجوم مضاد على العالم الإسلامي ، ليس عن طريق البر فحسب
بل عن طريق البحر أيضاً للبحث عن مسالك جديدة للتجارة . وقد أدى ذلك
إلى دوران « دياز » حول رأس الرجاء الصالح واكتشاف كولمبس القارة
الأمريكية (١٤٩٢ م) .

ولم يكن عمل دياز أقل شأنًا من اكتشاف كولمبس للقارة الأمريكية ،
فقد كانت بداية عهد جديد في العلاقات بين أوروبا وبين إفريقية وآسيا وإلى
سيطرة الأوروبيين على تجارة المحيط الهندي وبسط نفوذهم السياسي والاقتصادي
على السواحل الإفريقية والآسيوية .

وكان البرتغاليون هم الرواد الأوائل في هذا الميدان ، فقد استطاعت هذه
الإمارة البحرية الصغيرة أن تستولي في وقت قصير على الطريق التجاري الموصل
إلى الهند وأن تحتكر تجارة الشرق كله . وفي سنة ١٤٩٧ سار فاسكو داغاما
مترسماً خطاً سلفه دياز ، فاستدار حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى المستعمرات

(١) كوبلاند ص ٤٨١ وما يليها .

العربية في موزمبيق وما لندى ، ثم شق طريقه إلى قاليقوت ثم عاد إلى لشبونة سالكا نفس الطريق الذى بدأه من قبل .

وقد أخذ البرتغاليون يذشئون على ساحل إفريقية الشرقى مستعمرات ومحطات تجارية وحصونا وثغورا . وكان صاحب هذه المشروعات الاستعمارية البوكر ك (Albuquerque) الذى اعتقد أن الطريق إلى الهند لن يكون آمنا إلا بإنشاء هذه المستعمرات ، كما رأى أن تأمين التجارة يقتضى الاستيلاء على ثلاثة مواقع استراتيجية هامة وهى : ملقا وعدن وهرمز ، لأنها بعد مفاتيح الطريق إلى البحر الأحمر والخليج العربى وجزر الهند الشرقية . أما ساحل إفريقية فقد رأى البوكر ك ضرورة احتلاله والسيطرة على نشاطه التجارى . فألقت سفنه مراسيها عند كلوا سنة ١٥٠٢ م وأرغم سلطانها على الاعتراف بالسيادة البرتغالية ودفع جزية مقدارها ألف وخمسمائة مثقال من الذهب .

ثم جاء دور زنبار . فدخلها البرتغاليون فى السنة التالية وفرضوا عليها السيادة البرتغالية وجزية مقدارها مائة مثقال من الذهب . وفى سنة ١٥٠٥ م خرج أسطول برتغالى يتألف من عشرين سفينة بقصد إنشاء مستعمرات فى ستة مراكز حربية تمتد من جنوب شرقى إفريقية إلى جنوب غربى الهند . وكانت مشروعات البرتغاليين فى الهند تهدف إلى احتلال سواكالا والاستيلاء على مناجمها من الذهب .

ثم جاء دور مدينة ممبسة التى دافع المسلمون عنها دفاع الأبطال ولسكنهم هزموا آخر الأمر ونهبت مدينتهم وخربت ثم أحرقت . وقد أرسل سلطان ممبسة يحذر أهل ما لندى الذين كانوا يضمرون ابتلاءه الكراهية أكثر مما كانوا يضمرون للبرتغاليين . وفى سنة ١٥٠٦ م أبحر إلى شرقى إفريقية أسطول برتغالى من موزمبيق حتى بلغ الساحل الغربى من مدغشقر ، ثم يم شطر كلوا وما لندى (م ١٢ — انتشار الإسلام)

وأخضع مدن لامو وأوجا وبراوّة التي رضيت أن تدفع الجزية للبرتغاليين . ثم جاء دور مقدشيو ، وكانت أقوى هذه المدن وأغناها . ولما ألقى البرتغاليون مراسيهم في مينائها وجدوا الساحل يزخر بالمقاتلة واضطر البرتغاليون إلى مغادرتها بسبب موسم الرياح للوسمية الذي كان على وشك ، وساروا إلى جزيرة سقطرة واستولوا عليها وأنشئوا بها قلعة برتغالية تتحكم في مدخل البحر الأحمر . ولم يبق أمام البرتغاليين إلا خطوة واحدة لإتمام سيادتهم فاستولوا على موزمبيق سنة ١٥٠٧ م واتخذوها قاعدة عسكرية وأنشئوا فيها قلعة ومستشفى وكنيسة ومستشفيات للجند ، وغدت موزمبيق أهم مدن ساحل إفريقية في العهد البرتغالي وما زالت كذلك حتى اليوم .

وبذلك ثم للبرتغاليين فتح شرقي القارة الإفريقية في أقل من عشر سنوات وخضعت لهم كل المدن الساحلية ، إما بقبولها السيادة البرتغالية ودفع الجزية وإما بالقضاء عليها . ولم ينبج من ذلك إلا مدينة مالندي حليفة البرتغاليين . وفي سنة ١٥٠٩ م عين ملك البرتغال حاكماً عاماً للمستعمرات البرتغالية في إفريقية الشرقية وساحل بلاد العرب . ولم يبق لإتمام هذه السيادة إلا مقدشيو ومدغشقر اللتين ظل البرتغاليون يتطلعون إليهما ، لولا انشغالهم بمشروعاتهم في الخليج العربي بعد أن نهبوا مسقط وهرمز وبعد أن هزموا الأسطول المصري في موقعة « ديو » (١٥٠٩ م) لم يبق أمامهم إلا ثغر عدن . وهكذا تحقق مشروع البرتغاليين الذي رسمه « البوكرك » فاستولى على ملقا ومات في مستعمرة « جوا » (بضم الجيم) مقر الامبراطورية البرتغالية . وبذلك انتهت سيطرة العرب على شرقي إفريقية والمحيط الهندي وانتقلت إلى البرتغاليين^(١) .

على أن البرتغاليين لم يقضوا على العرب قضاء مبرما ، فإنهم لم ينشئوا

(١) كؤبلاند ص ٤١ — ٤٧ .

إلا ثلاث مستعمرات رئيسية في كلوا وموزمبيق وسوقالا ، وإن كانوا قد أنشئوا مستعمرات أخرى فرعية في زنبار وبمبا . أما سائر المدن الساحلية فقد احتفظت بحكوماتها ونظمها المحلية مقابل أداء الجزية ، وكانت المدن الشمالية تتمتع بحرية التجارة أكثر مما كانت تتمتع به المدن الجنوبية على حين ظلت التجارة البرتغالية على ما كانت عليه^(١) . وكانت قوافل العرب تسير إلى داخل البلاد .

وصفوة القول أنه لم يكن لمشروعات البرتغاليين نتائج إيجابية في الميدانين الاقتصادي والسياسي ، وأنهم أخذوا يفقدون مستعمراتهم الأخرى بعد ضم البرتغال إلى أسبانيا سنة ١٥٨٠ م وأخذت دول أوربية أخرى تسلك نفس الطريق الذي سلكه البرتغاليون من قبل . فقد استدارت سفينة فرنسية حول رأس الرجاء الصالح في سنة ١٥٢٩ ، أي بعد رحلة دياز بثلاث وأربعين سنة ، وبدأت أول سفن الانجليز تدخل هذا الميدان في سنة ١٥٨٠ م ، واقتفت سفن هولندية أثرها في سنة ١٥٩٥ م . ولكن مغامرات الفرنسيين كانت منصرفة إلى ميدان آخر ، على حين بدأ الهولنديون والانجليز ، كما كان البرتغاليون من قبل ، يقدرون من مرحلة الكشف إلى مرحلة الاهتمام ، ومن الاهتمام إلى الهجوم المباشر المنظم . فقد استطاع لانكستر Lancaster الانجليز أن يصل إلى الهند (١٥٩١ م) سالكاً نفس الطريق البرتغالي القديم ، وتأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ م . وأخذت كل من إنجلترا وهولندا ترسلان السفن التجارية المسلحة لتنتشر من البحر الأحمر إلى جزائر الفلبين ، وأدت هذه الجهود إلى القضاء على البرتغاليين الذين لم يبق من إمبراطوريتهم العظيمة إلا « جوا » التي طردهم الهنود منها حديثاً ، كما طردهم الإيرانيون بمعونة الانجليز من هرمز سنة ١٦٦٢ م ، وأصبح الانجليز والهولنديون والفرنسيون في صراع مستمر من

(١) في سنة ١٥٧٢ م مضى البرتغاليون قدماً على طول وادي نهر زمبدي ولكنهم أصيبوا بالحمى ولم يتحقق هذا النجاح إلا على أيدي الانجليز فيما بعد .

أجل السيادة قرناً من الزمان ، فقد تفوق الهولنديون أول الأمر على الإنجليز ، فأنشئوا مستعمرة في جزيرة موريتس (Mauritius) (١٦٤٤ م) ، واستولوا على جزيرة سيلان من البرتغاليين (١٦٥٨ م) . وفي نهاية هذا القرن انتشرت المستعمرات والشركات الهولندية في الخليج العربي وعلى سواحل الهند وفي أرخبيل الملايو ، ولكنهم انسحبوا من هذه البلاد (١٧٥٠) وركزوا نشاطهم في جزر الهند الشرقية مع احتفاظهم بسيلان ومستعمرة الرأس .

وقد أخذ الإنجليز والفرنسيون يدعون وراثته أملاك البرتغاليين . فالفرنسيون تأسست شركتهم في جزر الهند الشرقية سنة ١٦٤٤ م واحتلوا جزيرة بربون (Bourbon) في المحيط الهندي ، وأخذوا يستعمرون جزيرة مدغشقر وخلفوا الهولنديين في جزيرة موريتس التي أطلقوا عليها اسم إيل دي فرانس (١٧١٣) . وبلغ النشاط الفرنسي أقصى مداه في منتصف القرن الثامن عشر ، ففي سنة ١٧٥٥ أصبح لهم ممثل في البصرة . وفي ذلك الوقت بدأ الإنجليز يهتمون اهتماماً خاصاً بالهند ، فاحتلوا سورات ومبای ومدراس وكلكتا وانتزعوا تجارة الخليج العربي من الهولنديين ، ثم خرجوا من صراعهم مع الفرنسيين ظافرين . فانتصروا في حرب السبع سنوات ، وأصبحت بريطانيا القوة الأوربية الأولى في الشرق الأقصى ، وخاصة بعد انتصارها على نابليون .

أما إفريقية الشرقية فإنه لم يرد لها ذكر في هذا الصراع المرير في المحيط الهندي بسبب تحكم البرتغال في شئونها وانصراف القوى الكبرى إلى الشرق الأقصى . وظلت ثغور شرق إفريقية مثل ممبسة وكلوا ومالندي تزاوّل التجارة بين شرق هذه القارة وبين الهند .

وكانت السفن البريطانية تزور موانئ إفريقية الشرقية في طريقها إلى الشرق الأقصى طلباً للمثونة وتبادل السلع التي تحملها من الهند أو إليها ، وبدأ الكتاب

الإنجليز يهتمون بهذه البلاد ويقدرّون أهميتها التجارية وما تحويه من ثروات قد تدر على بلادهم الربح الوفير ، كذلك تطلعت فرنسا إلى مستعمرة موزمبيق الهولندية وأغارت عليها مرتين دون جدوى ولكن إنجلترا ظلت حتى ذلك الوقت لا تحرك ساكناً ، لأن اهتمامها كان منصرفاً إلى الشرق الأقصى ولاعتقادهم أن الساحل الشرقى للقارة الإفريقية غير ملائم لسكنى الأوروبيين ، وكان استثمار هذه المناطق يرتبط إلى حد كبير بتطور العلم والطب في أوروبا . فلا عجب إذا كان استثمار هذه المناطق قد لاحت تباشيره منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وفي الوقت الذى تقلص فيه النفوذ البرتغالى فى شرق إفريقيا استردت ممبسة العربية ثرائها القديم وشهرتها السالفة . على أنه قد ظهر عامل لم يكن فى الحسبان ؛ فقد ظهر العثمانيون فى البحر الأحمر والخليج العربى ، فقد قوبل مندوب السلطان العثمانى بحماس شديد فى مقدشيو وممبسة وبراوة وكسمايو وفازا ولامو وغيرها ودخلت فى طاعة السلطان ، ثم وصل الأسطول البرتغالى وأخضع أهالى هذه المدن ، ثم اندلعت نيران الثورة فى أكثر المدن التى استنجد أهلها بالسلطان العثمانى ، ولكن الأسطول البرتغالى سرعان ما قضى على الأسطول العثمانى وأرغم أهالى هذه المدن على الإذعان لطاعتهم من جديد . وقد رأى البرتغاليون أن قاعدتهم العسكرية فى موزمبيق لا تكفى لصد العدوان التركى ، فأنشئوا قاعدة أخرى فى ممبسة وأخذوا يشجعون المستقرين الغربيين ويمدونهم بالمعونة لزراعة الأراضى الصالحة ، كما استقروا فى مدينة زنجبار وثبتوا أقدامهم فيها لمنع إغارة الأتراك العثمانيين عليها ، وبدأ الدومينيكان والجزويت يبشرون بالمسيحية وينشئون المدارس ويبنون الكنائس .

وقد انتقل مركز النفوذ البرتغالى من مالندى إلى ممبسة ، ونقل سلطان مالندى ، ويسعى حسن بن أحمد ، حاضرة ملكه إلى ممبسة ، وبدأ نفوذ هذه

الأسرة المالندية الموالية للبرتغاليين ينمو في ظل الحكم البرتغالي ، بل لقد أخذ يطنى على نفوذ البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر ، وبعث الحاكم البرتغالي العام في جوا يستدعى السلطان لمقابلته ، ولكنه أحس بالخطر ورفض تلبية دعوة الحاكم العام وفر إلى المناطق الداخلية حيث لقي حتفه . فولت الحكومة البرتغالية ابنه يوسف ، وكان في السابعة من عمره ، ونقلته إلى جوا وعلمته تعلما برتغاليا وحولته إلى المسيحية .

على أن هذا السلطان لما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال حنَّ إلى وطنه وعاد إليه وتحول إلى الإسلام ، وعول على أخذ الثأر لما لحق بأبيه ، فأعلن الثورة على البرتغاليين سنة ١٦٣١ م وقد تعلم لغتهم ووقف على أساليبهم في القتال ، وقتل البطالية البرتغالية على بكرة أبيها ، كما قتل البطريق البرتغالي بيده ليثأر لما ناله من المسيحية ، وطلب إلى أهالي المدن العربية الأخرى الانضمام إلى ثورته ، واستنجد البرتغاليون كمادتهم بأسطولهم في جوا في الوقت الذي تقاعس فيه العثمانيون عن نصرة إخوانهم في الدين . وثبت البرتغاليون أقدامهم في هذه البلاد من جديد .

ولم يكن معنى هذا أن البرتغاليين قد نجوا من الأخطار : فقد أخذت تفقد ممتلكاتها في المحيط الهندي ، وبدأ الهولنديون الإنجليز يحلون محلهم ، واحتل الإيرانيون هرمز ، وتحرر العمانيون في عهد الإمام سلطان بن سيف (١٦٥٠ م) وطردوا البرتغاليين من مسقط ومن ساحل الجنوب العربي ، ولم يبق أمامهم إلا شرق إفريقية ، وأرسلت ممبسة إلى سلطان بن سيف تدعوه إلى إنقاذ المسلمين كما أنقذ أبناء وطنه من قبل ، فخف إلى شرق إفريقية (١٦٥٢ م) وقضى على بعض السفن البرتغالية في زنجبار ، وفي سنة ١٦٥٢ م أبحر سلطان ابن سيف على رأس أسطوله إلى الساحل الشرقي فاستولى على مدينتي ممبسة وفازا ، وفي أواخر عهد هذا السلطان دخل العمانيون مدينة موزمبيق (١٦٦٩ م)

وأحلوا الهزيمة بالبرتغاليين (١٦٧٩ م) وعملوا في نهاية القرن السابع عشر على تخليص بني عمومته من الخطر البرتغالي . ففي سنة ١٦٩٦ م أرسل الإمام سيف ابن سلطان بن سيف أسطولا هاجم ممبسة وحاصرها حتى سقطت هذه المدينة التي لم يستطع البرتغاليون استردادها إلا في سنة ١٧٤٠ ، وذلك بسبب قيام النزاع بين إمارتي ممبسة وزنبار ، ونشوب الفتن الداخلية في سلطنة عمان نفسها وتهديد إيران لها .

ومنذ سنة ١٧٤٠ استقطاع الإمام العظيم أحمد بن سعيد أن يوحد ضغوف بلاده ويقضى على الخطر الفارسي ، واستعاد العرب ماضيهم القديم ونشاطهم التجاري وتحرروا من كل نفوذ أجنبي .

والعرب في جزيرة سقطرة^(١) إما خالص أو ممن اختلطوا بالسودانيين . وهم يستوطنون الساحل الشمالى لهذه الجزيرة ، ويقيمون في قرى من الحجر ويحترفون التجارة . ويشغل الذين يستوطنون القسم الشمالى الشرقى بتربية الماشية أو بالزراعة . وتختلف لغة سكان سقطرة الأصليين عن لغة من جاوهم . ويظهر أن لهذه اللغة صلة بلهجات مَهْرَة . ويمكن أن نخلص من ذلك إلى أن سكان سقطرة الأصليين قد انقرضوا منذ زمن بعيد وحلت محلهم جاليات أتت من سواحل بلاد العرب الجنوبية^(٢) . وقد احتلت بريطانيا جزيرة بريم (١٨٥٨ م) وسقطرة (١٨٧٦ م) .

وفي جزائر قر^(٣) امتزجت جاليات العرب بالسكان الأصليين . وقد نشأ

(١) يضم السين والقاف وسكون الطاء وفتح الراء .

(٢) حسن ابراهيم حسن : رسالة خطية موضوعها : وصف اثغرافي لأشهر الأمم التي تسكن بعض أصقاع إفريقيا الشرقية ص ٥ .

(٣) بفتح القاف والميم وسكون الراء ، وهى أرخبيل يتألف من أربع جزر كبيرة إلى الشمال من مضيق موزمبيق بين جزيرة مدغشقر والساحل الأفريقى ، وهى جزر مايوت ، وأنجوان . وموهيل ، ونجازنجا ، وتعرف نجازنجا عند الأوربيين باسم قر الكبرى .

من هذه الأجناس جنس مختلط من السامى الخالص إلى الأسود البنتو^(١) والملجاشى^(٢) ، ويعرفون بالجنس القمري . ويتردد التجار العرب على جزيرة نجازنجا . والعرب في أنجوان يفخرون بأصلهم . وقد امتزج السود في جزيرة مايوت بالدم العربى ، ونشأ عن هذا الاختلاط ما يعرف بالجنس المياهوورى . ويسير القمريون على وفق الشريعة الإسلامية ، ويتكلمون اللغة السواحلية التى تمتاز ببعض عبارات ملجاشية . وهم مسلمون سنيون شديداً متمسكين بدينهم . ويبنون دورهم من الحجر والجص ، ويشغل العرب منهم بالزراعة ، ويشغل بعضهم بصناعة الحصر وحبال النارجيل والسيوف والحراش واستخراج السكر ويتكلم بعضهم العربية ، ويلتحق أطفالهم بالمدارس الأولية التى يتعلمون فيها القرآن واللغة العربية^(٣) .

وقد استوطن العرب إقليم سوفالا جنوبى موزمبيق بين سنتى ١٠ و ١٢٢٠ م . وقد ورد ذكرها فى التوراة ؛ وبالع جغرافيو العرب ولا سيما الإدريسي فى ثروة هذه البلاد التى يتردد العرب عليها كثيراً .

وقد قيل إن سكان جزيرة مدغشقر جاءوا من إفريقية وبلاد العرب . وقد اختلط بعض ملاحى العرب الذين كانوا يترددون على الساحل الإفريقى الشرقى منذ زمن بعيد بسكان هذه البلاد ، كما اختلطوا بجنس الملايو الذين لا يبعد أن تكون الرياح قد طردتهم وألقت بهم السفن التى كانت تقلهم على سواحل هذه الجزيرة . وتدعى قبيلة أنقيمورونا التى تحتل جزءاً من الساحل الجنوبى الشرقى

(١) ويسكنون ساحل إفريقية الجنوبية الشرقية ، ومنهم كفرة ناتال ومستعمرة الرأس وسكان بتشوالاند ويتكلم البنتو (بفتح الباء وسكون النون وضم التاء) بأهجات مختلفة مشتقة من لغة واحدة تختلف اختلافاً كبيراً عن لغة البربر . وينصف البنتو بشمورهم المجددة وسواد اللون وضيق الجبهة . وقد اختلطوا مع البوشمان وأعقبوا الهوتنتوت .

(٢) بفتح الميم واللام .

(٣) حسن إبراهيم حسن : المصدر نفسه ص ٤ — ٥ ، ١٠ ، ١٩ .

أنهم عرب من مكة^(١) . ويقول سير توماس أرنولد إن تحولهم إلى الإسلام لا بد أن يكون قد تم على أيدي دعاة من العرب . وإن الوقت الذي تحولت فيه هذه القبيلة إلى الإسلام لا يمكن تحديده بالضبط ، برغم هذه الأساطير التي تروى أنه يرجع إلى عهد الرسول . وتعزى هذه المعلومات الموثوق بها عن المسلمين في هذه الجزيرة إلى ما كتبه الإيطاليون والبرتغاليون في القرن السادس عشر الميلادي^(٢) .

وينتشر الجنس العربي في مدغشقر ولا سيما في الشمال الشرقي والجنوب الغربي . ولا يبعد أن تكون الأسرة المالكة من سلالة العرب الذين اختلطوا مع السكان الأصليين بالمصاهرة . وقد تكون من الإفريقيين والعرب والملايو في مدغشقر ما يعرف بالجنس الملجاشي أو الملجاش . وهم يميلون إلى الشعر والموسيقى ، ويشغل الرجال بالزراعة ، ويقضى النساء أوقاتهم في نسج وغزل الخيوط . وقد مهر الرجال في أعمال البناء وفي صناعة الحديد والنحاس والسلاسل الذهبية والفضية والفخار . ويعرف الملجاش بالقصاحة ، وتنتشر بينهم الخرافات ، ويشغل الكثير منهم بالعرافة^(٣) .

ولقد شق الإسلام طريقه إلى أقصى الجنوب من القارة الإفريقية ، أي إلى مستعمرة السكاب . ففي السنين الطويلة التي تلت الرحلات البرتغالية التي بدأت في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، نمت التجارة إلى الشرق حول القارة الإفريقية نموا واسع النطاق ، واجتذبت هذه التجارة الأمم البحرية في الغرب ولا سيما هولندا وإنجلترا . على أن فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ قلل من أهمية هذا الطريق ، ثم عادت الدول الغربية إلى إحيائه من جديد سعيا وراء الرقيق

(١) المصدر السابق ص ٦ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ، نقل عن Boneon, Les Missionnaires De L' Islam en Afrique (Revue Chrétienne, tome xiii. p. 295).

(٣) حسن إبراهيم حسن ، وصف أنتغرافي ص ١٠ .

والذهب^(١) . وقد استعمرت الجاليات الهولندية رأس الرجاء الصالح من سنة ١٦٥٢ إلى سنة ١٧٩٥ . ولما استردوه بعد صلح إميان (Peace of Amiens) في سنة ١٨٠٢ احتله البريطانيون من جديد بمجرد نشوب الحرب مرة أخرى (١٨١٤) .

ومسلمو الكاب من سلالة أهل الملايو الذين جاء بهم الهولنديون في القرن السابع عشر أو الثامن عشر . ومنهم الشيخ يوسف ، وهو معلم ديني كان ذا نفوذ عظيم في جاوة . وقد ساقه الهولنديون منقياً إلى مستعمرة الكاب هو وأسرته وكثيراً من أتباعه ؛ ولا يزال ضريحه يعد مكاناً مقدساً يزوره المسلمون في هذه البلاد . وإن الأسماء الهولندية الصرفة التي يتكلم بها بعض أهالي مستعمرة الكاب وملامح الوجه التي تلاحظ في كثير منهم ، لتدل على احتمال اختلاطهم بالهولنديين ، أو أن بدمائهم على الأقل قدراً كبيراً من الدم الهولندي . كما أنهم ضموا إلى صفوفهم بعض الموتنتوت الذين تحولوا إلى الإسلام^(٢) .

وقد ذكر بعض الباحثين أن الذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام من بين الزوج والسود من أهالي الكاب كانوا أكثر عدداً من هؤلاء الذين تحولوا إلى المسيحية ، على الرغم من الجهود الجبارة التي يبذلها المبشرون . ويعزون ذلك إلى النفور الذي أبداه السادة المسيحيون من تعميم عبدهم خوفاً من الحقوق التي قد ينفها العبد الذي يُعمد . على أن هذا النفور قد أخذ الآن يزول بدليل ازدياد عدد الذين يتحولون إلى المسيحية . بيد أن هذا لا يقلل من الجهود التي يبذلها الدعاة المسلمون المتحمسون ، ولا سيما الهنود الذين يزورون مستعمرة الكاب بطريقه منتظمة ، والذين يهتمون بتعليمهم أصول الإسلام وبيعثون في نفوسهم حياة دينية أعمق من الحياة التي كانوا يحيونها . ويعتبر عمال الهنود الذين يأتون

(١) Sir philip Mitchel, Africa To - Day, pp. 5—6.

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

للعمل في حقول الماس في إفريقيا الجنوبية دعاء للإسلام . وقد أحرز هؤلاء الدعاة نجاحاً ملحوظاً بين الأهالي السود في مستعمرة الكاب ، حيث أسسوا في هذه البلاد مركزاً هاماً لنشر الدعوة الإسلامية . ومن الوسائل التي يستغلها هؤلاء الدعاة تبني الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على الإسلام^(١) . وبحج فريق من أهالي الكاب كل عام إلى مكة حيث يعين لهم شيخ خاص للإشراف عليهم^(٢) .

والإسلام في إفريقيا الاستوائية الشرقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر يكاد يكون منحصراً في البلاد الساحلية وما يتاخمها من البلاد . على أن منع تجارة الرقيق ومد السكك الحديدية^(٣) قد اقترن بنشاط ملحوظ في نشر الدعوة الإسلامية ، واستطاع التاجر المسلم أن يشق طريقه إلى مناطق كانت مغلقة في وجهه حتى ذلك الحين . وقد استطاع تجار العرب الذين أتيح لهم أن يدخلوا أوغندة في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يحولوا كثيرين من أهل « بجنّدة » (بضم الباء وفتح الجيم وسكون النون) إلى الإسلام . على أن زيارة ستانلي للملك هذه البلاد سنة ١٨٧٥ أدت إلى دخول بعثات مسيحية لقي بعض أفرادها حتفهم على أيدي أهل بجنّدة ، كما أدت إلى ضعف قوة المسلمين بزيادة عدد الذين تحولوا إلى المسيحية وإعلان الحماية البريطانية في هذه البلاد

(١) سير توماس أرنولد : كتاب الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

النظر Sir T. E. Colebrooke, The Life of H. T. Colebrooke (London, 1873) p. 35.

(٢) Snouck Hurgronge, Mekka pp 296 - 297.

(٣) افتتح خط حديدي من ممبسة إلى بحيرة فيكتوريا سنة ١٩٠١ ، وبلغ طوله من ممبسة إلى كيسومو ٥٨٧ ميلاً ، وانتهى العمل في هذا الخط في شهر ديسمبر سنة ١٩٠١ ، ثم مد الخط إلى كامبالا سنة ١٩٣١ .

(١٨٩٤ م)^(١) . ومع ذلك فإنه لا يزال في أوغندة عدد من المسلمين يشغلون مراكز مهمة . كما دخل عدد كبير في بلاد بوسوجا (Busoga) شمالي أوغندة في الإسلام سنة ١٩٠٦^(٢) .

كذلك شق الإسلام طريقه من الساحل الشرقي إلى « نياسالاند » على أيدي العرب وحلفائهم الياو (Yaos) الذين جاء أجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقي حيث اعتقدوا الإسلام منذ زمن بعيد . وقد انتشر الإسلام في هذه البلاد بسرعة فائقة في العقد الأول من القرن العشرين^(٣) .

« على أن تأثر أهالي البلاد الساحلية الشرقية للقارة الإفريقية (عدا أهالي الصومال وزنبار والجلال) ، كما يقول سير توماس أرنولد^(٤) - قليل قلة ملحوظة ، برغم وجود جموع كبيرة من تجار العرب التي كانت تختلف إلى هذه البلاد الساحلية .

بلاد الصومال

لم تعد البلاد التي احتلها الصوماليون منذ عهد بعيد الساحل الإفريقي من خليج عدن ، وكان يعرف باسم الصومال البريطاني ، على حين احتلت الجزء الجنوبي من بلاد الصومال الحالية قبائل البنتو (ويطلق عليهم جغرافيو العرب اسم الزنج) التي حلت محلها قبائل الجلال^(٥) . وقد سجل الإسلام

(١) أصبحت أوغندة منطقة نفوذ بريطانية سنة ١٨٩٠ ، ثم أعلنت الحماية على جزء منها وعلى كينيا سنة ١٨٩٤ . وفي سنة ١٨٩٤ أعلنت الحماية البريطانية على ما يعرف الآن باسم أوغندة ، وقد نالت استقلالها .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة من ٢٨٩ .

East Africa (ed. by Gordon—Brown), pp. 7 - 9.

(٣) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة من ٢٩١ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة من ٢٨٨ .

(٥) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 209.

انتصاراً حاسماً في إفريقية الشمالية الشرقية ولا سيما في بلاد الصومال حيث
تقد من بلاد العرب مئات من الدعاة كل سنة . وكان هؤلاء الدعاة — كما يقول
سير توماس أرنولد^(١) — أكثر توفيقاً بين قبائل الصومال منهم بين قبائل
الجمال . ولعل قرب هذه البلاد من بلاد العرب قد جعل منها مسرحاً للنشاط
الدعوة الإسلامية في عهد مبكر .

وقد ذكر ابن حوقل^(٢) أن أهالي زيلع كانوا يدينون بالمسيحية في النصف
الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . ولا يبعد أن يكون
تجار العرب الذين لجئوا إلى الصومال هم الذين حملوا الإسلام معهم عبر البحر .
وتقول أسطورة شائعة لدى الصوماليين بأن عربياً عريقاً في الأصل أجبر على
أن يغادر بلاده ، فعبر البحر إلى « عدل » (بفتح العين وكسر الدال) حين
دعا إلى الإسلام بين أجدادهم . وفي القرن الخامس عشر الميلادي جاءت من
حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربياً نزلوا في بربرة على البحر
الأحمر ، ثم انتشروا في بلاد الصومال يدعون إلى الإسلام . وقد شق أحد
هؤلاء اللاجئين ، وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباي ، طريقه إلى حرر حول
سنة ١٤٣٠ م واستطاع أن يحول كثيرين إلى هذا الدين . ولا يزال قبره موضع
تعظيم في هذه المدينة . وعلى مقربة من بربرة جبل يسمى جبل الأولياء ، تخليداً
لذكرى هؤلاء الدعاة الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك في خلوة قبل أن
ينتشروا في طول البلاد وعرضها لتحويل الناس إلى الإسلام^(٣) . وفي أوائل
القرن السادس عشر كان الصوماليون كافة قد تحولوا إلى الإسلام عن طريق

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة من ٢٩٣ ، .

(٢) المسالك والممالك (طبعة لندن ١٨٧٣) ص ٤١ .

(٣) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة من ٢٩٣ — ٢٩٤ .

استقرار العرب من اليمنيين وغيرهم في المراكز التجارية الساحلية^(١) . وبذلك ساد الإسلام جميع أرجاء إفريقيا الشمالية الشرقية حتى احتل الإمبراطور منليك هرر سنة ١٨٨٦ ، فتمحول بعض الأهالي إلى المسيحية^(٢) .

ثم استولت إيطاليا على المنطقة الشمالية التي تعرف الآن باسم إريتريا ، ثم قسمت البلاد التي تحتلها القبائل الصومالية الأخرى بمقتضى المعاهدة التي أبرمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإثيوبيا . وتعد إريتريا أقدم المستعمرات الإيطالية ، وهي ليست أكثر هذه المناطق تقدما وإن كانت أكثرها ازدهارا بالسكان ، لأنها تشتمل على مناطق جبلية صالحة لاستقرار سكان زراعيين . ولذلك نزلت بها جاليات كثيرة من الأوروبيين مع أن الأراضي الزراعية لا تزيد على ربع مساحة البلاد .

وفي سنة ١٨٧٠ امتلكت إيطاليا ميناء « عَصَب » . وفي سنتي ١٨٧٤ — ١٨٧٥ حصل الخديو إسماعيل من الباب العالي على إذن بمد نفوذه على دنكلى وساحل الصومال حتى جنوبي رأس جواردافوى . على أن الحكم المصرى لم يدم أكثر من عشر سنين ، واضطرت مصر إلى سحب حامياتها حين اشتعلت نار الثورة المهدية في السودان . ثم احتلت إيطاليا ميناء مُصَوَّع (١٨٨٥) على ساحل إريتريا ، ويمتاز بوجود مرفأ طبيعى تحيط به مجموعة جزائر ، وعقدت مع الإمبراطور منليك الثانى معاهدة اعترفت فيها لإثيوبيا بالحكم الإيطالى على إريتريا (١٨٨٩) . ثم امتدت الحماية الإيطالية فى رأس جواردافوى إلى خليج عدن . وقد ذهب احتجاج السلطان العثمانى الذى كانت له السيادة على هذه البلاد أدراج الرياح^(٣) .

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 209

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة س ٢٩٤ .

(٣) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 132.

وفي ذلك الوقت مدت بريطانيا نفوذها على القبائل الصومالية التي كانت تحت حكم العثمانيين . ففي سنة ١٨٨٤^(١) أعلنت الحماية البريطانية على بعض هذه القبائل ، ثم أعقب ذلك عقد معاهدات فردية مع القبائل الأخرى سنة ١٨٨٧ . وقد احتلت بريطانيا ميناء زيلع^(٢) ، كما احتلت ميناء بربرة التي وصفها أحد الرحالة فقال إنها المفتاح الحقيقي للبحر الأحمر ، والمركز التجاري لإفريقية الشرقية ، والمكان الوحيد لرسو السفن على الساحل الغربي من إريتريا ، من السويس إلى خليج جواردافوي^(٣) .

وقد دل الإحصاء الذي قامت به إيطاليا سنة ١٩٣١ أن ٧٣٪ من سكان إريتريا كانوا مستقرين ، وأن سائر السكان رحالة متنقلون أو شبه رحالة بنسبة متعادلة . وفي الصومال الإيطالي ١٧٥٪ يقيمون على الساحل وعلى الأنهار الكبيرة ، و ٤٢٪ رحالة ، و ٥٠٪ شبه رحالة . وينتشر الرحالة المتنقلون أيضاً في الصومال البريطاني والصومال الفرنسي وفي بلاد الحبشة وبين قبائل الجبال الجنوبية ، ونجد كثيرين ممن يقيمون في الهضبة الجنوبية شبه رحالة .

وقد دخلت فرنسا في سباق مع بريطانيا التي مضت قدماً في مد رقعة أملاكها في إفريقية من الجنوب إلى الشمال . فمدت هي رقعة أملاكها من الغرب إلى الشرق ، فاحتلت بعض أجزاء البلاد التي يطاق عليها الآن اسم الصومال الفرنسي . وفي مؤتمر برلين (١٨٨٥ م) إتفقت الدول العظمى على تقسيم إفريقية . وفي سنة ١٨٨٨ عقدت بريطانيا وفرنسا مؤتمراً لتحديد مناطق

(١) عقدت بريطانيا أول اتفاق مع الصومال سنة ١٨٧٧ ، ثم عقدت اتفاقات بمائة مع بعض حكام هذه البلاد . مثال ذلك : الاتفاق الذي عقد مع حاكم زيلع سنة ١٨٤٠ ، كما احتلت بريطانيا جزيرتي بريم (١٨٥٧) وسقطرة (١٨٧٦) .

(٢) Trimingham, Islam in Ethiopia, p. 132.

(٣) Theobald, The Mahdiya, pp. 138 - 139.

النفوذ الخاصة بكل منهما ، وتقررت حدود المحمية البريطانية في الصومال نهائياً بمقتضى الاتفاق الذى تم بين بريطانيا وإيطاليا سنة ١٨٩٤ ، وبينها وبين إثيوبيا سنة ١٨٩٧ . وهكذا اتفق كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإثيوبيا على تقسيم بلاد الصومال .

ثم بقيت مقاطعة هرر الخصبة ، وتقع جنوبى غربى زيلع وعلى بعد نحو مائتى ميل منها . ولم يعد من الممكن أن تبقى هذه المقاطعة فى أيدي المصريين بعد ما أصاب الحكم المصرى من ضعف ووهن بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ . لذلك اضطرت الحامية المصرية إلى إخلاء هذه المنطقة سنة ١٨٨٥ ، ولم يستطع ابن آخر سلاطينها أن يحتفظ باستقلاله . وانضمت هذه المقاطعة إلى بلاد الحبشة فى عهد منليك الثانى بعد ذلك بسنتين . وبذلك زالت معالم الإمبراطورية المصرية الواسعة التى بذل إسماعيل جهوداً جبارة فى دعم أسسها ، وآل حكم إريتريا والصومال إلى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والحبشة^(١) .

وقد أثار أحد زعماء الصوماليين وهو محمد بن عبد الله المتاعب فى وجه البريطانيين ، وأعلن الجهاد ضد بريطانيا وإثيوبيا ، بل ضد الدول الغربية . وكانت حركته مظهراً آخر لثورة محمد بن أحمد المهدي ضد الحكم العثمانى المصرى فى شرقى السودان . وقد وجد مهدي الصومال كما وجد مهدي السودان حماة دينية بالغة من القبائل التى تقيم فى بلاده ، وجمع قوات ضخمة من الدراويش الذين تدفقوا من المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية ، ومن مناطق الصومال الخاضعة لحكم الإيطاليين وأهل الحبشة .

وقد حجج محمد بن عبد الله ببيت الله فى مكة أكثر من مرة ، واندمج فى سلك إحدى الطرق الصوفية ، واستقر فى بربرة سنة ١٨٩٥ ، وأعلن نفسه

خليفة الطريقة الصالحية التي اعتنق مبادئها في أثناء تأدية فريضة الحج . على أن دعوة محمد بن عبد الله لم تلق كثيراً من الاهتمام في بادئ الأمر بسبب منافسة الفرق الصوفية الأخرى ، كالكادرية التي كانت قد جذبت إليها أتباعاً كثيرين . لذلك لم ير محمد بن عبد الله بداً من مغادرة بربرة ولجأ إلى مكان آخر ، ورأى أن يدعو مواطنيه إلى التمسك بعقائد الإسلام والتزام الشعائر الإسلامية كما كانت في عهد السلف الصالح ، كما دعاهم إلى الوحدة لتحقيق الغرض المشترك وهو طرد الغربيين من بلادهم . لذلك لقيت دعوة محمد بن عبد الله أذناً مصغية ، لأنها كانت منبثقة من بواعث دينية ، فضلاً عما اتصف به من البلاغة والفصاحة ، وما كان ينشده من الأشعار التي كانت تلهب حماسة أنصاره . لذلك لقيت دعوته ما لقيته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب ودعوة محمد بن أحمد المهدي في السودان من إقبال وترحيب .

وقد صمت القوضى في داخل بلاد الصومال وقامت الحروب الأهلية حتى فنى ثلث السكان . ولم تقو الحكومة البريطانية إلا على السيطرة على المناطق الساحلية ، حيث تجمعت قواتها في زيلع وبربرة وغيرها . وانقطعت التجارة في المدن الساحلية ، وتعطلت المناطق المخصصة لرعى الأغنام بسبب كثرة الهجرات وتوالى إغارات الدراويش . ولم تدخر بريطانيا وسعاً في توجيه الحملات الحربية لقمع حركة محمد بن عبد الله حتى سنة ١٩٢١ ، وانتهت هذه الحركة بعد أن كلفت البريطانيين خسائر فادحة في الرجال والأموال^(١) .

وفي التسع عشرة السنة التالية انتشر السلام في ربوع بلاد الصومال ، حتى أغار عليها الإيطاليون الذين اتخذوا بلاد الحبشة قاعدة لأعمالهم الحربية سنة ١٩٤٠ . وقامت السلطات البريطانية في الصومال البريطاني وفي الصومال

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 133 — 135.

(م ١٣ — انتشار الإسلام)

الفرنسي بوضع خطة مشتركة للدفاع عن هذه البلاد : على أن هزيمة فرنسا أمام الجيوش الألمانية في يونية سنة ١٩٤٠ وقيام نظام فيشي في جيبوتي قد حال دون تنفيذ هذه الخطة ، وانسحبت القوات البريطانية أمام القوات الإيطالية إلى عدن . وفي مارس سنة ١٩٤٠ عادت القوات البريطانية فاستولت بمساعدة قوات عدن على ميناء بربرة ، واستردت الصومال البريطاني وأحلت الهزيمة بالإيطاليين .

سلطنة زنبار

السيد سعيد في مسقط زنبار

(١٨٥٦ — ١٨٠٦)

١ — السيد سعيد في مسقط

ورث السيد سعيد بن سلطان تركة مثقلة بالأعباء : فكان الأعداء يحيطون به من كل جانب ، والقبائل المتمردة منبثة في جميع أرجاء البلاد ، الوهابيون كانوا مصرين على الاحتفاظ بنفوذهم القديم ، وطائفة من أهالي الخليج العربي تهدد حرية التجارة العالمية ، والنزاع المتصل بين الفرنسيين والإنجليز قد يجر عمان في أية لحظة . أما الوهابيون فقد رأى سعيد أن يهادنهم : ورضى بعقد هدنة معهم ودفع الجزية لهم وتظاهر بالتسكك بمبادئ المذهب الوهابي وأبقى على قوة الاحتلال في بلاده . وأما قراصنة الخليج العربي على حد تعبير كوبلاند^(١) فلم يستطع سعيد أن يضع حداً لعدوانهم ، ورأى أن يستعين بالبريطانيين . ولكن حكومة بمباي في ذلك الوقت كانت على وفاق مع الوهابيين ومع قراصنة الخليج العربي الذين سمحت لهم بدخول موانئ الهند على ألا يتعرضوا للسفن البريطانية في الخليج العربي .

(١) كوبلاند ص ١٠٨ — ١٠٩ .

لذلك رأى السيد سعيد أن يسترضى الفرنسيين ، وكان قد أثار غضبهم حين أمر بطرد السفينة الفرنسية من ميناء مسقط تنفيذاً لمعاهدة مالسكولم التي كانت تقضى بأن يطلب السلطان حماية البريطانيين في حالة وقوع أى عدوان على مسقط من جانب فرنسا . وقد كتب السيد سعيد إلى حاكم « إيل دى فرانس » يطلب إليه إعادة العلاقات الودية بين بلديهما إلى ما كانت عليه . ولكن الحاكم العام لم يغفر له حادث السفينة وأغلظ في الرد عليه ، فأوفد سعيد مبعوثه إلى بمباي يطلب صداقة إنجلترا فتعهدت له بحماية بلاده في حالة وقوع النزاع بينه وبين فرنسا ، ووافقت على بعض الطرادات البريطانية إلى مسقط لتقوم بحمايتها .

ولكن السياسة البريطانية في الهند قد تبدلت بعد تعيين حاكم جديد لها رأى ألا يورط البلاد في أمثال هذه المنازعات المحلية ، سواء في بلاد الهند نفسها أو في جزيرة العرب أو في غيرها من البلاد ، كما رأى أن معاهدة مالسكولم لا تلزم إنجلترا إلا بحماية تجارة مسقط فقط . وكان السيد سعيد كان يترقب هذه الفرصة ليتحلى من الالتزامات البريطانية التي تنص عليها هذه المعاهدة ، فأتصل بالفرنسيين وعقد معهم معاهدة صداقة وتجارة وقعت في ١٦ يولية ١٨٠٧ . وكانت هذه المعاهدة الجديدة تختلف عن المعاهدات السابقة التي تمنح معظم الامتيازات لأحد الطرفين ، وإنما تقوم على المشاركة في الحقوق والواجبات بالنسبة إلى رعايا البلدين في الشؤون التجارية وفي الملاحة .

وليس من شك في أن الفرنسيين كانوا وهم يوقعون هذه المعاهدة يرون بأبصارهم إلى شرق القارة الإفريقية والحفاظة على تجارة فرنسا في هذه البلاد . وكانت فرنسا مطمئنة إلى موافقة أهل كلوا على تجديد هذه المعاهدة لأنها كانت جزءاً من البلاد الخاضعة لسيطرة العثمانيين وتقضى بأن تستمر فرنسا في علاقاتها التجارية مع زنجبار ولا سيما في تجارة العبيد والذهب في الوقت الذي

تعذر فيه على الفرنسيين أن يتعاملوا مع الجزء البرتغالي من شرق إفريقيا ، ولا سيما مع مدغشقر وموزمبيق ، لأن البرتغاليين ، برغم وقوفهم على الحياد في الحروب الأوربية كانوا يسمحون للتجار البريطانيين بمزاولة نشاطهم التجاري ، وحالوا بذلك دون نجاح سياسة الحصار الاقتصادي التي فرضها نابليون . وهذه الاتفاقية الجديدة مع مسقط من شأنها أن تجنب فرنسا كل هذا الحرج وتجعلها تركز اهتمامها على الجزء الشمالي من شرق إفريقيا . وقد رأت فرنسا أن تعين ممثلين من قبلها يقيمون في زنجبار ويقومون بتنفيذ سياستها ويحولون دون مغالاة الأسراء المحليين في دفع الرسوم الجمركية .

وكان السيد سعيد بن سلطان يعلم أنه لا خلاص له من الخطر الوهابي إلا بمخالفة البريطانيين وأن خضوعه لشركة الهند الشرقية البريطانية خير من خضوعه للوهابيين . ولكن نابليون كان لا يزال يفكر في الهند وفي الشرق الأقصى بعد معاهدة « أوترلتر » المشهورة سنة ١٨٠٥ ، كما كان يفكر في مخالفة إيران باعتبارها الطريق الطبيعي للهند . وكانت إيران في ذلك الوقت تريد أن تحالف أية قوة تنقذها من الخطر الروسي . لذلك طلبت إيران إلى البريطانيين في الهند عقد مثل هذا التحالف الذي لم يستجيبوا له والذي أدى إلى إبرام معاهدة بين إيران وفرنسا التي أعدت العدة لدخول إيران عن طريق حلب أو عن طريق رأس الرجاء الصالح وبحر العرب ثم الخليج العربي . وكان الحاكم الفرنسي العام في الشرق الأقصى يعتقد أن العلاقات الودية القائمة بين فرنسا وبين الفلبين الأسبانية وجزر الهند الشرقية الهولندية تتيح لفرنسا أن تتخذ من هذه المناطق مراكز للهجوم على البريطانيين في الهند . ومن ناحية أخرى تستطيع فرنسا أن تستغل موقع مدغشقر وثرواتها الطبيعية لتغلف « إيل دي فرانس » باعتبارها قاعدة فرنسية كبرى في المحيط الهندي . كما تطلع الفرنسيون أيضاً

إلى موزمبيق ومواردها الغنية ، ورأوا أن أحسن وسيلة لتحقيق هذه المشروعات هي أن يزداد تعاونهم مع السيد سعيد بن سلطان في مسقط .

وقد أيقظت هذه المشروعات الفرنسية إنجلترا من سباتها العميق وجعلتها تعدل عن سياسة التردد القديم وتتخذ الوسائل الكفيلة بإحباط مشروعات نابليون . وكان من الطبيعي أن تتغير السياسة البريطانية في الهند ، فعميت إنجلترا حاكما عاما جديداً يقوم برسم سياسة تقلام والأوضاع الجديدة وتقوم على الدفاع عن الهند وحمايتها من العدوان الفرنسي . وهذه السياسة الجديدة تقوم على المبدأ الآتي وهو هجوم سياسي مضاد وحملات بحرية على القواعد الفرنسية في المحيط الهندي . وبهذا أخذ البريطانيون يؤلبون الدول المحيطة بالهند وإيران ، ويوضحون لها الخطر الفرنسي الجديد ، فأرسلوا البعث إلى أفغانستان وإلى أمراء السند .

وقد أدرك البريطانيون أن العمليات البحرية الفرنسية لا يمكن القضاء عليها إلا باغلاق مدخل الخليج العربي بموافقة إمام مسقط وبفضل موقع بلاده وقوته البحرية . لذلك أرسلت بريطانيا إلى السيد سعيد تثير مخاوفه من المشروعات الفرنسية الجديدة . وكان السيد سعيد يريد أن يظل صديق فرنسا في الناحية التجارية . ولكن كان إذا خير بين فرنسا وإنجلترا ، اختار إنجلترا بلاسراء ، لأن الخطر الفرنسي إذا امتد إلى بلاده فإنه سيكون أفدح من الخطر الوهابي . على أن نابليون قد شغل بالسياسة الأوربية واختفى حلمه في الشرق في غبار الثورة الإسبانية سنة ١٨٠٨ ، على الرغم من أنه كان قد أعد العدة فعلا لغزو الهند عن طريق « إيل دي فرانس » .

وبذلك فتح الطريق أمام إنجلترا لتضع يدها على جزائر الفلبين ، وأصبحت اتصالات الفرنسيين بجاية غير مأمونة العاقبة . وقد تغير موقف الشاه من فرنسا لعدم وصول الجيش الفرنسي إلى بلاده وأصبح يقف وحده في مواجهة الروس ،

فلم يجد السيد سعيد بن سلطان بدا من الانحياز إلى بريطانيا ، وأبرمت معاهدة إيرانية بريطانية بدلا من المعاهدة القديمة . وأمنت بريطانيا على مواصلاتها البرية ولم تعد بحاجة إلى السيد سعيد ، ولم يبق أمام بريطانيا إلا أن تؤمن الطريق البحري ، ولم تجد بدا من احتلال جزيرة « إيل دي فرانس » التي استسلمت كما استسلمت المواقع الفرنسية في مدغشقر . كما احتلت إنجلترا جزيرة مذكرًا (بضم الميم واللام وفتح الكاف مع التشديد) ، وأعدت العدة لاحتلال جزيرة جاوه ودخلت مدينة بتافيا (جاكرتا الحالية) دون مقاومة . وبذلك ضاعت مواقع فرنسا في الشرق الأقصى ، وضاعت معها مواقع الهولنديين ، وخرجت إنجلترا من هذا الصراع ظافرة وبسطت نفوذها على المحيط الهندي .

وإذا كانت بريطانيا بعد معاهدة سنة ١٨١٤ وسقوط نابليون قد خرجت ظافرة منتصرة ، فإنها عملت على تثبيت الملكية في فرنسا فردت إليها جزيرة بربون (بضم الباء وسكون الراء) وأعادت جزر الهند الشرقية إلى هولندا وأبقت لنفسها المواقع الاستراتيجية الهامة^(١) .

وليس من شك في أن شركة الهند الشرقية أمنت على نفسها بعد زوال الخطر الفرنسي ، كما أمن السيد سعيد بن سلطان إمام مسقط على ملسكه من الخطر البريطاني والفرنسي . على أنه قد طرأت ظروف أدت إلى التعاون بين السيد سعيد وبين بريطانيا في الهند من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الظروف هي الخطر المشترك الذي تعرض له كل منهما من القواصم في الخليج العربي الذين استولت الحملة البريطانية على حاضرتهم رأس الخيمة في سنة ١٨٠٩ . ولما جاء نبأ زحف السعوديين من البريمي (بضم الباء وكسر الراء) لمساعدة حلفائهم بادر البريطانيون

(١) انظر كوبلاند ص ١١٠ — ١٤٠ .

بالإقلاع عنها^(١). وكان الجيش السعودي بقيادة الأمير مطلق^(٢) بن محمد المطيري^(٣) أمير البريمي لنجدة القواسم الذين كانوا في حلف مع الوهابيين الذين بدءوا يتقدمون للاستيلاء على مسقط ، فلم يبق أمام السيد سعيد بن سلطان إلا الاستنجاد بالبريطانيين الذين رأوا أن سياسة حاكم مسقط ثورتهم في الدخول في حرب مع الوهابيين . غير أن العثمانيين صدقوا في وجه الوهابيين بقيادة مطلق بن محمد المطيري وردوهم على أعقابهم وحالوا بينهم وبين دخول مسقط . و انتهت هذه الممارك بقتل مطلق .

وقد تحدث الضابط الفرنسي جيان عن السيد سعيد بن سلطان حاكم مسقط فقال : « بفضل حادثة غير متوقعة استطاعت قبيلة بدوية أن تنقذه من مطلق ، ذلك الخضم الذي ما كان يحقق أن ينزل به الدمار في فترة قصيرة » . وقد روى موريتسي الإيطالي ، الذي عمل في خدمة حاكم مسقط سنوات ، والذي يقال إنه هو نفسه قد قابل مطلق فيقول عنه : « وهكذا هلك ... ذلك العدو الذي ظل اسمه طويلاً كافياً وحده لأن يملأ أهل مسقط رعباً ، وراح ضخمة التهور الذي دفعته إليه انتصاراته الكثيرة المتوالية » .

وقد أرفم الوهابيون على الانسحاب بعد قتل مطلق ، في الوقت الذي توفي فيه سعود بن عبد العزيز ، واخترق الجيش المصري نجد واستولى على مكة والمدينة ثم على الدرعية ، وأرسل عبد الله بن سعود أسيراً إلى القسطنطينية حيث قتل . ولم يسترد الوهابيون الدرعية إلا في سنة ١٨٤٥ م^(٤) .

(١) عرض حكومة المملكة العربية السعودية : التحكيم لتسوية النزاع بين مسقط وأبي ظي وبين المملكة العربية السعودية (٣ أجزاء : القاهرة ١٩٥٥) ج ١ ص ١٢٥ — ١٢٧ .

(٢) بضم الميم وسكون الطاء وفتح اللام .

(٣) بضم الميم وفتح الطاء وسكون الياء .

(٤) عرض حكومة المملكة العربية السعودية ج ١ ص ١٣٢ ، نقلاً عن موريتسي :

تاريخ السيد سعيد (١٨١٩ م) ص ٨٧ — ٨٨ .

وكان من الممكن أن يستغنى السيد سعيد بن سلطان إمام مسقط عن خدمات البريطانيين لولا تجدد إغارات القواسم ، واشترك مع إنجلترا مرة أخرى ، وانتهى هذا النزاع بعقد معاهدة مع القواسم أبرمت في ٨ يناير سنة ١٨٢٠ . وانهز سعيد هذه الفرصة وقضى على قبيلة « بوعلی » الذين اعتنقوا عقائد المذهب الوهابي ، وأصبح سعيد الذي بلغ الثلاثين من عمره صاحب عمان دون منازع ، وبلغت بلاده أوج مجدها وقوتها بعد أن تخلص من الوهابيين والقواسم ، واستطاع للمرة الأولى أن يخرج من مسقط لأداء فريضة الحج (١٨٢٤ م) في مكة حيث أرسل محمد علي بعثة لاستقباله ، واسترعى حاكم مسقط انتباه العالم الإسلامي كله ، واعتبره الناس أعظم حكام عمان جميعاً .

ولكن أطماع سعيد بن سلطان لم تقف عند ساحل بحر العرب أو عند حدود عمان ، وإنما بدأ ينظر إلى ما وراء البحر ، إلى المجتمع العربي في شرق إفريقيا ، وشعر أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يبسط نفوذه في هذه الأرجاء .

وفي الوقت الذي كان يؤدي فيه فريضة الحج في مكة ، أعد السيد سعيد بن سلطان حملة إلى ممبسة . وكان واثقاً من أن القوى الأوروبية لن تعترض سبيله : فالفرنسيون الذين كانت تربطه بهم علاقة مودة قد ضعف نفوذهم ، والبريطانيون قد اشتدت صلته بهم بعد زوال الخطر الوهابي . ولكن سعيداً كان واهماً فيما تخيله من سكوت البريطانيين عن مشروعاته ، إذ كانوا في هذا الوقت بالذات قد أخذوا يرنون بأبصارهم إلى شرق القارة الإفريقية وإلى أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية . وكان اهتمامهم راجعاً إلى محاربتهم تجارة الرقيق التي أخذوا يتعقبونها من غربي القارة الإفريقية إلى شرقها^(١) .

(١) كوبلاند ص ١٥٠ — ١٥٣ .

٢ — السيد سعيد في زنجبار

(١) سياسته الاقتصادية :

بعد أن نجح سيف بن سلطان في انتزاع شرق إفريقيا من أيدي البرتغاليين بسط أئمة مسقط سلطانهم عليها نحو قرن من الزمان ، وقد رحب المسلمون في شرق إفريقيا بالعمانيين باعتبارهم مخلصين لهم من أعدائهم البرتغاليين . فلما توفي سيف بن سلطان في سنة ١٧١١م وضعفت عمان ومزقتها الفتن الداخلية وتعرضت لهجمات الوهابيين والقواسم ، بدأ حكام شرق إفريقيا يستردون استقلالهم .

فلما تقلد السيد سعيد بن سلطان إمامة عمان استنجد به بعض المسلمين في شرق إفريقيا لينقذهم من أطماع المزوريين الذين بسطوا نفوذهم على المناطق الداخلية ، فاستولت قواته على مدن لامو وبيت ومبا ومبسة وبراوة ، وانتهى الأمر بعقد الصلح مع مبسة في ١١ يناير سنة ١٨٢٨ ، وأصبح سعيد صاحب النفوذ على شرق إفريقيا^(١).

وقد فتح استيلاء السيد سعيد على مبسة في سنة ١٨٣٧ م عهداً جديداً في تاريخ كل من عمان وزنجبار . وذلك أنه جعل زنجبار حاضرة لإمامة عمان وبني لنفسه قصراً فيها ونقل بلاطه إليها في سنة ١٨٤٠ م . وإن نقل حاضرة إمامته إلى جزيرة زنجبار التي تبعد عن بلاده بنحو ٢٥٠٠ ميل والتي لاتصل إليها السفن إلا في وقت هبوب الرياح الموسمية ليثير العجب حقاً . على أننا إذا أنعمنا النظر في حالة إمامة مسقط في ذلك الحين فإننا نرى أن سعيداً كان مدفوعاً بعوامل عدة ، نذكر منها جو شرق إفريقيا الذي يختلف عن جو مسقط المعروف بشدة حرارته طوال السنة وبكثرة غباره وشدة هبوب رياحه ، على حين نجد

(١) كوبلاند ص ٢١٧ — ٢٢٤ .

شرق إفريقيا يمتاز بجمال جوهه وينابيعه المتفجرة وأنهاره الجارية . كذلك نرى أن السيد سعيداً أراد أن ينأى بنفسه عن جو مسقط المشحون بالثورات والفتن وعن الجزيرة العربية ومتاعب الوهابيين والقواسم . أما في زنجبار فقد استقبله المانيون المستقرون فيها استقبال الفاتحين مدفوعين بالصلوات القديمة التي تربطهم بوطنهم الأصلي ، مقدرين ما بذله أجداده من جهود في سبيل حمايتهم . لذلك هيأت له الأحوال في زنجبار حكماً آمناً مطمئناً . ويظهر أن السيد سعيداً كان مدفوعاً أيضاً بعوامل اقتصادية ترجع إلى صلاحية موانئ زنجبار للملاحة مثل ممبسة وزنجبار . لذلك نراه يبني في سنة ١٨٣٤ م أسطولا ضخماً يضم بعض الطرادات والمدمرات ليحمي طرق المواصلات بين بلاده وبلاد العرب ويقضي على إغارات القرصان ويؤمن سبل الملاحة ويحقق مشروعاته التجارية التي تأتي من الموارد الكثيرة التي تغنيه عن فرض الضرائب المباشرة . وكان يصدر السلع إلى مصر وبلاد العرب وإيران والهند .

وقد شجع السيد سعيد بن سلطان تجار الهند وصيارفتهم الذين كانوا يقبضون على زمام التجارة الدولية في الشرق الأقصى . وكان بمدينة زنجبار وحدها نحو ألف من هؤلاء التجار كانوا ينعمون بحمايته ويقومون بشعائر دينهم . وقد أعفاهم السيد سعيد من الرسوم الجمركية وعهد إليهم بشئونه المالية . كما وفد على زنجبار كثير من مسلمي الهند الذين نعموا بنفس المعاملة . ولم تسكد تخلو مدينة من مدن شرق إفريقيا من أفراد الجالية الهندية الذين انتعشت تجارتهم واقتنوا الثروات الضخمة وزاد عددهم حتى أربى على ستة آلاف في سنة ١٨٦٠ م . وقد أعفاهم السيد سعيد من القيود الجمركية وشجع التجارة ولم يحتكر أية سلعة من السلع . وكانت الرسوم الجمركية لا تتجاوز ٥ ٪ كما ضرب السيد سعيد سكة جديدة تحمل محل السكة الألمانية أو الأسبانية التي كانت منتشرة في البلاد ، واتخذ إجراءات هامة تساعد على رواج تجارة بلاده :

أولاً : شجع تصدير الحاصلات الإفريقية الرئيسية التي تجلب من المناطق الداخلية مثل العاج والصمغ وجوز الهند وزيت النخيل وكذا العبيد ، فنظم القوافل بين الساحل والمناطق الداخلية وأنشأ طرقاً جديدة للمواصلات كما أنشأ مدناً جديدة ، ويظهر أن مشروعات السيد سعيد قد امتدت إلى تنجانيقا ونياسيلاند وكينيا حيث وجد بعض الرحالة الأوربيين مثل لفنجستون الانجليزى أثراً لانهوذا العربى ، الذى لا يبعد أن يكون قد وصل أيضاً إلى فكتوريا نيارزا وأوغندة التى دخلها التجار السواحليون فى سنة ١٨٤٨ م . كما امتد هذا النشاط التجارى غرباً إلى ما وراء البحيرات العظمى . وكانت القوافل تتألف من جماعات مسلحة لجلب العبيد والحاصلات الاستوائية . وكانت هذه القوافل أقرب إلى الغزوات منها إلى المغامرات التجارية التى كانت تتم فى فصل الجفاف بين شهرى مايو وأكتوبر . وكانت هذه العلاقات التجارية مع الداخل ، كما يقول كوبلاند (ص ٣١٠) ، منظمة بصورة لم يسبق للعرب (فى هذه البلاد) أن عرفوها من قبل ، حتى كانت الحاصلات تتدفق على ميناء زنجبار . ويقول كوبلاند إن سعيداً لم يهدف إلى استغلال هذه المناطق استغلالاً طبيعياً ، وإنما كان همه منصرفاً إلى القيام بدور الوسيط بين المناطق الداخلية والجماعات الساحلية .

ثانياً : استقلال زنجبار نفسها بالقيام بمشروعات زراعية حيث أخذ السيد سعيد فى زراعة أشجار القرنفل على نطاق واسع . وقد ساعد جوجيرتى زنجبار وبمباى على ازدهار زراعة القرنفل التى غدت لا تقل أهمية عن تجارة العاج أو العبيد ، وما زالت زنجبار تنتج ٤ غلة القرنفل فى العالم .

ثالثاً : البحث عن أسواق جديدة بعد أن كانت هذه الأسواق مقصورة على ساحل المحيط الهندى الممتد من عدن إلى بمباى وعلى مصر وبلاد العرب . وقد رأى السيد سعيد أهمية أسواق أوروبا وأمريكا لرواج تجارة بلاده ، فرحب

بالتجار الأوربيين والأمريكيين الذين زاروا زنجبار وعقد معاهدات مع الولايات المتحدة (١٨٣٣) وبريطانيا (١٨٣٩) وفرنسا (١٨٤٤) وسمح بإنشاء قنصليات لهذه الدول في بلاده . وفي السنة التي مات فيها السيد سعيد كانت أسواق أوربا وأمريكا تستهلك أكثر من $\frac{1}{3}$ منتجات إفريقيا المارة بزنجبار .

وقد أثمرت سياسة السيد سعيد فتضاعفت تجارة بلاده الداخلية والخارجية ، وزاد عدد السفن الوافدة على زنجبار . حيث دخلت ميناءها تسعون سفينة أوروبية وأمريكية في سنة ١٨٥٧ . كما أخذ السيد سعيد يتعجر مباشرة مع أوربا ويرسل سفنه إلى مرسيليا ولندن وغيرها ، وكان من أثر ذلك أن نمت مدينة زنجبار وازدهرت بعد أن كانت في القرن الثامن عشر مجرد قرية ، واستطاع سعيد أن يجعل زنجبار ثالثة دولة تجارية في المحيط الهندي .

(ب) سياسة السيد سعيد الداخلية :

كان سكان شرقي إفريقيا في عهد السيد سعيد بن سلطان يتألفون من طبقتين :

الطبقة الأولى : السكان الأصليون وينتشرون على طول ساحل زنجبار وفي داخل البلاد . ولم يتدخل السيد سعيد في شئونهم بل منحهم حريتهم وولى على كل قبيلة واحداً من رجالها ، واكتفى بفرض ضريبة مقدارها ريالان عن كل شخص .

والطبقة الثانية : هي طبقة العرب والتجار الهنود الذين وفدوا على البلاد ، والمولودون ، أي الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات وطنيات . وكان السيد سعيد يكتفى بإرشاد القبائل وتوجيهها في الأمور التي تتعلق بالسياسة الداخلية . ولم يفرز

(١) كوبلاند ص ٢١٩ — ٢٢٤ ، ٢٩٥ وما يليها .

بثقتة إلا رجل واحد هو سليمان بن حامد ، ولكنه كان يكتسب ولاء رعيته عن طريق التقرب إليها . فكان يجلس للمتظلمين يستمع إلى شكائاتهم ويقضى بينهم في أوقات معينة . وقد حققت هذه السياسة ما كان يرمى إليه سعيد ، فتعلق الناس به ونعموا بالأمن والطمأنينة ، وأفادوا من مشروعاته الاقتصادية التي أسهموا فيها .

أما حكومة السيد سعيد فكانت في غاية البساطة : فليس ثمة مصالح حكومية ولا وزراء ولا جمع من كبار الموظفين . حتى الضرائب نفسها لم يكن يعهد بمجبايتها إلى موظفي الدولة ، وإنما كان يعهد بها إلى زعماء العشائر . كما ترك الرسوم الجمركية في أيدي جماعة من التجار الهنود الأغنياء عن طريق الالتزام ، بمعنى أنهم يدفعون له مبلغاً معيناً من المال مقابل تحصيل هذه الرسوم . وقد استطاع هؤلاء الهنود أن يجمعوا ثروات ضخمة في ظل هذا الحكم ، حتى إن أحدهم توفي عن ثروة تقدر بثلاثة ملايين ريال ، أو ما يقرب من ٦٥٠.٠٠٠ جنيه استرليني .

ولم يكن النظام القضائي في عهد السيد سعيد أقل من النظام الإداري بساطة . فلم تكن هناك محاكم بالمعنى المفهوم ، إذ كان الكتاب والشنة مصدر التشريع الإسلامي الذي تكون للشهادة فيه المقام الأول من وسائل الإثبات . وكانت المظالم ترفع إليه مباشرة أو إلى من ينوب عنه في حالة غيابه . وكان السيد سعيد نفسه يفصل في الجنايات ، فيحكم بالغرامة أو بالموت في حالة ثبوت القتل . وقد يعدل عن تنفيذ حكم الإعدام إذا قبل ولي المقتول أخذ الدية .

وقد شهد الرحالة الأجانب الذين زاروا البلاد للسيد سعيد بالعدالة والمساواة بين رعاياه . ولم يعتمد في تنفيذ سياسته إلا على نحو ثلثمائة من جنده المسلحين بالرماح والقسى جاء بهم من جزيرة سقطرة . وكانت هناك فرقة من الجند المرتزة

من أهل البلاد تقوم بحراسة الطرقات وتقبض على المجرمين ، وكان السيد سعيد أقوى حكام المحيط الهندي بلا مرأى . فقد كان أنفذهم كلمة وأشدهم بأساً وأكثرهم احتراماً . وقد اشتهر بالبساطة والتواضع ، وكان يرتدى الرداء العربى البسيط ويضع على رأسه العمامة الملونة ولا يتحلى بالذهب والجواهر . وكانت داره المتواضعة تتألف من طابقين . ولم يتجاوز حرسه اثنى عشر فارساً من أهل بمباى . وكان العجب يأخذ من السائحين الأجانب كل مأخذ إذا ما وازنوا بين ما كانوا يسمعون من صيته العظيم وما لمسوه من بساطته وكرمه واهتمامه بالوطنيين والأجانب جميعاً . وكان ساعده الأيمن فى هذه النواحي خميس بن عثمان وهو من المولدين ، وكان يتكلم كثيراً من اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والهندية والملاوية (لغة الملايو) والسواحلية إلى جانب العربية . « كانت بنية السيد سعيد القوية » - كما يقول كابتن جويليان Guillian الفرنسى - « وقامته المديدة وطلعته المهيبة ، تضافى عليه وقاراً يفوق ما كان يتحلى به من الصفات . وقد لاحظ الزائرون الأجانب أنه كان من أبهى حكام الشرق طلعة وأوفرهم هيبة . ويكاد وصفهم له يرقى إلى حد الشعر ، ومحبة أهل زنجبار له تبلغ حد العبادة » .

وقد امتد نفوذ السيد سعيد شمالاً حتى بلغ حدود الحبشة الجنوبية ، وجنوباً حتى موزمبيق البرتغالية . ولا عجب فإن السيد سعيد لم يجد قوة أجنبية تقاسمه السلطان أو تنازعه الملك . وقد نمت المدن الساحلية فى عهده ، فازدهت بالسكان ووفدت عليها السلع الأجنبية وازدهرت فيها التجارة ، ولاسيما فى مدينتى مقدشيو وكلوا . وكانت مدينة مقدشيو موضع عناية السيد سعيد ، فلم يبتخل عليها بالمال لإنشاء المرافق العامة وإصلاح الطرق وبناء الأسوار . وكان يعين عمالاً من أهالى البلاد الأصليين فى الغالب ، ينبون عنه فى حكم المدن الهامة . وكان

كل واحد من هؤلاء العمال يستعين بفصيلة من الجند ويباشرون السلطات التي يباشرها السيد سعيد في زنبار ، فيقومون بحماية الضرائب وفض المنازعات وتحصيل الرسوم الجمركية وإقرار الأمن .

وقد رنا السيد سعيد ببصره إلى جزيرة مدغشقر وعمل على ضمها إلى مملكته ، فتزوج من مملكتها سنة (١٨٣٣) التي فتحت الطريق لتجارته ودفعت له ثلاثين ألف ريال في كل سنة . وقد أخذ أهل زنبار يستقرون في هذه الجزيرة . وفي الوقت الذي أخذ فيه نفوذه يمتد إلى الجنوب ، أخذ نفوذه يضعف تدريجياً وبخاصة في الجزء الشمالي من بلاده . ويرجع ذلك إلى قيام التنافس بين بعض القبائل العربية البدوية التي تقيم في المنطقة الواقعة جنوبي نهر جوبا . ولم يكن أبغض إلى هؤلاء البدو من الخضوع لنظام الحكم مهما بلغ شأنه أو بلغت قوته . وكانت القبائل الصومالية وقبائل البنتو من هذا الصنف من البدو الأشداء المحاربين . وقد حاول سعيد أكثر من مرة أن يقر سيادته في هذه المناطق الشمالية مستعيناً في ذلك بالحيل والقوة والمال . ولكن هذه الشروط كان نصيبها الإخفاق (١٨٤٥) الذي كان في الواقع بداية النهاية في حياة سعيد السياسية .

وصفوة القول أن سعيداً كان - كما يقول كوبلاند - (ص ٣٦٠) هو الدولة والدولة هو . وكان هذا الملك الواسع رهيناً بحياته ، وذلك بفضل سياسته الرشيدة وشخصيته الجذابة . فلا عجب إذا كانت حياة سعيد هي النهاية الطبيعية لهذا الملك الواسع وهذا الجاه العريض .

والعرب في مملكة زنبار الإسلامية أقل من السود من ناحية العدد . ومع ذلك فهم أسياد البلاد ، وهم يكونون طبقة خالصة الدماء ، ويعيشون كما يعيش الأمراء في مزارعهم الجميلة ومساكنهم الخلوية التي يبنونها من الحجر . والسواحلية من الطبقة العالية الذين يمكنهم أن يصعدوا بأنسابهم إلى العرب ،

أقرب إلى العرب في ملامحهم منهم إلى السودان . وهم يعتقدون أنهم عرب خالص .
وهم متناسبو الخلقة قصار القامة فاتحو اللون . أما العرب الذين اختلطوا بالسودان
بالمصاهرة ، فهم أقرب لونا إليهم ، ويزيد عددهم على ثلاث مئة ألف . وأكثر
جنود زنبار من العرب من حضرموت . ويكون العرب والهنود في زنبار طبقة
التجار الذين بيدهم تجارة البلاد .

والسواحلية مسلمون سنيون وعلى شيء من التهذيب ، وقد تركوا كثيراً
من عاداتهم القديمة . وهم يرتدون الزي العربي القديم : فالرجال يلبسون ثوباً
طويلاً يسمونه « دِشْدَاشَة » (بكسر الدال) ، يشدون فوقه نطاقاً . وهم يلبسون
الجبّة ، ومنهم من يلبس القفطان والعباءة وينتعلون النعال . أما النساء فيلبسن
النراويل وثوباً يتدلى إلى الركبتين يشدون فوقه نطاقاً ، وعلى رؤوسهن نسيج
يشبه الكوفية ، فوقه حزام كعقال الرجال . ويصنّفن النقود الذهبية على
رؤوسهن ، ويكثرن من الأساور والخواتم ، ويستعملن القلائد والسلاسل الذهبية
التي توضع حول العنق وترخى إلى الوسط ، ويصنّفن وسط جباههن بالزعفران ،
ويزججن الحواجب ويكحلن العيون ، ويصنّفن أيديهن وأرجلهن بالحناء .
والعامة منهن يتجولن نهائراً لقضاء لوازم بيوتهن ، والخاصة من المخضرمات
كثيرات التحجب ، لا يبارحن بيوتهن نهائراً ، وربما خرجن ليلاً للتنزه . وإذا
لقين رجل في الطريق عرّج يميناً أو يسرة تأدباً منه ، أو وقف مخبئاً
رعاية لحرمتين .

والسواحلية يشتغلون عادة بالتجارة ، وبعضهم يشتغل بالسمسرة ، ويكتفى
بعضهم بما يحصل عليه من غلة أرضه . وفي داخل البلاد تزرع النساء الذرة
والبطاطا ، وينسجن الحصر وغيرها من المنسوجات الخشنة . ويقضى أكثر

الرجال أوقاتهم في الصيد والقنص ، معتمدين على النساء في قضاء لوازم بيوتهم وحرث أراضيهم^(١) .

ويعزو سير توماس أرنولد وجود وطن إسلامي في زنبار ينافس الوطن الإسلامي الذي تقدمه في الصومال إلى قدوم مهاجرين من الخليج الفارسي . وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليا ، وهو من أبناء أحد سلاطين شيراز من زوجة حبشية . وقد ازدراء إخوته وعاملوه معاملة قاسية حملته على أن يهجر وطنه ويبحث عن وطن آخر ، فأبحر من جزيرة هرمز ومعه زوجته وأولاده وجماعة صغيرة من أتباعه ، وسار متجنباً مقدشيو التي نزلت فيها جماعة من نواحي البحرين فرارا من ملك الأحساء على الخليج الفارسي ، بسبب مخالفته إياهم في المذهب الديني . لذلك مضى عليّ قدما نحو الجنوب حيث سمع بوجود الذهب بساحل زنبار ، وأسس مدينة كيلوا . وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل وأن يكون متحررا من تدخل أسلافه المقيمين بعيداً عنه في الشمال^(٢) .

وكانت زنبار منذ أقدم العصور أهم أسواق الرقيق في إفريقية حتى أوقفت تجارتها سنة ١٨٧٣ . وفي سنة ١٨٩٠ عقدت بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا معاهدة اعترف فيها بمطالب فرنسا في مدغشقر وانضمام هليجولاند إلى ألمانيا . وفي سنة ١٩٠٦ شددت بريطانيا قبضتها على محمية زنبار وقامت بتنظيم حكومتها من جديد . وفي سنة ١٩١١ نزل السيد علي عن العرش وخلفه السلطان خليفة بن حروب (بفتح الحاء) . وفي سنة ١٩٢٥ أُلِفَ مجلس استشاري برئاسة السلطان ، ثم سُلِطَ محله مجالس تشريعية وتنفيذية في السنة التالية .

(١) حسن ابراهيم حسن : وصف لانتغرافي لأشهر الأمم التي تسكن شرق إفريقيا ، رسالة خطية ص ١٣ — ١٨ .

(٢) سير توماس أرنولد . الدعوة إلى الاسلام ، ترجمة ص ٢٨٧ .
(م ١٤ — انتشار الإسلام)

ويحسن بنا أن نختتم هذا الباب بإيراد إحصاء نقف منه على عدد المسلمين ، وعلى نسبتهم المئوية بالنسبة إلى عدد سكان بلاد القارة الإفريقية .

بلغ عدد سكان العالم في سنة ١٨٦٣ : ١٢٥٠ مليون نسمة ، وزاد هذا العدد حتى بلغ في سنة ١٩٦٣ : ٣١٥٠ مليون . وقد ذكر علماء الإحصاء أن عدد سكان العالم سيبلغ ٦٥٠٠ مليون في سنة ٢٠٠٠ م . وقد زاد عدد سكان العالم باختلاف البلاد ، ويزيد عدد سكانه بصفة عامة ٥٤ مليون نسمة سنوياً ، أى بنسبة ١.٨ ٪ ، وترجع زيادة عدد السكان إلى انخفاض نسبة الوفيات وارتفاع نسبة المواليد نتيجة لارتفاع مستوى الحياة من جهة ، وما يقدمه العلم الحديث من جهود للقضاء على الأمراض المعدية من جهة أخرى .

وقد أفردنا هذا الكشف لبيان كل من أقطار القارة الإفريقية وحاضرة كل قطر ، وعدد سكانه ، والسنة التي تم فيها تعدادهم ، مع ذكر عدد المسلمين ونسبتهم المئوية إلى مجموع السكان . والسنة التي نالت فيها الأقطار الإفريقية استقلالها حتى بلغ عدد الدول المستقلة اثنتين وثلاثين دولة .

وبجمع هذه الأرقام يتضح أن عدد سكان القارة الإفريقية يبلغ على وجه التقريب ٣٧٩ر٣٣٧ر٢٧٠ نسمة ، وعدد المسلمين فيها ٣١٩ر٥٦٢ر١٣٢ نسمة . وقد استعنا في وضع هذا الجدول بالمؤلفات والتقاويم المختلفة وفق آخر إحصاء .

ملاحظات	سنة الاستقلال	النسبة	المسلمون	سنة التعداد	السكان	الحاضرة	البلد
	١٩٢٢	٩٢	٢٣٣٩٧٩٠٠	١٩٦١	٢٦٠٦٥٠٠٠	القاهرة	مصر
	١٩٥٦	٨٠	٩٦٨٧٢٠٠	١٩٦١	١٢٢٠٩٠٠٠	الخرطوم	السودان
	١٩٥١	٩٦	١٠١٩٩٦٠٠	١٩٦١	١٠٢٦٠٠٠٠		ليبيا
	١٩٥٦	٩١	٣٧٩٢٨٨٠	١٩٦١	٤١٦٨٠٠٠	تونس	تونس
	١٩٦٢	٨١	٩٠٠٠٠٠٠	١٩٦٠	١٠٧٨٦٠٠٠	الجزائر	الجزائر
	١٩٥٦	٩٤	١١٠٥٦٢٠٠٠	١٩٦١	١٢٣٠٠٠٠٠	الرباط	المغرب
		٩٣	١٩٧٨٠٠	١٩٦٠	٢١٥٠٠٠		المغرب الإسبانية
	١٩٦٠	٩٩	٧١٩٧٣٠	١٩٦١	٧٢٧٠٠٠	نياكشوط	موريتانيا
	١٩٦٠	١٠٠	٢٣٠٠٠٠٠		٢٣٠٠٠٠٠	مقدشيو	الصومال
		٩٧	٧٨٧٥٠	١٩٦١	٨١٠٠٠	جيبوتي	الصومال الفرنسي
		١٠٠	٢٩٩٠٠٠	١٩٥٨	٢٩٩٠٠٠	زنزبار	زنزبار
		٤	٢٩١٠٠٠	١٩٦١	٧٢٨٧٠٠٠	نيروبي	كينيا
	١٩٦١	٢٠	١٠٨٨٠٠٦٠٠	١٩٦٢	٩٤٠٣٠٠٠	دار السلام	تنجانيقا
		٣٠	٦٠٤٥٠٠٠٠	١٩٦١	٢١٨٠٠٠٠٠	أديس أبابا	إثيوبيا
	١٩٦٢	٣	١٩٧٠٤٩٣	١٩٥٩	٦٠٥٣٨١٧٥	كمبالا	أوغندا
		١٠	٦٥٩٠٢٩٩	١٩٦٠	٦٠٥٩٢٩٩٥		موزمبيق
	١٩٦٠	٢٠	١٠١٣١٠٥٢٠	١٩٦٢	٥٠٦٥٧٠٦٠١	تناناريف	مدغشقر
		٩٠٢	٢٦٨٠٧٣٢	١٩٦١	٢٩٩٢١٠٠٠	زمينا	باسوتولاند
	١٩٢	٥	١٢٥٠٥٠٠	١٩٦١	٢٠٥١٠٠٠٠	نوسوكا	روديسيا الشمالية
		١	٣٨٠٤٩٠	١٩٦١	٣٨٨٤٩٠٠٠	ملسبوري	» الجنوبية
		١٢٠٨	١٣٠٠٤١٧	١٩٦٠	٨٠٠٠٠٠	ماسيرو	باسوتولاند
		١٩	٦٦٠٥٠٠	١٩٦٠	٣٥٠٠٠٠	ميفكنج	بوتسوانا لاند
		?		١٩٦٠	٢٤٥٠٠٠	تقدير	موازيلاند
		١٥	١٠٢٠٠٤٥	١٩٦٢	٦٨٠٠٠٠	لورتروماركس	جزيرة موريتيوس
	١٩٣١	١	١٦٥٠٠٠٠	١٩٦١	١٦٥٠٠٠٠٠	بريتوريا	جمهورية جنوب إفريقيا
		٣٠	١٣٠٢٢٥	١٩٦٢	٤٣٠٧٥٠		نميشل
							رواندا
			٢٠٥٠٠	١٩٦٠	٤٩١٣٠٥٠٠	أوسومبورا	بوروندي

البلد	الحاضرة	السكان	سنة التعداد	المسلمون	النسبة	سنة الاستقلال	ملاحظات
أرخبيل قمر	دزا أو ادزي	١٨٣١٣٣	١٩٥٨	١٨٢.٠٠٠	٩٩		
مالى	باماكو	٤٣٠.٧٠٠.٠٠	١٩٦١	٣٦٦.٠٩٥.٠	٨٥	١٩٦٠	
السنغال	دكار	٢.٥٩٥.٠٠.٠٠	١٩٦٠	١.٩٤٦.٢٥	٧٥	١٩٦٠	
غامبيا	بانتورست	٢٧٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	١.٢٦٨.٠٠.٠٠	٨٤		
غينيا البرتغالية	بساو	٥٤٤.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	٤٥٧.١١٤	٨٤		
غيانا الفرنسية	كاين	٣٣.٦٩٨	١٩٦١				
جزائر الرأس الأخضر	.	٢٠١.٥٤٩	١٩٦٠				
غامبيا البريطانية		٢١٦.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٢	١٨٣.٦.٠٠	٨٥		
غينيا	كوناكري	٢.٣.٠٠٠.٠٠٠	١٩٦١	٢.٧٢٧.٨٦٨	٨٥	١٩٥٨	
غينيا الإسبانية	بانا	١٩٨.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	٥٩.٤.٠٠	٣٠		
سيراليون	فريتاون	٢.٥٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	٢٧٥.٠.٠٠.٠٠	١١	١٩٦٠	
الكومورون	يا اوندي	٤٩٠.٧.٠.٠٠.٠٠	١٩٦١	٢.٦٩٨.٨٥.٠	٥٥	١٩٦٠	
ساحل العاج	أبيدجان	٣.٢٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	٧٥٢.٠.٠٠.٠٠	٢٣.٥	١٩٦٠	
توجو	لومي	١.٥١٦.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	٤٥.٤٨٠	٣	١٩٦٠	
غانة	أكرا	٧.١٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٣	١.٤٢٠.٠.٠٠.٠٠	٣٠	١٩٦٠	
ليريا	منرويا	١.٦٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦١	٣٢٠.٠.٠٠.٠٠	٢٠	١٨٤٧	
داهومي	بورتونوفى	٢.٠٥٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦١	٣٠٧.٥٠٠.٠٠	١٥	١٩٦٠	
جابون	ليبرفيل	٤٥٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦١	٩٠.٠.٠٠.٠٠	٢٠	١٩٦٠	
النيجر	نيامى	٢.٨٥٣.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	٢.٥٦٧.٧٠.٠	٩٠	١٩٦٠	
نيجيريا	لاغوس	٤.١٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٢	٣.٢.٨٠٠.٠.٠٠.٠٠	٨٠	١٩٦٠	
جمهورية إفريقيا الوسطى	بافى	١.٢٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	١٢٠.٠.٠٠.٠٠	١٠	١٩٦٠	
شاد	لامى	٢.٥٨٣.٣٤٢	١٩٥٧	٢.١٩٥.٠.٠٠.٠٠	٨٥	١٩٦٠	
فولتا العليا	أواجادوجو	٤.٤٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦٠	٣.٣٠٠.٠.٠٠.٠٠	٧٥	١٩٦٠	
الكوتيفو (ليوبولدفيل)	ليوبولدفيل	١.٤.١٥٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦١	٢.٦٨.٥٠.٠	١٩	١٩٥٩	
» (برازافيل)	برازافيل	٩٠٠.٠.٠٠.٠٠	١٩٦١	٤٥٠.٠.٠٠.٠٠	٥٠	١٩٦٠	
إفريقيا الجنوبية الغربية	وندهوك	٦١٥.٩٥٩	١٩٦٠	٢.٠٩.٤٢٦	٣٤	١٩٦٠	
أنجولا	سانت بولدى لواندا	٤.٨٣٢.٦٧٧	١٩٦٠				

الباب الخامس

الثقافة العربية في إفريقية

أولا — الثقافة العربية في غرب إفريقيا

كان طالب العلم^(١) الذي أنهى دراسته وصار عالماً يدعو الناس إلى الإسلام ويفقههم في الدين ، يلقي تكريماً ، باعتباره رجل علم تفقه في الدين والشريعة الإسلامية ، بل كان أحياناً يزاول الطب ، وأحياناً يركن إلى كتابة تعاويذ وآيات من القرآن ، تطوى في قطع من الجلد أو القماش ، وتعلق على الأفرع ، أو حول العنق . وهي مهمة يستطيع المعلم أن يستغلها كوسيلة لتحويل الناس إلى الإسلام . ولقد كانت النساء العواقر أو اللاتي فقدن أولادهن أطفالاً يطلبن من هؤلاء المعلمين هذه التعاويذ ، وكان المعلم يشترط لنجاح هذه التعاويذ أن يُنشئ ، هؤلاء النسوة أطفالهن على الإسلام . وإن هؤلاء المعلمين الدينيين ، أو المرابطين يحظون بأقصى نصيب من التقدير . وفي بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية داراً لاستقبال هؤلاء المعلمين الذين يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام ويعتبر الرؤساء أصحاب المناصب غير الدينية أقل هيبة من هؤلاء المعلمين الدينيين . والدول التي اتخذ فيها القرآن أساساً للحكم في كل المسائل المدنية تحتاج إلى خدمات هؤلاء المعلمين لكي يفسروا معاني القرآن الكريم . وقد بلغ من احترام الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين ، أنه كان لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات لا يعادى بعضها بعضاً فحسب ، بل يقاتل بعضها بعضاً في حرب فعلية

(١) ترجمة : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(بمعنى أن هؤلاء المعلمين كانوا موضع احترام في وقت السلم ووقت الحرب
أنى ساروا) .

وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين الدينيين في معاهد القيروان وطرابلس
وفاس والقاهرة ، فإذا ما أتموا دراستهم في الدين والشريعة الإسلامية ، أصبح
كثير منهم دعاة دينيين بين أهالي بلادهم الأصلية . فإذا نال الداعي المسلم حظاً
موفوراً من العلم والمعرفة ، استطاع أن يؤثر في نفوس الأهالي الذين أخذ على
عاتقه دعوة الدين الحنيف والثقافة الإسلامية بينهم ، وساعده في بلوغ غايته
معرفة بعاداتهم وطباعهم . وكثيراً ما كان التاجر المسلم يمهّد السبيل للمعلم ، وإذا
ما أضحى هذا المعلم إلى أهالي البلاد ، رحبوا بدخوله في نظامهم الاجتماعي .
وتوطد نفوذه . وكتب له النجاح في رسالته الدينية . وهكذا تنشر بين أهالي
هذه البلاد معارف الإسلام شيئاً فشيئاً وبطريقة طبيعية^(١) .

وللثقافة العربية في غربى القارة الإفريقية أثر واضح في انتشار الإسلام
وتعريف الناس بتقاليد هذا الدين الحنيف ، ومُثُلِهِ العُلَيَا ، وثقافته ، التي تستمد
أصولها من القرآن والسنة .

وكان لهذه الثقافة مراكز تشع منها أضواء العلم والعرفان ، على الرغم مما
وصم به كثير من المستعمرين القارة الإفريقية بأنها مهد الجهل والظلام . وهذا
الرأى بلا ريب لا يخلو من كثير من المبالغة . وقد بدأت الثقافة الإسلامية في
هذه البيئة الجديدة ، وأصبحت المساجد التي بناها موسى بن نصير في مدينة
أغمت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى ومن أوليات المدن
التي أشعت النور والعرفان في القارة السوداء .

وكان تأسيس مدينة فاس في أواخر القرن الثانى للهجرة (١٩٢ هـ) فاتحة

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة س ٢٩٧ — ٢٩٨ .

عهد جديد في تاريخ الثقافة العربية في المغرب الأقصى وغربي القارة الإفريقية .
فقد أصبحت هذه المدينة مثابة للعلم يقصدها العلماء من كل حذب وصوب ،
وأخذت معاهدها تتأثر بالمؤثرات الثقافية من معاهد القيروان والأندلس وتنشرها
في البلاد . وإلى هذه المعاهد يرجع الفضل في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية .
وكانت الخطوة التالية في تطور الثقافة العربية في هذه البلاد ، امتداد هذه الثقافة
في غربي هذه القارة ، فنشأت مراكز هامة كان لها أثر بعيد في الحياة الثقافية ،
مثل أودغشت ، وجيني ، وتمبكتو ، وكانوا ، وغيرها^(١) . ويقابل هذا مراكز
أخرى للثقافة العربية في شرقي القارة الإفريقية مثل مصر والسودان والحبشة
والصومال وزنبار .

١ — أودغشت

وتعتبر أودغشت (بضم الألف والغين وفتح الدال وسكون الشين والتاء)
أو أودغشت (بفتح التاء) من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في شمالي غربي
القارة الإفريقية وهي مدينة قديمة لم يعد لها الآن وجود ، وتقع كما يقول
البكري^(٢) ، بين بلاد الزنوج وسجلماسة على مسافة واحد وخمسين يوما من
واحة سجلماسة وخمسة عشر يوما من غانة ، وتقع بين خطي عرض ١٨ : ١٩
شمالي خط الاستواء جنوب غربي تمبوكتة (بفتح التاء وسكون الجيم) ، وهي
موقع حربي في موريتانيا .

ويظهر أن أودغشت كانت أول الأمر محطة تجارية لصنهاجة على الحدود الشمالية
لمملكة غانة . وبذلك تكون مدينة أودغشت آخر معاقل المغرب الجنوبي
في أواخر التاريخ الوسيط . ولما فتح الصنهاجيون جزءاً كبيراً من بلاد غانة حول
نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، أصبحت أودغشت حاضرة

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية (الطبعة الأولى)

ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) المسالك والممالك (ترجمة دي سلان) ص ٣٤٩ وما يليها .

ل تلك القبيلة القوية . وبين سنتي ٣٥٠ ، ٣٦٠ هـ (٩٦١ - ٩٧١ م) كان يلي شئون هذه المملكة « تين بروتن » ، وهو أمير صنهاجي كان يتبعه أكثر من عشرين ملكاً من ملوك السودان . وكان طول مملكة غانة ستين يوماً وعرضها ستين يوماً . وفي القرن التالي أغار عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين على أودغشت ٤٤٦ - ٤٤٧ هـ (١٠٥٤ - ١٠٥٥ م) . ثم بدأت قوة صنهاجة في الانحلال .

وفي أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أغار ينوسو زعيم السودانيين على أودغشت وأخرج الصنهاجيين منها^(١) .

وكانت أودغشت في عهد أبي عبيد البكري^(٢) المتوفى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) لا تزال مدينة زاهرة ، يتألف سكانها من عرب المغرب ومن حلفائهم من إفريقية ومن البربر من برزكانية (بكسر الباء وسكون الراء) ، ولواته (بفتح اللام والباء) ، وزناطة (بفتح الزاي والتاء) ، ونفوسة (بفتح النون والسين) ، ونفزاوة (بكسر النون وسكون الفاء) بنوع خاص ، وكذلك في السودان . وكانت تحيط بأودغشت البساتين والنفخيل ، وفيها مساجد ومدارس وأبنية عامة جميلة ومنازل رائحة وأسواق عامرة ، وتجارات نافعة في الحبوب والفاكهة التي ترد إليها من البلاد الإسلامية ، وفي الكهزبا أو الكهرمان الذي يرد إليها من سواحل المحيط الأطلسي ، كما كان فيها مصنوعات معدنية راقية ، وكانت تتاجر في الأقمشة الحريرية الموشاة التي يدفع ثمنها تبرا .

وقد اضمحلت أودغشت في عهد الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، وقل سكانها واخل شأن تجارتها ، وأصبحت تربية الإبل مصدر

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية ص ٥٦ - ٥٧

(٢) المسالك والممالك (طبعة دي سلان) ص ٣٤٩ وما يليها .

معيشة أهلها . وكان سقوطها النهائي راجعاً إلى ضياع شوكة الزناتيين على يد المرابطين^(١) .

٢ - جنى

وقد تأسست على نهر النيجر الأعلى مدينتان قُدِّرَ لهما أن تؤثرا في القرون المتعاقبة تأثيراً قوياً في تقدم الإسلام في السودان الغربي : إحداهما مدينة جنى (بكسر الجيم والنون مع التشديد)^(٢) التي غدت مركزاً تجارياً هاماً ، والأخرى تمبكتو (Tumbuktu) (بضم التاء وسكون الميم وفتح الباء وسكون الكاف وتسكتب أيضاً الواو مع ضم التاء الثانية) ، أما مدينة جنى فكانت مركزاً هاماً لتجار القوافل مع الشمال .

وقد تأسست حول سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ - ١١٠١ م) . وذلك في عهد الدولة المرابطية بالمغرب . وقد أسلم كنبرو (Kumburu) ملك جنى حول نهاية القرن السادس الهجرى (أى حول سنة ١٢٠٠ م) وحذا حذوه رعيته .

وقد قيل إن كنبرو لما عزم على اعتقاد الإسلام جمع كل العلماء في مملكته وكان عددهم على ما ذكره السعدى يبلغ أربعة آلاف ومائتى عالم . ثم طلب هذا الملك إلى هؤلاء العلماء أن يدعوا الله أن ينصر مدينته ، ثم هدم قصره . وبنى مكانه مسجداً عظيماً . مبالغة في حبه للدين^(٣) ومهما يكن عدد هؤلاء العلماء مبالغاً فيه ، فإن هذه الرواية تبين لنا ، على ما ذكره سير توماس أرنولد^(٤) ، أن

(١) Barth, vol. 7, p. 34 note 4.

أنظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية ص ١٤٥

— ١٤٦ —

(٢) ويقال لهما جنى أو دينيه ، « ولعل دينيه » هذه تحريف في نطق جنى .

(٣) السعدى : تاريخ السودان ص ١٢ — ١٣ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

الإسلام قد تقدم تقدما عظيما في البلاد التابعة لـ كُنْبُو ملك جنى ، وقد أثنى ابن بطوطة^(١) الذى تنقل في هذه البلاد في القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلادى) على الزوج لمناستهم في أداء عبادتهم وفي دراسة القرآن الكريم . ويخبرنا هذا الرحالة المغربى أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يُبَكِّر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصل فيه لكثرة الزحام .

٣ — تمبكتو أو تمبكت

وكانت تمبكتو التى تأسست حول سنة ١١٠٠ م على ضفة نهر النيجر إلى جانب شهرتها التجارية — كما يقول السعدى^(٢) — مدينة إسلامية منذ البداية ، مادنتها عبادة الأوثان ، ولا سُجِد على أديمها قط غير الرحمن .

وأصبح لتبكتو شأن عظيم باعتبارها مركزاً للتعالم الإسلامية وللعبادة ، وتوافد عليها الطلاب وعلماء الدين زرافات ووحدانا ، بفضل ما كانوا يلقونه من تشجيع ورعاية .

ولمدينة تمبكتو ميزتان ، الأولى : أنها كانت مركزاً هاماً من مراكز انتشار الإسلام في إفريقية الغربية ، والثانية أنها كانت إحدى مراكز الثقافة العربية الهامة . وكان بها معهد شهير (تخرج فيه علماء ومؤرخون كان لهم فضل كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية . مثل أحمد بابا التبكتى فى كتاب نيل الابتهاج بقطر يز الديباج ، ويسميه بعضهم بابا التبكتى . ويعتبر هذا الكتاب تكملة لـ كتاب الديباج المذهب لابن فرحون ، وقد ترجم أحمد بابا التبكتى لعلماء المالكية الأعلام الذين ظهوروا فى الفترة الفاصلة بينه وبين أستاذه ابن فرحون^(٣))

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

(٢) تاريخ السودان ص ٢١ .

(٣) وقد نشر م. هوداس M. Houdas عدداً من مؤلفات السودان أهمها كتاب —

وقد أصبحت تمبكتو سوقا نافقة يؤمها التجار ويفد عليها الرحالة بطريق الهند ، أو تقصدها قوافلهم من ساحل المغرب الأقصى وطرابلس ، وكانت مدينة « دلاته » سوقا للتجارة قبل تمبكتو ، وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار . فكانوا يفدون عليها من مصر وغدامس وفاس والسوس وغيرها . وقد أنشئت في المدينة أبنية حسنة ، بنيت من حولها الأسوار ، وحلت المساكن المبنية من اللبن محل الأكواخ المقامة من غصون الشجر والقش ، وبنى في تمبكتو مسجد آخر شمالها^(١) .

وقد هاجرت أول أسرة حكمت تمبكتو من مالي سنة ١٣٣٦ م وظلت هذه الأسرة المالية تحكم تمبكتو حتى سنة ١٤٣٣ م ، وفي هذه الفترة زار الرحالة المغربي ابن بطوطة تمبكتو ووصفها وصفا شائقا ، وذكر أن أهلها يدينون بالإسلام وكانت قبيلة مسوفة المغربية أمم القبائل التي هاجرت إلى تمبكتو وكانت من الملتزمين ؛ ذلك اللفظ الذي أطلق على من يقتل أي يغطي وجهه بالنقاب^(٢) .

وكذلك حكم تمبكتو قبيلة تدعى طوارق مغشرون وهم من بربر الصحراء وظل حكمهم أربعين سنة ، ثم خلفهم غازي يدعى سني (بضم السين وتشديد النون مع السكسر) حكمها بين سنتي ١٤٦٨ و ١٤٩٢ .

— « تاريخ السودان للسعدى » « ومعجم الباشوات » . وأشهر كتاب تمبكتو هو احمد بابا الذي ألف معجما في التراجم . وقد أسره المغاربة عند غزوهم تمبكتو وحملوه الى المغرب الأقصى حيث هاش إلى سنة ١٥٩٧ م وتوفي في تمبكتو سنة ١٦٢٦ م .

انظر كاراده فوه Carra De Vaux في مادة تمبكتو في دائرة المعارف الإسلامية ، والحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليوا الإفريقي Lion Africain, Description de l'Afrique ed. Épaular (Paris, 1956), tome ii.

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والمروبة في القارة الإفريقية ص ١٤٨ .

(٢) Fuynbollet, de Joeje Dscription du Maghreb, (Leiden, 1860) p. 48.

انظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والمروبة في القارة الإفريقية ص ١٤٨

هامش (١) .

وقد ذكر المؤرخون أنه لم يكن حميد السيرة ، وأنه اضطهد العلماء وسخر بالدين ، على أن بيت صُنغاي الذي انحدر من هذا الرجل قد ساعد على رقي تمبكتو ، وشجع حكام هذا البيت العلم ورَعَوْا الأدب ، حتى انتقلت السلطة إلى المرغنيين حيث غزاها جَوْدِر باشا مراکش ، سنة ١٥٩٠ م من قبل أحمد المنصور الذهبي ، وظلت تمبكتو تحت نفوذ المغرب إلى سنة ١٥٧٠ م . ثم استردها الطوارق السودانيون سنة ١٧٩٢ م ثم استولى عليها شعب « الغُلْبِه » السوداني سنة ١٨٢٧ م ، وظلت على ذلك حتى وقعت في أيدي الفرنسيين .

وقد اتصل الأوروبيون بتمبكتو ، أول الأمر في القرن الخامس عشر الميلادي فكانت بينها وبين إيطاليا ، وخاصة فلورنسه ، علاقات عن طريق تونس وطرابلس . وكانت تخرج منها أربع طرق كبيرة من طرق القوافل .

الأول — يقصد مصر ويمر بـكأنم وجاوه .

الثاني — يقصد تونس ويمر بهُجَار .

الثالث — يقصد المغرب الأقصى ويمر بسجلماسة وتافيلالت وتوات .

الرابع — يقصد السودان ويمر بمالي .

وقد أعجب الحسن بن محمد الوزان Leo Africanis بتمبكتو وقال إنها كانت عامرة بحوانيت الصناعات والتجارة ولا سيما الحوانيت التي تباع بها المنسوجات القطنية والأقمشة المصنوعة في أوروبا التي يحملها تجار المغرب^(١) وبها معبد مبني من الحجر والسكرس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة يسمى إسحاق الساحلي الغرناطي ، وبها قصر رائع يقيم فيه الملك . بناه نفس المهندس المعماري وقد حلى بكثير من الصور . وكان بيت ماله عامراً بالأموال وقضبان الذهب . وكان أحد هذه القضبان يزن ١٣٠٠ رطل (أي ٤٤٠ كيلوجرام) .

(١) Tome II, p. 38, note 307.

واشتهرت تمبكتو في ذلك الوقت بتجارة الذهب وریش النعام ،
والعاج والعبيد .

وكان نساء تمبكتو يغطين وجوههن بالنقاب . عدا الجوارى اللاتى كن يبعن
أنواع الطعام كافة . وكان أهلها على جانب عظيم من الثراء . وقد زوج عمر
ابن محمد الندى (بفتح النون مع التشديد وكسر الهمزة) حاكم تمبكتو من قبل
امبراطور صُنغاي (بضم الصاد وسكون النون) في جاو ابنتيه من أخوين من
تجار تمبكتو لثرائهما الواسع . وكان في تمبكتو كثير من الآبار ذات المياه العذبة ،
كما يصل إليها الماء عن طريق جداول تتفرع من نهر النيجر . وتكثر فيها
الحبوب والماشية ، بدليل كثرة استهلاك الحليب والزبد . ولكن على العكس
من ذلك ، يلاحظ غلاء الملح وندرة وجوده ، إذ يؤتى به من تغزه (بفتح التاء
وكسر الغين وفتح الزاى) التى تبعد عن تمبكتو بنحو خمسمائة ميل ^(١) .

ومما يؤثر عن هذا الملك أنه أعلن عداؤه لليهود ، حتى إنه لم يقيم في بلاده
يهودى واحد ، وإذا نعى إليه أنه كان لأحد التجار علاقة مع يهودى صادر أمواله .
ويقول الحسن الوزان ^(٢) إنه كان يتمبكتو كثير من القضاة والأطباء والدعاة
الذين كانوا يعينون بأمر ملكى . وكان الملك يحترم العلماء والأدباء ويشترى كثيراً
من المخطوطات ، ولا يبخل بدفع أثمانها مهما ارتفعت ، مما يدل على تقديره
الشديد لرجال العلم والأدب .

ثم انقطعت الصلة بين تمبكتو وأوروبا بعد القرن السادس عشر الميلادى ،
وكان الأوربيون يتحدثون عن جمالها ووفرة ثروتها وتجارتها في الذهب وریش
النعام والعاج والعبيد ، وظلت على ذلك إلى أن ارتادها الرائد الفرنسى رينى چنيه .

(١) Ibid., tome 1, p. 468

(٢) Tome II, p. 468, note 47

René Jaillié سنة ١٨٢٨ واتضح له أنه كان واحداً في تقدير شأنها . ثم زار بارت Barth تمبكتو سنة ١٨٥٣ ثم تطلعت أنظار فرنسا إلى احتلال تمبكتو فأصبحت في عداد المستعمرات الفرنسية سنة ١٨٩٣ ، ولم تعد هذه المدينة متسعة الرقعة كما كانت في أيام ملوك صنغاي ، وأصبح لا يصل إليها أحد فروع النيجر كما كان من قبل . على أن أطلالها تقوم الآن جنوبيه على مسيرة عشرة أميال . وتسير قوافل الملح إليها حتى الآن في حركة دائبة .

٤ — كانو

ومن مراكز الثقافة الإسلامية بغربي القارة الإفريقية «كانو» وهي من أهم مدن شعب الحوصا (بفتح الحاء وسكون الواو) شمالي نيجيريا الحالية . ولغة الحوصا لا تزال منتشرة على نطاق واسع في غربي إفريقيا ، فهي Lingua Franca أى لغة المعاملات التجارية والمالية . ومما يؤسف له أن الفاتحين من الفلاني (بضم الفاء) قد قضوا على كل الوثائق المسجلة التي يمكن الاعتماد عليها في تاريخ هذه الشعوب . ويمكن أن يقال إنه كانت هناك سبع إمارات تابعة للحوصا هي إمارات : كانو ، ورانو ، وزازيا ، ودورا (بضم الدال) وجوبير ، وكتسينا (بفتح السكاف وسكون التاء) وزامفارا . وقد قامت هذه الإمارات في وقت مبكر ، وتستمد كل إمارة اسمها من اسم المدينة الرئيسية فيها . ومما ساعد هذه الإمارات على البقاء ، أن شعب الحوصا يميل إلى التجارة التي تقوم على التعاون السلمي مع قوى العدو . وهذه الحقيقة هي التي أتاحت لبعض هذه الإمارات ، وخاصة إمارة كتسينا ، أن تحتفظ بمكانتها كمركز من مراكز الثقافة الإسلامية .

وقد بدأت بلاد الحوصا وهي في عز قوتها وسؤددتها تتعرض لهجرات سلمية ذات أثر بعيد في تاريخ هذه البلاد ، وهي هجرات شعب الفلاني الذي يرجح أنه

استقر في بلاد التـكرور على نهر الجيبيا حول القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وقد دانوا بالإسلام في وقت مبكر ، ويتحدث فرانسيس مور الذى زار موطنهم على نهر الجيبيا سنة ١٧٣١ عنهم فيقول إنهم يفتشرون على نهر الجيبيا ، وإنهم يشبهون العرب ، ومعظمهم يتكلم العربية لأنهم يتعلمونها في مدارسهم . ولهم لغة غير مهذبة تسمى « فولى » . وهم يزرعون القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم ويبيعونه بسعر معتدل ، ويشتهرون بالكرم . فإذا علموا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقاً اجتمع القلائون وحرروه^(١) .

وتبعد « كانو » عن نهر النيجر بنحو خمسمائة ميل (ثمانمائة كيلومتر) ويسكن هذه المدينة « كانو » صناع على جانب عظيم من الرقى وكثير من مياسير التجار . وكانو ولاية كبيرة يعيش أهلها على تربية الماشية والبقر وفلاحة الأرض ، ويزرعون الحبوب^(٢) . وكان أغلب سكانها يدينون بالوثنية ، على حين نجد العناصر القريبة من المغرب تدين بالإسلام . ولم تحرز المسيحية تقدماً إلا في قليل من المناطق التى تقيم بها جمعيات تبشيرية . ومن الحقائق المسلم بها أن الوثنية في نيجيريا آخذة في الاختفاء لتحل محلها الأديان السماوية ولا سيما الإسلام . والدين الإسلامى يلقى إقبالا عظيما من الأهالى الذين يستظلون بظل الإسلام بنسبة لا تقل عن ٩٠٪ على حين نجد المسيحية لم تكسب من تحول هؤلاء السكان عن الوثنية إلى المسيحية إلا بنسبة ١٠٪ .

ويقوم بنشر تعاليم الإسلام في هذه البلاد إفريقيون مسلمون وينشر المسيحية أوروبيون لا يختلطون بالناس ولا يعرفون لغتهم على الرغم من تعصيد

(١) أنظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة في القارة الإفريقية ص ٧٥

(٢) Tome II, p. 476 et note 86.

(٣) Francis Moore, Travels in the Inland Parts of Africa (London, 1760) pp. 75—77.

راجع سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٧٤ .

السلطات الاستعمارية والجمعيات التبشيرية . إذ أن سكان هذه المناطق من السود يخافون الإنسان الأبيض ويفزعون منه كما يفزع الإنسان من حيوان مفترس . وهذا يعطل ببطء انتشار المسيحية ، وسرعة انتشار الإسلام ، إذ أن الدعاة المسلمين قريبون منهم في اللون وفي الروح وفي العادات والتقاليد . فالداعي المسلم أو المعلم المسلم يستطيع أن يؤا كل هؤلاء الأهالي ويصاهرهم ، وينام حيث ينامون ويجلس حيث يجلسون ، على حين لا يستطيع الأوربي . بأي حال أن يندمج معهم مثل هذا الاندماج ، وإذا ما حاول ذلك كان عن تكلف وتصنع يبدو منفراً لهؤلاء الأهالي . وهذا يعطل لما إذا سار الإسلام في طريقه قدماً حتى بعد أن خضعت نيجيريا للحكم البريطاني ، ويقول سير ألان بيرنز الذي شغل منصب حاكم عام نيجيريا مدة طويلة^(١) إن الحكومة البريطانية اضطرت إلى أن تمنع المبشرين المسيحيين من العمل في الإمارات الإسلامية بل في الولايات الوثنية التي فيها دعاة للإسلام ، بل لقد اضطرت الحكومة البريطانية إلى أن تقطع لمسلمي نيجيريا عهداً بالآلا تتدخل في شئونهم الدينية بعد أن أعرب هؤلاء المسلمون عن اعتقادهم بأن الجمعيات التبشيرية إنما تعمل بإذن الحكومة ، وأن هذه الجمعيات لا تستطيع أن تباشر نشاطها إلا في المناطق التي تضمن الحكومة البريطانية سلامتهم فيها . وكان من أثر ذلك أن انتشر الإسلام بين أهالي نيجيريا ، حتى أصبح أكثر من نصف سكان مدينة « لاغوس » اليوم مسلمين^(١) .

وهذه السياسة التي لجأت إليها إنجلترا صادرةٌ — بلا شك — عن فكرة استعمارية اقتصادية لا عن دافع ديني ، إذ خشيت من إقلاق الأهالي لها وقيامهم في وجه الاستعمار البريطاني من زاوية دينية .

History of Nigeria, p. 249 et seq. (١)

ويقوم بتدريس العلوم الإسلامية في «كانو» مهاجرون يحفظون القرآن الكريم ويلمّون باللغة العربية وينشرونها بين الناس ، وفي كل مدينة من مدن شمالى نيجيريا مدارس يشرف عليها فقهاء يسمون Malams وهى تحريف لكلمة معلمين كما هو واضح . ويلحق الأطفال بالمدرسة في سن مبكرة ، وقد يرسل هؤلاء الأطفال إلى مدن بعيدة أو يوفد إليهم المعلمون الذين يحترفون التجارة غالباً ، إذ كان للمعلمون يحترفون التجارة طلباً للعيش ، وهذا يدل على أن تعليمهم الإسلام كان صادراً عن إخلاص ديني لا يبتغون به إلا وجه الله ، ويتعلم الأطفال في هذه المدارس ساعة قبل شروق الشمس ، وساعة قبل غروبها حتى يستطيعوا أن يعاونوا ذويهم في أعمالهم .

وتكاد تكون مناهج التعليم في هذه المدارس واحدة ، بمعنى أنها تقوم على نشر الدين الإسلامى ، فتعنى بتعليم الفرائض وتلاوة القرآن وحفظه وتفسيره بالعربية أو باللغة القومية المحلية ، أما طلاب الفرق الراقية فإنهم يتلقون دروساً في الحديث والفقه والتوحيد . وقد شهدت الأيام الأخيرة نهضة جديدة في هذه البلاد ؛ فقد أنشئت مدرسة العلوم العربية في «كانو» ، وبدأ الناس يتعلمون ويتفقهون في الدين . وهناك اتجاه إلى إدخال اللغة العربية في برامج التعليم في مدارس الدولة .

كذلك أدخلت دراسة اللغة العربية في مدينة زاريا Zaria وتقع شمالى نيجيريا وجنوب شرقى كانو ، وحاضرتها زاريا ، وذلك بسبب الحاجة إلى المعلمين والقضاة ، كما دعت الحاجة إلى المعلمين والقضاة إلى إنشاء مدارس أو معاهد ، كالمعهد الإسلامى في مدينة زنبار في شرقى القارة الإفريقية .

ويرجع أهل زاريا في أصولهم إلى شعب الخوصا ، ويقول سيرالان بيرنز

(م ١٥ — انتشار الإسلام)

في كتابه تاريخ نيجيريا^(١) إن علماء الأجناس اختلفوا في أصل شعب الحوصا : فبعضهم يردّه إلى أصل هندي أو يهودي أو فينيقي ، ويقول الحسن الوزان (ليو الإفريقي) في كتابه وصف إفريقية^(٢) إنه لا يبعد أن يكون أهل الحوصا من أصل مصري ، وإنهم يشبهون صور المصريين المنقوشة على القبور في عهد المكسوس ، ويكاد هؤلاء المؤرخون يتفقون على أمر واحد هو أن هؤلاء القوم جاءوا من صعيد مصر ، وأنهم هاجروا غرباً عن طريق بلاد المغرب ، ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسي ، فاستقر بعضهم هنالك ، ومضى بعضهم الآخر قدماً حتى بلاد السنغال ، ثم أخذوا في القرن الثالث عشر يهاجرون شرقاً ويتدفقون إلى شمالي نيجيريا .

وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر استولى على زاريا أقوامٌ من فوتاتورا Fouta Touro وأجلاسوا امرأة على العرش ، وأسسوا مدينة زاريا حول سنة ١٥٣٦ م ، وذلك في عهد زاكراك وهو الثاني والعشرون من ملوكهم الذي ظل الملك في عقبه حتى سنة ١٨٠٢ م . ثم استولت أسرة أخرى على هذه البلاد . ويحترف أهل زاريا التجارة التي يجنون من ورائها ثروة طائلة . ويمتاز جو مملكة زاريا بشدة حرارته في جزء من البلاد ، وبشدة برودته في الجزء الآخر ، حتى إن الأهالي لا يحتملون جو الشتاء .

ويذكر الحسن الوزان أن الحبوب والفواكه تزرع بكثرة ، وأنه كان يحكم هذه البلاد ملك مستقل ، ولكنه قتل على يد أشكيا أو الحاج محمد ملك جآو Gao ببلاد الحوصا الذي أعلن نفسه ملكاً على هذه البلاد . وإلى إمارة « زاريا » يرجع الفضل في نشر الإسلام في أواسط نيجيريا ، على حين كانت

(١) Sir Alan Burns, History of Nigeria, pp. 41—42.

(٢) Tome II, pp. 477—478, notes 92,93

إمارة «كانو» تنشر هذا الدين في منطقة «برنو» (بضم الباء وسكون الراء) في الشرق^(١).

ومن مراكز الثقافة الإسلامية في التيجو كتسينا Katsena حاضرة الإمارة التي كانت تسمى باسمها.

وتقع مدينة «كتسينا» Katsena على بعد ١٦٠ ميلا شمال شرق مدينة «كانو»، ويحيط بها كثير من القلال، وأرضها صلبة ولكنها صالحة لزراعة الذرة والشعير. وتمتاز بشرة أهلها بسوادها الحالك، كما يمتازون بالأنوف المفرطحة والشفاه الغليظة. وقد ذكر السعدي^(٢) أن أسكيا Ischia الحاج محمد ملك جآو ببلاد الخوصاغزا كاتسينا في أواخر السنة العاشرة من حكمه (١٥١٢ م) ثم غزاها في السنة الثالثة^(٣).

ثانيا — الثقافة العربية في شرق إفريقيا

١ — السودان

كان لدخول القبائل «العربية» في السودان، سواء من الشرق أو الشمال، أو اتجاههم جنوبا وغربا، أو تسربهم من شمالي إفريقيا، أثر بعيد في تعريف السودان، وفي إدخال الإسلام إلى ربوعه. ومما ساعد على غلبة العرب، أنهم هنصر قوى استطاع أن يفرض سيطرته بتزاوجه مع بيوتات المملكة القائمة. وهكذا استولى العرب على الممالك السودانية المعروفة في ذلك العصر، وبسطوا سلطانهم ونشروا دينهم وحضارتهم ولغتهم وثقافتهم.

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٧٣ .

(٢) تاريخ السودان ص ١٢٩ .

انظر : حسن ابراهيم حسن ص ١٥٢ من الأصل .

(٣) V. Urvoy, Histoire des Populations du Sudan Central, p. 32.

ولم تكن هذه القبائل هم الرواد الأوائل للثقافة الإسلامية في السودان ؛ فقد وفد إلى البلاد قوم من العرب أو من المستعمرين ، أو من بقايا الجيوش الحاربة الهاربين من الضغط السياسي ، أو من الدعاة الذين كان لهم الفضل في نشر التعاليم الفاطمية التي ذاعت في شمالي السودان فترة من الزمن ، حتى استطاع الأيوبيون أن يقضوا على الخلافة الفاطمية وأدى ذلك إلى زوال المذهب الفاطمي من السودان . ولم يكد السودان يزداد معرفة بالثقافة الإسلامية ، حتى لقنه السلاجقة والأتراك العثمانيون أصول الدعوة الإسلامية على وفق عقائد الجماعة والسنة . فانتشر مذهب أبي حنيفة على نطاق واسع ، كما انتشر المذهب الشافعي . على أن الثقافة العربية في السودان ازدهرت في ظل ممالك ثلاث هي :

أولاً : مملكة تَقْلَى (بفتح التاء والقاف) التي تأسست حوالي سنة ١٥٧٠ م واستمرت إلى أواخر القرن التاسع عشر .

ثانياً : مملكة القونج (١٥٠٥ — ١٨٢٠ م) .

ثالثاً : مملكة دارفور (١٦٣٧ — ١٨٧٥ م) .

ويرجع فضل مملكة تَقْلَى على الثقافة العربية إلى الأحوال التي أدت إلى قيامها . فقد أسسها رجل من الزهاد الجعليين نزل هذه البلاد واجتذب قلوب الأهليين بورعه وسمو خلقه ، واستطاع أن يؤسس مملكة له ولأولاده من بعده . وكانت سياسته وسياسة خلفائه تهدف إلى نشر الإسلام والثقافة العربية ، وإلى التزاوج من القبائل النوباوية . وبفضل هذه السياسة انتشرت العروبة في النوبة الشرقية غربي السودان .

وقد استطاع القونج ، كما أسلفنا ، أن يؤسسوا مملكتهم على أنقاض الممالك المسيحية . واتسع هذا الملك وشمل عدة إمارات امتدت من الشلال الثالث شمالاً إلى حدود الحبشة جنوباً وشرقاً إلى البحر الأحمر . وفي هذا العصر نشطت

الدعوة الإسلامية واشتدت الرغبة في النهوض بالدين الإسلامي . وكانت أساليب الدعوة ذات طابع سلمي في أغلب الأحيان ، وأنشئت مدارس كثيرة لتعليم القرآن والفقه والتوحيد .

وكان الحجاز منبعاً للحركة العلمية والدعوة الإسلامية في بلاد السودان . ويظهر أن كلا من الحج والتجارة بين السودان والحجاز قد ساعدا على تشجيع هذه الحركة العلمية . فإن الحجاج السودانيين الذين كانوا يرحلون إلى مكة ويقيمون فيها بعض الوقت ، كانوا يصحبون عند عودتهم بعض الفقهاء الحجازيين . وقد استوطن بعض هؤلاء الفقهاء بلاد الفونج وأنشئوا الزوايا وعملوا على نشر الإسلام ، ومضى بعضهم قدما صوب الغرب حتى بلغوا دارفور وكردفان . على أن إنشاء الزوايا لم يصادف في دارفور مثل النجاح الذي صادفه في البلاد الممتدة على النيلين الأبيض والأزرق شرقاً ، وفي تمبكتو ، وكانوا ، وكنتسينا غرباً^(١) . كذلك كانت بلاد المغرب منبعاً آخر للثقافة الإسلامية في عهد الفونج الذين استقدموا عدداً كبيراً من العلماء المغاربة . ويذكر محمد ضيف الله^(٢) أن عدداً من علماء الفونج يرجع أصلهم إلى بلاد المغرب أو الأندلس . وكذلك تطلع الفونج إلى الأزهر : فكان الملك بادي الأول (١٦١١ - ١٦١٦ م) على صلة بعلماء مصر ، وكان يرسل إليهم الهدايا والصلوات . وكان السودانيون يلتحقون بالأزهر ثم يعودون إلى بلادهم يعلمون اللغة والتوحيد والفقه ، حتى لقد أصبحت مملكة سنار المركز العلمي لشرق السودان وغربيه .

على أن الطابع الثقافي في عصر الفونج كان طابعاً صوفياً . وإلى الثقافة الحجازية والمغربية يرجع الفضل في نشر التصوف . وقد مهدت الأحوال

(١) Trimingham, Islam in the Sudan, pp.(100—101).

(٢) كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان (طبعة المطبعة المحمودية بالقاهرة) ص ٩١٣ .

الاجتماعية ولا سيما العصبية القبلية التي كادت تمزق البلاد ، السبيل لانتشار الفرق الصوفية ، فوجد الناس في المشايخ الذين يدعون إلى الانتظام في سلك العبادة وسيلة لتخليصهم من هذه الاختلافات ، لأن الجماعات الصوفية تدعو إلى الألفة بين أعضائها . وفي عصر الفونج انتشرت طائفتان كان لهما أثر بعيد في نشر الثقافة العربية .

الأولى : هي القادرية وهي أوسع الجماعات الدينية انتشاراً كما تقدم .

الثانية : هي الشاذلية وتنسب إلى أبي الحسن الشاذلي الأندلسي . وقد انتشرت هذه الطريقة في المغرب الأقصى (مراكش) في القرن الخامس هجري الميلادي ، ثم دخلت السودان في عهد الفونج ، فرسخت أقدامها على يد الشيخ خوجلي (بفتح الخاء وكسر الواو وفتح الجيم) عبد الرحمن المحسني^(١) المتوفى سنة ١٧٤٣ .

ومن أهم مراكز الثقافة في عصر الفونج : الخلوة ، والمسجد ، والزاوية . والخلوة أقدم هذه الأماكن ، يدرس فيها القرآن والكتابة والقراءة ومبادئ الحساب . وقد انتشرت في القرن السادس عشر في جزيرة سنار والنيل الأبيض حيث أنشئت خمس عشرة خلوة^(٢) . وكذلك شأن المساجد التي أصبحت معاهد دينية يلتقى فيها التلاميذ لحضور حلقات الدرس . وكانت الدراسة في المسجد أرفع مستوى من الدراسة في الخلوة ، على حين كانت الزاوية تجمع بين السكنى والعبادة والدرس . هذا وقد انتشرت الزوايا في جميع بلاد الفونج^(٣) ، حيث ظلت الثقافة العربية مزدهرة ثلاثة قرون . لكن التعصب القبلي وسياسة العزلة

(١) نسبة إلى المحس إحدى قبائل النوبة .

(٢) الدكتور عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٦٢ - ٦٣

(٣) Trimingham., Ibid, p. 115.

التي رسمها حكام الفونج قد مهدا لانهلال هذه المملكة ، واستطاع محمد علي أن يقضى عليها سنة ١٨٢٠ .

وقد نالت الثقافة العربية الإسلامية من تشجيع ملوك دارفور ما نالته من تشجيع ملوك الفونج . فقد احتل المتعلمون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون المناصب الكبرى في الدولة . وهم يحتلون بين الماندنجو مكانة أعظم شأنًا ، وينالون احترامًا يلي احترام الملك . وهم موضع التبجيل والتكريم ، ليس في البلاد الإسلامية وحدها ، بل في القرى الوثنية التي يؤسسون فيها مدارسهم . ويحترمهم الناس باعتبارهم معلمى أبنائهم ، ويمدونهم واسطة بينهم وبين الله ، سواء في قضاء حاجاتهم أو في درء المصائب وصرفها عنهم . وقد تلقى كثير من هؤلاء المعلمين دراساتهم في مدارس القيروان وقاس وطرابلس وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية . وقد قيل إن أكثر من ألف من دعاة الإسلام يغادرون طرابلس كل سنة إلى السودان . وقد درس هؤلاء الدعاة بصفة خاصة في الجامع الأزهر الذي يهرع إليه الطلاب من أرجاء العالم كافة . ومن بينهم جماعة من زنوج إفريقية ، وطلبة من دارفور ووداي وبرنو . وينشئ هؤلاء المعلمون في المدن التي يزورونها مدارس يختلف إليها الأطفال الوثنيون والمسلمون على سواء ، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الإسلام وشعائهم^(١) .

وبعد أن احتل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ وفرضوا الحكم الثنائي على السودان ، ثم انفردوا بحكمه ، بدءوا يدخلون من الثقافة الغربية ما يلائم حاجتهم . وكان الهدف الأول من التعليم هو إمداد الحكومة بحاجتها من الموظفين . ولهذا أنشئت كلية غردون سنة ١٩٠٢ ، وكان التعليم في الكلية

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة، ص ٢٩٨ .

استعماريًا خالصًا . ويرى ترمنجهام^(١) أن التعليم في السودان كان يرمى إلى أغراض ثلاثة هي :

١ — خلق طبقة من الصناع .

٢ — إتاحة فرصة التعليم للناس بالقدر الذي يتمشى مع حاجة الحكومة في الناحيتين الإدارية والقضائية .

٣ — إيجاد طبقة من الموظفين لشغل الوظائف الحكومية .

وبعد إنشاء مشروع الجزيرة دعت الحاجة إلى مزيد من الموظفين الإداريين . وكان خريجو كلية غردون يلتحقون بالوظائف اللازمة لهذا المشروع . مما يؤدي هذا القول أن إدارة التعليم كانت خاضعة للإدارة السياسية ، وكانت مراحل التعليم الأخرى تتمشى مع طبيعة التعليم في كلية غردون . وإلى جانب هذه الكلية التي كانت في مستوى المدارس الثانوية ، أنشأت الحكومة كثيراً من المدارس الابتدائية . وقد اشتد الإقبال على كلية غردون بعد مقتل « سيرلي ستاك » سنة ١٩٢٤ وانسحاب الموظفين المصريين من السودان .

وفي سنة ١٩٣٢ شكلت حكومة السودان لجنة لإصلاح التعليم . واقترحت هذه اللجنة التوسع في التعليم الإبتدائي وإنشاء بعض المدارس الثانوية ، وأدى هذا إلى إنشاء معهد بنحت الرضا للمعلمين سنة ١٩٣٤ ، وإلى الملاءمة بين إدارة التعليم والسلطات المحلية في الأقاليم . ثم شعرت الحكومة البريطانية بمزيد من الحاجة إلى الملاءمة بين التعليم وبين مصالحها الخاصة ، فشكلت سنة ١٩٣٧ لجنة أخرى لدراسة حالة التعليم في البلاد واقترحت هذه اللجنة تحويل كلية غردون إلى كلية جامعية وتحويل معهد بنحت الرضا إلى معهد للمعلمين .

(١) Islam in the Sudan, 254.

الثانوية . وفي سنة ١٩٤٥ أنشئت كلية غردون الجامعية ، وافتتحت فيها دراسات عليا في الآداب والحقوق والعلوم والهندسة والزراعة والطب البيطرى . وقد أدى نمو الحركة القومية في السودان إلى زيادة شعور السودانيين بالحاجة إلى مزيد من التعليم ، مما اضطر الحكومة إلى مضاعفة عدد المدارس الابتدائية والثانوية^(١) .

ثم أعلن استقلال السودان في أول يناير سنة ١٩٥٦ ، وتحولت كلية غردون الجامعية إلى جامعة الخرطوم التي ينتظر أن تمد السودان بمحاجته من الأخصائيين في جميع فروع المعرفة . وكان لمصر أثر واضح في تطور النهضة الثقافية في السودان ، وذلك عن طريق البعثات التعليمية التي كان أعضاؤها يوفدون إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر أو الجامعات المصرية . وكان أساتذة معهد أم درمان الدينى نفسه من خريجي الأزهر الشريف . كما كان لتطور الطباعة ونهضة الصحافة في مصر أثر ملحوظ في السودان . فقد كانت الصحف المصرية — ولا تزال — واسعة الانتشار ، وكان المثقفون السودانيون يقبلون على ما تنتجها المكتبة العربية في مصر ولا سيما في النواحي الدينية والأدبية . وليس من شك في أن إنشاء فرع جامعة القاهرة في الخرطوم سيكون له أثر بعيد في الوصل بين النهضة السودانية والمصرية وتعاونهما الوثيق في ميدان العروبة والإسلام .

٢ — الحبشة

يعد المذهب السنى أهم المذاهب في الحبشة ، على الرغم من أنه أقل انتشاراً من المذاهب الإسلامية الأخرى . ومع أن المراكز الثقافية قريبة من بلاد الحبشة ، لم تستطع أن تؤثر في هذه البلاد التأثير الكافى ، وأصبح مذهب السنة يتركز

(١) Trimingham, Ibid., pp. 258—260

في المدن الساحلية وفي إمارة هرر . وهناك تيار آخر ظهر في القرن الماضي ، هو تيار الفرق الصوفية . وما يصحبه من حلقات للذكر وتقديس الأولياء ومظاهر تصوفية أخرى : على أن أهم العوامل أثراً في الحياة الإسلامية في الحبشة ، هي النظم الدينية القديمة ، ولا سيما النظم الكوشية التي تنسب إلى الكوشيين ، وهم أهل الحبشة القدماء . فقد أثرت هذه النظم الكوشية في الحياة الاجتماعية وفي عقائد الناس وفي حياتهم الاجتماعية .

ولم يؤد انتشار الإسلام في بلاد الحبشة وفي بعض مدن إفريقية الشرقية إلى توحيد البيئات الثقافية المختلفة برغم اشتراك الأحباش في وحدة الدين . فظلت الشعوب الحبشية المختلفة تتمتع باستقلال ذاتي : لكل أولياؤها وطرقها الصوفية . وأما كن عبادتها ومدارسها . وتعتبر مدينة هرر مثلاً صالحاً لهذه الحقيقة . ففي هذه المدينة اثنا عشر ألفاً من أهل هرر نفسها ، وعشرة آلاف من الجلا (بفتح الجيم واللام مع التشديد) ، وألف من العرب ، وألف من الصوماليين . ومع هذا لم تندمج هذه العصبية بعضها في بعضها الآخر ولم يتم اختلاطها : فإذا صلوا ، صلى كل في مسجده خلف إمامه ، ولكل منهم كتابته الخاصة ، بل لكل منهم مذهبه الخاص .

وأثر الإسلام في مركز المرأة يتوقف على عمق الإيمان بهذا الدين . فكلما ازداد تمسك الناس بالسنة ، انخفض مستوى المرأة ، مع استثناء طائفة الحنري (بفتح الجيم والباء وسكون الراء) ومدينة هرر ، حيث تتمتع المرأة بمكانة سامية في الحياة الاجتماعية . ونقف على صحة هذا القول من رحلة محمد مختار المصري الذي زار هذه المدينة إبان الاحتلال المصري لها ، حيث شاهد عدم تعدد الزوجات وندرة الطلاق .

ويقوم بتطبيق المذهب السني القضاة وأئمة المساجد ، والطلبة الذين تعلموا

في هرر وفي بعض المدن الساحلية أوفى مصر والسودان . وإذا عاد هؤلاء إلى بلادهم أنشئوا كتاتيب لتعليم القرآن . وإلى هؤلاء يرجع الفضل في نشر الإسلام والثقافة العربية . وتعد المدن المراكز الحقيقية للحياة الإسلامية . والمساجد لا تنشأ إلا في المدن ، أما أهل القرى فإنهم يتخذون مُصلًى تحت شجرة ظليلة حيث يجتمع الناس في أوقات الصلاة . وفي مساء الجمعة من كل أسبوع يجلسون في هذا المكان فيرتلون القرآن ويقرءون الأوراد والسيرات النبوية وكتب الحديث والفقه .

والفقهاء ينشئون الكتاتيب في كل مكان ، وتختلف أسماء المعلمين بحسب الأماكن التي يقيمون فيها : فأحياناً يسمى أحدهم شيخاً ، وأحياناً فقيراً ، وأحياناً فقيهاً . وفي بلاد الصومال اسم يطلق على المعلم يسمى « وداد » أو « كبير » ، وخاصة في جنوبي الحبشة وهرر . . وفي هذه المدينة الأخيرة يطلق على صغار المعلمين اسم « مومى » . ولا يكاد يوجد مجتمع إسلامي وإن صغر عدده إلا وترى فيه مدرسة لتعليم القرآن برياسة أحد الفقهاء الذي يمتلك قطعة من الأرض ، ويشرك التلاميذ في فلاحتها ، ويؤم الناس في الصلاة تحت الشجرة . ويقوم فوق هذا بدور الطبيب أو الساحر ويمنح البركات ويكتب التأمم . فهو روح القرية ، وهو الحفيظ على تعاليم الإسلام . وعلى الرغم من أن هذا التعليم قد ضحل ، نجد له أثراً بعيداً في نمو الثقافة العربية في هذه البلاد .

ويصحب انتشار الإسلام والثقافة العربية تطبيق الشريعة الإسلامية . وهذا التطبيق يتوقف على استعداد الحكام غير المسلمين كما يتوقف على التقاليد المحلية القائمة ، لأن كثيراً من القبائل تحتفظ بتقاليدها القديمة التي لا تريد أن تتحول عنها . وفي المدن ، حيث تقل العصبية القبلية ، ييسر تطبيق الشريعة

الإسلامية . وقد أمكن تطبيق هذه الشريعة كذلك في ظل الحكم الأوربي .
وتعترف الحكومة الحبشية بالشريعة الإسلامية وبخاصة في الأحوال الشخصية
وفي المعاملات المدنية .

أما عن المذاهب السنية فإن انتشارها كان يتوقف على البلد الذي جاء منه
كل من هذه المذاهب . ويعد المذهب الشافعي أوسع هذه المذاهب انتشاراً ،
ولاسيما بين الصوماليين والجبّال ، وقبائل الجبّال (بفتح الجيم واللام مع التشديد)
على حين يقل أثر هذا المذهب في إريتريا . وترجع سعة انتشار المذهب الشافعي إلى
أنه دخل بلاد الحبشة عن طريق بلاد العرب . أما بعض القبائل التي اعتنقت
الإسلام عن طريق السودان ، فإنها تدين بمعتقد مذهب مالك . ولما احتل
المصريون إريتريا وهرر وبعض المناطق الساحلية ، اتخذوا المذهب الحنفي
المذهب الرسمي للدولة ، وأبقى الإيطاليون على هذا المذهب . وفي مدينة أديس أبابا
مسجدان يؤمهما أتباع المذهب الحنفي ، وهناك أيضاً بعض الإباضية من
الخوارج ولاسيما بين المهاجرين من الصومال وإريتريا ، وبعض الزيدية الذين
هاجروا من بلاد اليمن .

وقد تم تبسيط الطرق الصوفية في الحبشة لتلائم عقلية البدائيين من أهل
البلاد . فلا تفرض قيود ثقيلة على الداخلين في هذه الفرق ، كما لا تفرض عليهم
بعض الطقوس الصوفية الأخرى . ويظهر أن الطرق الصوفية لم يكن لها وجود
في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، في الوقت الذي زار فيه
ابن فضل الله العمري هذه البلاد . فهو يتحدث عن المدارس والخوانق والروابط
والزوايا ولا يشير إلى الصوفية . والقادرية هي أول الفرق الصوفية التي دخلت
بلاد الحبشة على أيدي المهاجرين من اليمنيين والحضارمة . وقد انتشرت الفرق
الصوفية في مصوع وزيلع ومقديشيو وبعض المدن الساحلية الأخرى ، حتى

جاء القرن التاسع عشر وبدأت الثورات الإسلامية تظهر في بعض أرجاء العالم الإسلامي . وكانت هذه الثورات تهدف إلى إحياء الدين والرجوع بالإسلام إلى ماضيه المجيد . وقد امتد أثر هذه الثورات إلى القارة الإفريقية ، ولا سيما حركة السيد أحمد بن إدريس الفاسي ، وأشهر تلاميذه محمد بن علي السنوسي . غير أن السنوسية لم تنتشر انتشاراً كبيراً في بلاد الحبشة ، على حين انتشرت الميرغنية والختمية التي دخلت الحبشة عن طريق كسلا . وهناك فرق صوفية أخرى مثل الرحمانية ، وهي إحدى فروع الشاذلية ، وتنتشر في سواكن ومصوع ، والسامانية وتنتشر في جَبَرَت (بفتح الجيم والباء وسكون الراء) وإريتريّة ، والتيجانية وتنتشر بين الجبال خاصة ، والرفاعية وتنتشر بين الصوماليين^(١) .

وقد ذاعت بين مسلمي الحبشة عادة تقديس الأولياء ، وتنفذ أضرحتهم في طول البلاد وعرضها ، وأغلبهم من الغرباء الذين وفدوا على البلاد وادعوا انتسابهم إلى الهاشميين . وقد ظهر فضلهم وتقواهم وتقشفهم وعلمهم ، فتأثر بذلك المسلمون الذين نالوا حظاً محدوداً من التعليم ولا سيما في المدن والقرى . وكان هؤلاء الشيوخ يؤمنون الناس في الصلاة ، ويعلمونهم القرآن والحديث ؛ فإذا ماتوا أصبحت أضرحتهم مراكز للتعليم يقد إليها الحجاج من البلاد كافة . ومن أشهر هؤلاء الأولياء سيدي سعد الدين في زيلع ، وسيدي عمر السكري والأمير نور بن المجاهد في هرر .

وهناك مستويان للثقافة الإسلامية في الحبشة : أولهما يمثل الإسلام بين الرعاة والبدو ، وثانيهما يمثل الإسلام بين أهل القرى والمدن . وحظ الرعاة والبدو من الإسلام ضئيل ، وهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، فلا يؤدون الصلاة ولا يصومون شهر رمضان ، وهم بحاجة إلى مزيد من التعليم . وإسلام أهل المدن

أعمق من إسلام البدو ، فهم يصومون شهر رمضان ، ويؤدون الصلاة ، ويلبسون
نداء الجهاد كلما دعت الحاجة إلى ذلك . ونستطيع أن نقول إن الإسلام يتركز
في المدن والقرى . ويتم تسرب الإسلام بين الوثنيين من أهل البلاد على
مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى - حينما يقلد هؤلاء الوثنيون بعض مظاهر الحضارة الإسلامية
كاللباس والطعام .

المرحلة الثانية - حينما يقتبسون من الدين الإسلامي نفسه وينظرون إلى
الفقيه والشيخ والمعلم نظرهم إلى ساحر القبيلة ، فيلجئون إليهم ليعالجوا مرضاهم
بأساليبهم الخاصة ، وينتهي اتصالهم بهم إلى دخولهم في الإسلام غالباً .

والمرحلة الأخيرة - تتمثل في دخولهم الإسلام عن اقتناع ، فيؤدون الصلاة
ويصومون رمضان ويحجون بيت الله الحرام .

ومهما يكن من شيء ، فإن المسلمين في الحبشة في حاجة إلى أن يمد إليهم
إخوانهم في الدين يد العون في إنشاء بعض المعاهد الإسلامية التي تبصر الناس
بأمور دينهم وتثبت هذه العقيدة في نفوسهم ، مثل المعهد الذي أنشئ في
مدينة أسمرا في إريتريا ، والذي يؤدي خدمات جليلة للمسلمين في شرق
إفريقية^(١) .

٣ - الصومال

كان نظام التعليم الإسلامي منذ عهد بعيد محصوراً في المدن الساحلية وفي
مدينة هرر . ولكن في خلال القرن التاسع عشر كان للنهضة الإسلامية أثر كبير
في انتشار الإسلام والتعاليم الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة . وقد قام

(١) Trimingham. Islam in Ethiopia, pp. 247,270—272.

المشايخ بتأسيس جميع أنواع المدارس في المراكز الإسلامية . ولا سيما في منطقة هرر ، وفي كل أرجاء إريتريا والصومال وغيرها .

ويدير المعلمون مدارس لتعليم القرآن في جميع المراكز الإسلامية ، ويطلق على المعلم في شمالي الحبشة شيخ أو فقير كما تقدم ، وفقى (جمعها فقراء لا فقهاء ، كما يطلق على الذين يشتغلون بالشريعة الإسلامية) ، ووداد (جمعها ودادين) في الصومال ، وكبير في هرر وبين قبائل الجلا في جنوبي الحبشة . وحيثما وجدت جماعة إسلامية ، تجد بينهم واحداً يحفظ القرآن ويدير مدرسة ، وهو يمتلك قطعة من الأرض يزرعها بمعونة تلاميذه ، ويؤم الناس للصلاة في القرية في المكان التقليدي تحت الشجرة المقدسة في القرية ، وأحياناً يزاول الطب . والمدرسة هي المركز الرئيسي للحياة في القرية ، والمعلم هو الذي يحافظ على الدين . والأولاد يحفظون القرآن ويعرفون شعائر الوضوء والصلاة^(١) .

٤ — زنزبار .

انتشار اللغة السواحلية في شرقي إفريقية بوجه خاص

انتشرت اللغة السواحلية انتشاراً عظيماً ، وعم استعمالها جميع الطبقات ، وأصبحت اللغة القومية الرسمية على طول الساحل الشرقي للقارة الإفريقية ، كما غدت لغة التجارة في المحاطبات بين القبائل في كل أرجاء إفريقية الشرقية . وتعتبر السواحلية (أو كي سواحيلي) من لغات البنقو (بفتح الباء وسكون النون) ، وتشتمل على مفردات ضخمة من اللغتين العربية والبرتغالية أولاً ثم من الإنجليزية . وتعد السواحلية من أهم اللغات الأكثر تداولاً في العالم .

والسواحلية لغة لطيفة تطرب السامع . فإن الحركات التي تنتهي بها كلماتها ،

(١) Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 142, 229—230.

والحركات التي على ما قبل أواخر الكلمات تجعلها قريبة الشبه في النطق باللغة الإيطالية . وقد جاءت حركاتها الحلقية من اللغة العربية . وقد تلطفت هذه الحركات بحيث يستطيع الأوربي أن ينطق بها بسهولة . ويتكلم أهالي شمالي مدينة ممبسة بجزيرة لامو التي تعد أصل اللغة السواحلية بهذه اللغة خالصة نقية . وقد انتشرت السواحلية تدريجيًا نحو الجنوب ، وعلى الساحل الإفريقي الشرقي وفي الجزر حتى وصلت إلى بلاد موزمبيق . لذلك امتزجت شيئًا فشيئًا بالفاظ وتعبيرات عربية وفارسية وهندية وبرتغالية وغيرها . وقد استعربت هذه اللغة ببلاد زنبار بوجه خاص .

وآداب اللغة السواحلية وافرة المادة نوعًا . فقد ترجمت إليها التوراة وغيرها من الكتب المسيحية ، ونشرت بها عدة رسائل عن الأمثال الدارجة وحكايات وأقاصيص وأشعار مختلفة . وقد انتشرت السواحلية وأصبحت لغة المعاملات التجارية والمالية (Lingua franca) كلغة الحوصا في أراضى تبلغ مساحتها نحو ألف فرسخ وقد نقلها الملاحون والتجار من الأهالي على سفنهم من الساحل الشرقي للقارة الإفريقية إلى الثغور البحرية ببلاد الصومال وعدن ، وعلى الساحل الجنوبي ببلاد العرب حتى الخليج العربي والمحيط الهندي ، ووصلت إلى بمباي وانتشرت جنوبًا ببلاد موزمبيق وجزائر قر ومدغشقر .

كما انتشرت اللغة السواحلية على أيدي التجار في داخل القارة الإفريقية ، وهي منتشرة في بعض جهات أوغندة وفي أجزاء من جنوبي السودان . وإذا سرت في النيل من أوغندة شمالاً رأيت مدى انتشار اللغة العربية التي يتكلمون بها بلهجات مختلفة في معظم أرجاء السودان ومصر ، والتي أخذت تحمل محل اللغة السواحلية باعتبارها لغة المعاملات التجارية والمالية . كذلك انتشرت اللغة السواحلية في حوض الكوتقو وفي جميع أرجاء نياسالاند ، وهي شائعة الاستعمال

في تنجانيقا ، حيث لا توجد قرية لا يتكلم أهلها اللغة السواحلية . كذلك تنتشر السواحلية في فكتوريا نيانزا وفي سفوح جبال كليمنجارو ، وكينيا ، بحيث أصبح لا غنى عنها للسائحين والدعاة والمبشرين الذين تربطهم علاقات تجارية بأهم إفريقية الشرقية^(١) .

ويذكر « أندرسون » أن اللغة السواحلية في زنبار التي تمثل اختلاط المهاجرين العرب بدماء البَنْتُو الحاليين ولغاتهم ، انتشرت أيضاً بين السكان الأصليين ، مثل الديجو (Digo) في مستعمرة كينيا ، والياو (Yaos) في شرقي إفريقية البرتغالية ونياسالاند وتنجانيقا ، كما انتشرت بين بعض القبائل والبطون وبعض الأفراد في تنجانيقا ، وبصورة أقل في كينيا وأوغندا ، كما انتشرت بين الجَلا وبين الصوماليين الذين يلاحظ أن التأثيرات العربية فيهم مباشرة ومستمرة . وقد قام معلمو المدارس من السواحلية بنشاط ملحوظ بين الأهالي الذين يقيمون في الداخل على مسافة قصيرة من الساحل . ثم تضاعف هذا النشاط في مستهل القرن العشرين حتى مقاطعة كليمنجارو شمالاً وبحيرة نياسا جنوباً^(٢) .

وقد ذكر « لورينزو تيرز » عند كلامه على علاقة التعليم الغربي بالحياة الإفريقية ماسماه بمشكلة اللغة في مدارس إفريقية الشرقية والوسطى فقال : إن المسئولين عن التعليم أوصوا بتعليم اللغة الوطنية في السنين الأربع من المدارس الابتدائية ، وذكروا أنه ينبغي أن تكون هذه اللغة أداة للتعليم عدا السفة

(١) حسن إبراهيم حسن : وصف إثنوگرافي لأشهر الأمم التي تسكن شرقي إفريقية ، رسالة خطية .

أنظر أيضاً East Africa (ed. by Gordon—Brown, 1955), p. 359

Anderson, Unity and Variety in Muslim Civilization, (٢)

pp. 14, 261, 275.

(م ١٦ — انتشار الإسلام)

الأخيرة ، كما رأوا أن يستمر هذا النظام في بعض مواد الدراسة في المرحلة الأولى من المدرسة الثانوية ، وأن يتوسع في استعمال اللغة الإنجليزية كأداة لتعليم المواد الأخرى . أما في المرحلة النهائية من المدرسة الثانوية ، فينبغي أن تكون اللغة الإنجليزية أداة للتعليم ، وأن تُلغى اللغة السواحلية التي تعتبر لغة المعاملات التجارية والمالية من جميع المدارس ، وأن يعنى بدراستها على نطاق واسع في مدرسة الدراسات الإفريقية في كلية شرق إفريقيا الجامعية^(١) .

ولا يزال لدى قبيلة أنثيمورونا بجزيرة مدغشقر إلى الآن مؤلفات خطية قديمة العهد مكتوبة بالحروف العربية . وقد حافظ بعض سلاطة المهاجرين من العرب على استعمال الحروف العربية في الكتابة . وفي دار الكتب الأهلية بباريس مخطوطات ملجاشية (بفتح الميم واللام) أو عربية مدونة بلغة عربية ممزوجة بكلمات ملجاشية . وقد أخذ الملجاش^(٢) في كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية^(٣) .

ومسلمو مستعمرة الكاب ، الذين هم من سلاطة أهل الملايو كما تقدم ، يتكلمون لغة محرفة من لغة البوير ، مع خليط كبير من اللغة العربية ، وبعض كلمات إنجليزية وكلمات من لغة الملايو . ويذكر سيرتوماس أرنولد أن هناك كتاباً صغيراً ألف بهذه اللغة وكتب بحروف عربية ، وأن هذا الكتاب نشر في القسطنطينية سنة ١٨٧٧ ليستعمل كتيباً صغيراً لتعليم أصول الدين الإسلامى . وقد أضاف سيرتوماس أرنولد أن الداعى المسلم استطاع أن يحول جموعاً كبير

(١) Lorenzo Turner, Africa To-Day, p. 150.

(٢) يتكلمون الجنس الملجاشى أو الملجاش من الإفريقيين والعرب والملايو كما تقدم .

(٣) حسن إبراهيم حسن : وصف الإنفراق ص ١٠ .

بمجهود أقل من المبشر المسيحي^(١) . ولعل ذلك راجع إلى تغافل التفرقة العنصرية والتعصب الجنسي عند البيض في هذه البلاد ، على حين يعامل المسلمون أهالي هذه البلاد على وفق المبادئ الإسلامية التي تقوم على أساس الحرية والإخاء والمساواة ، ولا تقيم أى اعتبار للجنس أو اللون في النظام الاجتماعى .

ويتردد على مستعمرة الكاب كل عام جماعة من مسلمى البلاد الأخرى المتحمسين ، يبعثون بين إخوانهم في الدين حياة دينية أعمق من تلك التي كانوا يحيونها ، ويقومون بالدعوة إلى الإسلام بين الأهالى السود ، ويشيرون اهتمامهم بالتعليم .

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

مصادر الكتاب

- ٩ — تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المروفة برحلة ابن بطوطة (٤ أجزاء باريس ١٨٥٣-١٨٥٨، ١٨٦٩-١٨٧٩)، جزءان (القاهرة ١٣٤٦-١٩٢٨).
- بدج : ا. ا. و Budge, E. A. W. — ١٠ History of Ethiopia, 2 vols. (London, 1938).
- البكري (١٠٩٧-٤٧٨) : أبو عبيد عبدالله ابن عبد العزيز .
- ١١ — المغرب و ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة دي سلان (باريس ١٩١١).
- البلاذري (٢٧٩-٨٩٢) : أحمد بن يحيى ابن جابر .
- ١٢ — فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٨ هـ).
- بيرنون: ريتشارد ف Burton, Richard F. — ١٣ First Footprints in East Africa (London, 1856).
- بلاودون : و ك Plowden, W. C. — ١٤ Travels in Abyssinia and the Galla Country (London, 1868).
- بلايدن : ا. و Blyden, E. W. — ١٥ Christianity, Islam and the Negro Race (London, 1888).
- بيركهاردي : ج ل Burckhardi, J. L. — ١٦ Travels in Nubia (London, 1819).
- بيرنز — سير آلان Burns, Sir Alan — ١٧ History of Nigeria (London 1955).
- ابن الأثير (٦٣٠-١٢٣٨) علي بن أحمد بن أبي الكرم .
- ١ — الكامل في التاريخ ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤).
- الإدريسي (٦٤٩-١٢٥١) : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي .
- ٢ — نزهة المشتاق (رومة ١٥٩٢ م)
- ٣ — صفة المغرب والأندلس ، نسخته ، دوزي ودي غويه (لندن ١٨٦٦) .
- التادلي : يوسف بن الزيات
- ٤ — التصوف إلى رجال التصوف (الرباط ١٩٥٨).
- أرنولد : سير توماس و
- ٥ — The Preaching of Islam (London, 1935).
- ترجمه إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين وإسماعيل محمود النعراوى (القاهرة ١٩٤٧) الطبعة ثمانية تحت الطبع .
- ٦ — باسيه : هنري Bassé, Henré — Études sur l'Histoire d'Ethiopie (Paris, 1882)
- ت. ا. باوديتش T. E. Bowdich — ٧ Mission to Anchanti (London, 1819)
- بروفنسان : لفي
- ٨ — الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية (تطوان ١٩٢٩) .
- ابن بطوطة (٧٨٩-١٣٢٧) : أبو عبدالله محمد الطنجي .

von Grunebaum), The University of Chicago Press, (Chicago Illinois, U. S A, 1955).

جوردون — براون — ا. جوردون —
Brown A.

Year Book and Guide — ٢٦
to East Africa (1955).

Greenberg, J. جرينبرج : ج
The Influence of Islam — ٢٧
on a Sudanese Religion (New
York, 1947).

الجزائري : أبو الحسن علي

٢٨ — زهرة الآس في بناء مدينة فاس
(فاس ١٩٢٢)

Juynboll et De جوينبول ودي غويه
Goeje

Description du Maghreb — ٢٩
(Leiden, 1860).

حسن أحمد محمود : الدكتور .

٣٠ — قيام دولة المرابطين (القاهرة ١٩٥٧)

حسن إبراهيم حسن :

٣١ — تاريخ الإسلام السياسي والديني
والثقافي والاجتماعي الجزء الأول (الطبعة
السادسة، القاهرة ١٩٦٢) الجزء الثاني
(القاهرة ١٩٦١) ، الطبعة السابعة تحت
الطبع) ، الجزء الثالث (القاهرة
١٩٦٢) .

٣٢ — وصف اثنتي عشرة لأشهر الشعوب التي
تسكن شرق إفريقيا ، رسالة خطية
صغيرة .

٣٣ — تاريخ الدولة الفاطمية الطبعة الثالثة
(القاهرة ١٩٦٣) .

ترمينجهام : سبنسر
Spencer.

Islam in the Sudan — ١٨
(Oxford University Press,
London, 1949).

Islam in Ethiopia — ١٩
(Oxford University Press,
London, 1952).

A. B. Theobald أ ب : ثيوبولد
The Mabdiya, A History — ٢٠
of the Anglo-Egyptian Sudan,
1881—1899. (London, 1955).

دائرة المعارف الإسلامية

Encyclopaedia of Islam — ٢١
Davidson, ديفيدسن : باسيل .
Basil.

Report on Southern — ٢٢
Africa (London, 1952).

Duveyrier, H. دوفيرييه : هـ .
La Confrérie musulmane — ٢٣
de Sidi Mohammed Ben 'Alî
Es-Senousî (Paris 1886).

ديلافوس : موريس
Delafosse : Mauris

Les Confreries musulma — ٢٤
nes et le maraboutisme dans
les pays du Sénégal et du Niger
(Renseignements coloniaux et
Documents publié par le Com-
ité de l'Afrique Française et
le Comité du Maroc, No. 4,
Paris, 1911).

Grunebaum, جرونباوم : ج. ا. فون
A. Von

Unity and Variety in — ٢٥
Muslim Civilization (ed. by A.

- ابن حوقل (النصف الثاني من القرن الرابع
الهجرى : العاشر الميلادى)
٣٤ — المسالك والممالك والفاوز والممالك ،
(ليدن ١٨٧٣) .
- ابن خلدون (٨٠٨-١٤٠٥-١٤٠٦) :
عبد الرحمن بن محمد .
- ٣٥ — العبر وديوان للبتدأ والخبر ٧ أجزاء
(القاهرة ١٢٨٤ هـ) .
- ابن خلدون (٦٨١-١٢٨١) : شمس الدين
أبو العباس الشافعى .
- ٣٦ — وفيات الأعيان ٦ أجزاء (القاهرة
١٣٦٩-١٩٥٠) ترجمه إلى الإنجليزية
دى سلان (باريس ١٨٤٢-١٨٤٨)
- ابن أبي زرع : أبو الحسن على بن عبد الله
٣٧ — الأنيس المطرب بروض القرطاس
في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
(أبسال ١٨٤٤) (الرباط ١٩٣٦) .
- ابن زيدان : عبد الرحمن .
- ٣٨ — إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة
مكناس ، ٥ أجزاء ، (الرباط ١٩٢٩)
- السعدى : عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر
٣٩ — تاريخ السودان (باريس ١٨٩٨) .
- ابن سديد (٦٧٣-١٢٧٥) : على بن موسى
المغربى .
- ٤٠ — كتاب المغرب في حلى المغرب
والشرق في حلى المشرق (ليدن
١٨٩٨-١٨٩٩) (القاهرة ١٩٥٣)
نشره زكى محمد حسن ، وشوقى ضيف
وسيده اسماعيل كاشف) .
- ٤١ — السلاوى : الاستقصا (الدار البيضاء
١٩٥٤) .
- سيدركويست Cederquist
٤٢ — Islam and Christianity
in Abyssinia (1912).
- شقيز : نعوم
٤٣ — تاريخ السودان القديم والحديث
(طبعة القاهرة) ٣ أجزاء (القاهرة
١٩٠٤) .
- شونك هيرجرونجه Snouck Hurgronje
٤٤ — Makka (The Hague, —
1889-9)
- شهاب الدين Shihâb ad-Din
٤٥ — Futûh al-habasha, ed.
and trans. by R. Basset
(Histoire de la Conquête
de l'Abyssinie).
الشهرستانى
٤٦ — الملل والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
- ضيف الله : محمد
٤٧ — كتاب الطبقات في خصوص الأولياء
والصالحين والعلماء والشعراء في
السودان (القاهرة) .
- الطبرى (٣١٠-٩٢٢) : أبو جعفر محمد بن
جرير .
- ٤٨ — تاريخ الأمم والملوك ١٢ جزءا
(القاهرة ١٣٢٦ هـ)
- عبد المجيد عابدين : الدكتور
٤٩ — تاريخ الثقافة العربية في السودان
(القاهرة ١٩٥٣) .
- ٥٠ — بين العرب والحيشة (القاهرة ١٩٤٧)
ابن عذارى (توفى في أواخر القرن السابع
الهجرى) أبو محمد عبد الله اللراكشى .
- ٥١ — البيان المغرب في أخبار المغرب
٣ أجزاء ، نشره دوزى (ليدن
١٨٣٨-١٨٥١) .
- عرب فقيه .
- ٥٢ — فتوح الحيشة ، نشره وينيه باسيه
(باريس ١٨٩٧-١٩٠٩)

- فورجيه : د. ا. Forget, D. A. السعوى (٣٤٦-٩٥٦) : أبو الحسن على
- ٥٣ — L'Islam et le Christianisme dans L'Afrique Centrale (Paris, 1900).
- فورنيل : هنري Fournel : Henri
- ٥٤ — Les Berbères. Étude sur La conquête de L'Afrique par les Arabes (Paris, 1875).
- فيدج : ج. د. Fage, J. D.
- ٥٥ — An Introduction to the History of West Africa, Cambridge, The University Press, 1955.
- ٥٦ — القلقشندي (٨٢١ - ١٤١٨) : أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧)
- كوپلاند Coopland, East
- ٥٧ — Africa and Its Invaders
- كولبروك : سيرت ا. Colebrooke, T.E.
- ٥٨ — The Life of H. T. Colebrooke (London, 1873).
- ليو الإفريقي : Leo Africanus,
- ٥٩ — Della Discriptione dell'Africa, par Giovanni Lioni Africano (French and English Translations).
- ماس لاتري : ج. ل. دي Mas Latrie
- ٦٠ — Relations et Commerce de L'Afrique Septentrionale avec les nations Chretiennes au moyeu âge (Paris, 1886).
- مجلة العالم الإسلامى .
- ٦١ — Revue du monde Musulmane, Publié Par La Mission Scientifique du Maroc.
- ٦٢ — مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ) ترجمه إلى الفرنسية بارييه دى ميار (باريس ١٨٦١-١٨٧٧) (القاهرة ١٣٤٦ هـ) المقرئى (٨٤٥ - ١٤٤١) : تقي الدين أحمد ابن على .
- ٦٣ — المواعظ والاعتبار في ذكر الخطا والآثار جزءان (بولاى ١٢٧٠ هـ) .
- مور : فرانسيس Moore, Francis
- ٦٤ — Travels in the Inland Parts of Africa (London, 1760).
- موريل : ا. د. Morel, A. D.
- ٦٥ — Nigeria, Its People and Its Problems (London, 1911).
- ميك : ك. ك. Meek, C K.
- ٦٦ — The Northern Tribes of Nigeria (London, 1925).
- بن هشام (٢١٨-٨٢٣) : أبو محمد عبد الملك
- ٦٧ — كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٣٦ - ١٣٣٧ هـ) ، طبعة وستفالد (١٨٥٨ - ١٨٦٠) .
- هينز : حروف Haines, Grove
- ٦٨ — Africa To-Day (ed. by G. Haines), The Johns Hopkins Press, Baltimore, U.S.A., 1955.
- الوزان (٨٩ - ١٠٥ م) أبو الحسن محمد الزباني (ل و إفريقيا)
- ٦٩ — Description de l'Afrique (ed. Charles Schefer).

تصحیحات

نقذر للقاریء عن وقوع بعض أغلاط مطبعیة نوردھا هنا
مع إصلاحھا :

صفحة	سطر	خطاً	صواب
۵۶	۲۳	Udity	Unity
۲۱۱	۴	لینیا	حاضرتها طرابلس
۴۱۵	۱۱	شمالی	شمال
۲۱۹	۲۳	Fuynbollet	Juynboll et
۲۱۹	۲۱	tone	tome,
۲۲۰	۱۵	Africanis	Africanus
۲۲۶	۲۲	netes	notes
۱۷۹	۲۲	زمبری	زمبیری
۱۹۴	۸	زنزبار	وزنزبار

القاهرة

مطبعة السنة المئوية

١٧ شارع خريف باشا الكبير - عابدين

ت : ٩٠٦٠١٧

